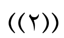
الزنبقة السوداء



الزنبقة السوداء

تأليف: ألكسندر دوما

ترجمة: فاطمة عابدين

الزنبقة السوداء

تأليف: ألكسندر دوما

ترجمة: فاطمة عابدين

الطبعة الأولى: ٢٠٠٩.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

فاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

التقديم

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

لبعض الناس هوىً معين يقيده ويعمل له ويحبه لا يبغي عنه بديلاً يُغْرَز في تفاصيله، لا يحيد عنه قيد أنملة، يسعى له ولو صادف العقبات في طريقه وقد قيل: وللناس فيما يعشقون مذاهب فهناك إنسان أحب الشعر، وارتبط به لا ينساه وآخر أحب النثر والكتابة وهناك من أولع بقراءة الصحف والأخبار، وهناك من امتهن أعمالاً رائدة يحبها فلا يستغني عنها، يمارسها بمتعة وسعادة.

وهناك من يمارس الزراعة بأنواعها، فيعشق الأرض وما عليها من زهور وأشجار ونباتات، وهناك من أغرم بالموسيقى إلى حد الهوس.

وليس المخترعون والمكتشفون إلا رجالاً تمرسوا في حب هواياتهم، وتعمقوا في دراستها، واطلعوا على

أسرارها، وأضافوا لها من ذكائهم وعلمهم وخبرتهم ما جعلهم يبتكرون أشياء ذات فائدة جلى للمجتمع.

وهناك من الهوايات ما ليس له إلا قليل من الفائدة فلا يعود على المجتمع بشيء إلا الإنفاق واستهلاك أشياء للترفيه أو التباهي، فنجد بعض البيوت تغص بالتماثيل والصور في كل مكان والتحف منثورة هنا وهناك واللوحات الثمينة مرصوفة على الجدران مما يضفي على المكان جمالاً وروعة كأنك في متحف. ومثله هواية بعض النسوة بأدوات الزينة ومواد التجميل التي ينفق في سبيلها الكثير.

وزيادة في الترف استورد البعض الأزهار الحية والورود من بلاد بعيدة كي تبقى طازجة ندية في البيوت. فاستورد الأوروبيون أزهار الخزامى من آسيا وغدت هذه الهواية قاعدة أصيلة في ثلاثينات القرن السابع عشر. وانتشرت خاصة في "هولندا" التي غدت فيما بعد مزرعة عالمية للزهور. كانت هواية أصيلة فهذه الدول تستورد الأنواع الغريبة من الزهور والورود من بلدان آسيا مثل الصين وتايلاند ونيبال وغيرها التي كانت تصدر هذا النوع من الأزهار وقد غدت تربية الأزهار والبستنة هواية دائمة

شجعت المزارعين عليها وتشكلت الجمعيات لرعاية هذه الهواية ورصدت المبالغ الكبيرة لشهرة هذه الأزهار وللمساعدة على انتشارها واكتشاف أنواع جديدة منها وتجفيفها وعرضها في معارض خاصة.

روايتنا هذه ــ قصة عالم.. هاوٍ لزراعة الزنبق واكتشاف أنواعه ـ رجح حبه لزنابقه على حبه لحبيبته مما أوقع حبه في بعض المشاكل.. فَلنرَ!

فاطمة عابدين

الفصل الأول

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الزنبقة السوداء شعب يعترف بالجميل

في العشرين من شهر آب عام ١٦٧٤ كانت مدينة "لاهاي" تعج بالحركة، بيضاء كأنها غانية، حتى لتظن أن كل أيامها أعياد. مدينة "لاهاي" بروضها الظليل وأشجارها الضخمة تنحني فوق بيوت "غوطية" الطراز، والمرايا في قنواتها تعكس صور النواقيس والقباب التي تكاد تكون شرقية الطراز.

مدينة "لاهاي" عاصمة الولايات السبعة المتحدة تنفتح شرايينها بغيض من الأحمر والأسود من أناس يلهثون قلقين مسرعين. بعضهم يغدو وسكينة على خصره وآخرون بنادقهم فوق أكتافهم أو العصي في أيديهم يركضون باتجاه (بيتانهوف) ذلك السجن الهائل الذي تشاهد نوافذه

المحـددة. ولا يـزال حتـى البـوم يـئن فيـه "كـورنيـل دوويـت" بتهمة القتل من قبل طبيب يدعى "تيكلر" و"كـورنيـل" هـذا الأخ الشقيق لموظف كبير في هولندا.

ولـو لم يكـن التـاريخ في هـذا الوقت أو في هـذه السـنة التي بدأت فيها قصتنا هذه مرتبطاً ارتباطـاً لا فكـاك منـه بالاسمين الكبيرين الذين ذكرناهما كانت تلك الأسـطر القليلـة الـتي سنشـرح بهـا مقدمـة عبـارة عـن فاتحـة للشـهية. لكننا أردنا قبل كل شـيء أن نلفت نظـر القـارئ إلى ذلـك الصـديق القـديم الـذي حرصنا على الوفـاء لـه بكلمتنـا في الصفحات القادمة كما نشير إلى قارئنـا أن هـذا الشـرح لا يمكــن الاســتغناء عنــه لتوضــيح القصــة كمــا أنــه مــن الضـروري إدراك الحـدث السياسـي الكـبير الـذي أحـاط بهذه القصة أو الحدث الذي جرت القصة في أيامه!

كـان "كـورنيل دوويـت" مفتشـاً علـى الحـواجز في تلـك الـبلاد وسـيد المدينـة الكـبيرة "دور دريخـت" الـتي ولـد فيهـا والنائـب في الحكومـة الهولنديـة ويبلـغ مـن العمـر تسـعاً وأربعين سنة.

في تلك الأيام ناء الشعب الهولندي من تبعات الحكم الجمهوري...

فكانت تصدر مراسيم بتغيير النظام يرفضها باستمرار الأخ الأصغر لـ "كورنيل دوويت" ويدعى "جان دوويت" حرصاً على الجمهورية.

وكان الشعب يفضل الحكم الرئاسي ويحبه، ولا يرى خلف هذه الجمهورية إلا الموجهين الصارمين للأخوين "دوويت" هذين الأخوين اللذين لا يقدرا الحس الوطني كبقية الشعب إذ كانا يطالبان دائماً بحرية بلا حدود ورفاه لا رفاه بعده، كما أن الشعب الهولندي يتصور خلف مطلب الرئاسة ذلك الوجه المطرق والمفكر للشاب "غليوم دورانج" وقد أطلق عليه اسم "الصامت" واعتمدت أجيال المستقبل هذا الاسم.

أما الأخوين "دوويت" فكانا يعتبران ملك فرنسا لويس الرابع عشر مثال التفوق الأخلاقي وهو الذي أوصل هولندا إلى ذلك النجاح المذهل في ضواحي نهر "الراين" الذي صوره بطل الرواية "الكونت دوغيش" والذي طالما غنى له

الشاعر "بوالو" إذ تفوقت تلك الضواحي بالرفاه على إمكانات الولايات السبعة خلال ثلاثة أشهر فقط.

وكان ملك فرنسا لويس الرابع عشر عدواً للهولنديين منذ القدم فكان الهولنديون يشتمونه ويسخرون منه كما يشاؤون.

والحق يقال أن ذلك كان بأفواه الفرنسيين الذين لجئوا إلى هولندا. لكن هذا كان يزيد من اعتداده بنفسه ووطنه مما جعل منه بطل فكرة الجمهورية.

فهناك إذن محركان قويان ضد الأخوين "دوويت" مما شكل ضدهما مقاومة قوية وهما : الشعور والحس الوطني، وثم ذلك الوهن الطبيعي لدى كل الشعوب المقهورة وهي تحلم بظهور رئيس آخر على المدى القريب ينقذها من الخراب والهوان. هذا الرئيس الذي سيظهر قريباً والذي سيقاوم "لويس الرابع عشر"مهما كان هذا الأخير قوياً ومهما تكن قوته المستقبلية ضخمة هو "غليوم دورانج" ابن "غليوم الثاني" وحفيد "هنرييت ستيورا" من الملك "شارل الأول"، ملك انكلترا، هذا الشاب الصامت

الـذي جئنـا ذكـره سـابقاً والـذي يبـدو أثـره مـن خـلال حكمه.

يبلغ هذا الشاب من العمر ثلاث وعشرون عاماً. كان "جان دوويت" مديناً له فقد هدف أن يجعل من هذا الشاب الصغير مواطناً صالحاً. ولكن حبه لموطنه أضعف من حبه لتلميذه بسبب ذلك المرسوم المتكرر الذي أبعد عن غليوم فكرة الرئاسة.

لكن اللّه يسخر من ادعاءات هؤلاء الرجال. منهم يتصرفون بقوى الأرض ولا يستشيرون قوى السماء.

وقام الهولنديون حسب أهوائهم وخوفهم من الإرهاب الذي يوحي به اسم "لويس الرابع عشر" بتغير سياسة وطريقة عمل الموظفين، وأبطلوا مفعول المرسوم المتكرر عندما أسندوا الرئاسة إلى غليوم دورانج، وكذلك مخططاتهم التي لم تكشف بعد ولا تزال مخبوءة في أعماق المستقبل.

وخضع "جان دوويت" الموظف الكبير لإرادة المواطنين. أما "كورنيل دوويت" فكان أكثر مقاومة فرغم التهديد بالموت من قبل الدهماء الهولنديين الذين حاصروه في منزله

في "دوردريخت" فقد رفض أن يوقع على القرار الذي يعيد ترتيب الرئاسة. وتحت إلحاح زوجته التي كانت تنتحب وقع أخيراً. وأضاف حرفين يفيدان أن التوقيع تم بالضغط. لذلك كانت نجاته في ذلك اليوم من ضربات أعدائه نوعاً من المعجزة.

أما "جان دوويت" فكان استسلامه لإرادة مواطنيه أكثر سرعة وسهولة لكنها لم تفده فبعد عدة أيام نجا من محاولة اغتيال، بطعنات سكين ولكنه لم يمت من جراحه.

ولم يكن هذا ما يجب أن يقوم به الأورانجيون، إذ أن قتل الأخوين "دوويت" سيكون عائقاً كبيراً لإنجاح مشاريعهم، فأبدلوا مخططاتهم حالاً وحاولوا أن يمارسوا بالمؤامرة ما عجزوا عن القيام به بالسلاح.

"ومن النادر جداً أن يتواجد بإرادة الله، وفي الوقت المحدد رجل كبير لمهمة كبيرة" وحتى لو حدثت تلك المعجزة الكبيرة بطريق الصدفة فلا بد أن يسجل التاريخ اسم هذا الرجل المصطفى ويدعو الأجيال القادمة لإكباره، ولكن عندما يتدخل الشيطان في أعمال البشر

ما هو قائم فمن النادر أن لا يجد تحت تصرفه وبالسرعة المطلوبة بعض البائسين الذين يكفي أن تهمس بأذنهم كلمة واحدة حتى يبدؤوا بالتنفيذ مباشرة: هذا البائس وفي هذا الظرف وجد مستعداً ليكون هذا العنصر الشرير والتعس والمدعو "تيكلر" كما أسلفنا، وكان طبيباً جراحاً وجاء ليعترف:

إن "كورنيل دوويت" يائس وأنه كتب حاشية لإلغاء القرار الدائم، وأنه يلتهب كرهاً "بغليوم دورانج" وقد كلف أحد القتلة المأجورين بتخليص الجمهورية من الهيكلية الجديدة وأن هذا القاتل المأجور هو "تيكلر" نفسه. ولكن "تيكلر" هذا ناء ضميره من التوبيخ لمجرد تفكيره بهذه الجريمة فقرر أن يبوح بسرها بدل من أن يرتكبها" والآن..

ما رأيكم بذلك الانفجار الذي سيحدث لدى الأورانجيين عندما يعلمون بهذه المؤامرة: أوقف محصل الضرائب "كورنيل دوويت" في بيته في ١٦ آب ١٦٧٢.. وسجن في غرفة منفردة في سجن "بيتانهوف" أما العذاب الذي أعد له فهو انتزاع اعتراف منه بتلك المؤامرة المزعومة ضد "غليوم دورانج".

كانت نفسه عظيمة وكان قلبه كبيراً ينحدر من أسرة كبيرة من الشهداء، ليس من عائلة سياسية، بل من عائلة متدينة. كان يبتسم وهم يضربونه ويرتل بصوت ثابت وقوي مؤكداً على أوزان المقاطع التي يتلوها من أبيات "هدراس" في التعذيب والمقاومة ولم يبح لهم بشيء مما أرهق جلاديه وأضعف إيمانهم الديني. فلم يبرئ القضاة "تيكلر" من كل التهم الموجهة إليه ولم يعفوا عن "كورنيل دوويت" من كل التزاماته بل غرموه بأتعاب الدعوى وأمروا بنفيه إلى الأبد خارج أراضي الجمهورية. كل هذا إرضاء لجمهور طالما أخلص له "كورنيل دوويت" فلم يصب هذا القرار مواطناً بريئاً فقط بل مواطناً كبيراً أيضاً. وكما سنرى مستقبلاً لم يكن هذا كل شيء!!

كذلك فعلت "اثينا" في القديم التي خلفت له تركة كبيرة من الجحود انتقلت إلى هولندا لكن "أثينا" اكتفت بنفي "ارستيد" إلى الخارج.

أما "جان دوويت" فقد استقال حالما علم بخبر الحكم على أخيه من مسؤوليته كموظف كبير. وقد كوفئ هذا الأخير بشكل غير لائق ثمناً لإخلاصه للبلاد وقد حمل معه إلى حياته المنفردة كل الضجر وكل الجراح وكل

المكاسب التي تعود بشكل عام على الرجال الشرفاء الذين أجرموا لأنهم أحبوا أوطانهم ونسوا أنفسهم.

في ذلك الوقت، كان "غليوم دورانج" ينتظر الحدث بفارغ الصبر وبكل الوسائل الموجودة تحت تصرفه حتى أن الشعب الذي كان يعشقه جعل له من جسد هذين الرجلين سلّماً يحتاج إليه كي يصل إلى الرئاسة.

وفي التاسع والعشرين من آب ١٦٧٢ كما ذكرنا في أول هذا الفصل، كانت المدينة كلها تزحف نحو "بيتانهوف" لتشهد "كورنيل دوويت" خارجاً من السجن ومغادراً إلى المنفى ولترى ماذا ترك التعذيب من أثر على جسده النبيل، هذا الجسد الذي يعرف "هدراس" جيداً.

ويضيف أن هذه الجموع المتجهة إلى "بيتانهوف" لم تذهب فقط من أجل هذه النوايا البريئة في رؤية مشهد ما.. لكن الكثيرين منهم رغم وظائفهم يحلمون بأن يلعبوا دوراً ما أو أن يأخذوا منصباً ظنوا أنه لم يشغل بشكل جيد ولنبدأ الحديث عن هؤلاء الجلادين:

كان بين الجماهير من هم أقل عداء، لا يهتمون كثيراً بالمشهد المثير جداً بل كان يثير فيهم فقط

التأكيد على الذات، والفخر بأنهم شاهدوا وسط الضباب ذلك الرجل المنتصب القامة دائماً الذي لا يخاف.. هل كان منكفئاً وواهناً من التعذيب؟ هل نراه شاحباً ومدمىً ومهاناً؟ أليس هذا نصراً كبيراً للبرجوازية التي لا تزال تحكم الشعب وينتمي إليها كل هذا الشعب الإرهابي؟

ويقول الأورانجيون وقد اختلطوا بعامة الشعب أن هذه الجماهير تعرف كيف تتصرف كآلة حادة! إذ قد تجد هذه الجماهير في "بيتانهوف" في مدخل هذه المدينة فرصة صغيرة يلقون بها بعض الوحل أو بعض الأحجار على هذا الرجل؟ الذي لم يسلم الرئاسة إلى "غليوم دورانج" بل وقد حاول أن يقتله!

ومن ثم هناك أعداء فرنسا المتوحشون الذين أضافوا :

أنه لو كان أهل لاهاي شجعاناً وأبطالاً لما تركوا "كورنيل دوويت" يغادر إلى المنفى لأنه عندما يصبح خارج البلاد يمكنه أن ينفذ دسائسه مع فرنسا ويعيش من أموال المركيز "لوفوا" مع أخيه "جان دوويت" ذلك المجرم الكبير... في مثل هذا التفكير كانت الجماهير تعدو..

أهل "لاهاي" يجرون نحو "بيتانهوف"..

ومن أسرع الراكضين، والغضب يغلي في قلبه بدون هدف كان "تيكلر" وقد اعتبره الهولنديون بطل الأمانة والنزاهة.. بكل مجد الوطن والإحساس المسيحي. ويروي هذا الغادر الشجاع المحاولة التي قام بها "كورنيل دوويت"، ويضفي عليها من كل أزهار نفسه ومن كل ينابيع مخيلته، فضائله ووفاءه وتلك المبالغ الطائلة التي وعده بها، وتلك الآلية الجهنمية التي أعدوها له ليسهلوا عليه هو "تيكلر" عملية القتل.

وفي كل جملة من محاضرته ـ وقد استقبلها الجمهور بنبض شديد ـ كنت تسمع صيحات الانفعال ـ والحب للأمير غليوم وصراخ الغضب الأعمى ضد الأخوين "دوويت" والجمهور يشتم أولئك القضاة الذين سمح قرارهم لمجرم أثيم أن يهرب سالماً معافى هذا المجرم "كورنيل". وردد بعض المحرضين بصوت خافت:

- إنه سيسافر.. إنه سيفلت منا.

ويردد البعض الآخر:

- ينتظره مركب في "شرانجيين" مركب فرنسي ـ لقد رآه "تيكلر"

ويردد الجمهور

- البطل "تيكلر" الشجاع "تيكلر"

ويقول صوت آخر

- سوف يهرب "كورنيل" وأخوه "جان" سيهرب أيضاً وهو لا يقل عنه خيانة وسيأكل الغادران أموالنا في فرنسا ، أموال مراكبنا وأسلحتنا ومشاغلنا التي بيعت إلى "لويس الرابع عشر"

وقال مواطن آخر متقدم:

هيا نمنعه من المغادرة! ورددت الجماهير:

إلى السجن.. إلى السجن..

ولدى سماع هذه الأصوات ضاعف البرجوازيون سرعتهم، وظهرت البنادق ولمعت الفؤوس وتأججت العيون.

على كل حال.. لم يحدث أي عنف حتى الآن . وبقي الفرسان الذين يحرسون "بيتانهوف" هادئين، باردي الأعصاب صامتين، رابطي الجأش يرعبون بهدوئهم هذا أكثر من هذه الجماهير وصراخها.

وكـان رئـيس فرقـة الخيالـة ـ في "لاهـاي" هادئـاً تحـت أنظـار رئيسـه، يحمـل سـيف خـارج غمـده، لكـن رأس السيف كان متجهاً إلى جهة ركاب فرسه.

كانـت هـذه الفرقـة هـي السـور الوحيـد الـذي يحمـي السجن وتمنع عنـه بوقفتها هـذه الكتل البشـرية الصـاخبة والفوضوية. وقد احتل البورجوازي الذي كان يتوضع أمـام "بيتانهوف" لتـأمين النظـام، مناصفة مـع الفرقـة الـتي تعمـل لإشعال حماس المتمردين وهم يصيحون:

ـ يعيش أورانج ـ وليسقط الخونة.

كـان وجـود "تيللـي" وفرسـانه يشـكل كابحـاً صـحياً لهـؤلاء الجنـود البورجوازيـون ولكـن.. وبعـد فـترة قصـيرة، ازداد حماسـهم وصـراخهم" إذ لا شـجاعة بـدون صـراخ" إضافة إلى هدوء وصمت الفرسـان.. فتقـدموا خطـوة باتجـاه السجن يجري خلفهم كل هؤلاء الرعاع من هذا الشعب.

عنـدها، تقـدم الكونـت "تيللـي" لمـواجهتهم وحيـداً، رافعاً سيفه، عابس الوجه مقطب الحاجبين:

-أيها السادة البورجوازيون الكبار.. لماذا تتقدمون؟ ماذا تريدون؟ فهز البرجوازيون بنادقهم ورددوا الصيحات نفسها:

- يعيش "أورانج" وليسقط الخونة!

ورد السيد "تيللي"

يعيش "أورانج" فليكن ـ وأنا أفضل الوجوه المرحة عن الوجوه الكئيبة! أما الموت للخونة، فلو رغبتم به وأنتم تريدونه بهذه الصيحات فقط، فاصرخوا كما تشاؤون، لكن عند تنفيذ هذا الموت فعلياً، فأنا هنا لكي أمنع ذلك، وسأمنعه، وقال:

أيها الجنود! سلاحكم للأعلى!

وأطاع جنود "تيللي" الأمر الصادر إليهم بدقة وهدوء جعل "البرجوازيين" يتراجعون بسرعة ومهانة مما جعل قائد الفرقة يبتسم. وقال بصوت مرح:

- اهدؤوا أيها الجنود، وعليكم أن لا تتقدموا خطوة واحدة نحو السجن.

وصاح أحد الجنود البرجوازيون بصوت غاضب:

- أنت تعلم يا سيدي أننا نحمل بنادقنا! ورد "تيللي":

- أنا أرى ذلك جيداً وأنتم تجعلونها تلمع أمام عيني، لكن لاحظوا أيضاً أن لدينا مسدسات تصيب إلى مدى أبعد من خمسين خطوة وأنتم لا تبعدون عنا أكثر من خمس وعشرين فقط..

وردد مرافقوا البرجوازيون وقد فرغ صبرهم:

- الموت للخونة! وغمغم القائد:

- إنكم ترددون دائماً الكلمات نفسها كم هذا متعب. واتخذ مكانه في مقدمة الركب بينما راح الصخب يتضاعف حوله "بيتانهوف". وفي الوقت الذي يلتهب فيه الشعب حماساً لا يدرك أنه إذا اشتم رائحة الدم من أحد ضحاياه يكون الآخر يتعجل بلوغ مصيره فيذهب لملاقاته.

كان يسير على بعد مئة خطوة من ساحة السجن خلف الجماهير وخلف الفرسان ليصل إلى "بيتانهوف".

ونزل "جان دوويت" من عربته مع أحد الخدم سائراً على قدميه يجتاز تلك الساحة الصغيرة أمام السجن. وقدم نفسه إلى حارس السجن وهو يعرفه من قبل إذ كان قائداً له. وقال:

- عم صباحاً يا "غريغوس" أتيت لأخرج أخي كورنيل "دوويت" خارج البلدة وقد حكم عليه كما تعرف بالنفي.

أما الحارس، وهو نوع من الدببة، يفتح باب السجن ويغلقه فقط. فتح له الباب ليدخل المبنى، وعاد الباب ليغلق خلفه. وعلى بعد عشر خطوات التقى "جان" بصبية حلوة تبلغ من العمر سبعة عشر أو ثمانية عشر عاماً، ترتدي لباس السجن فرحبت به ترحيباً كبيراً. وقال لها وهو يمر بيده تحت ذقنها:

عمي صباحاً، يا روزا الجميلة الطيبة، كيف حال أخي؟ وأجابت الفتاة:

آه يا سيد "جان" أنا لا أخشى عليه من الألم الذي سببوه له قبل النوم.. ما أخشاه عليه..

ماذا تخشين عليه أيتها الفتاة الحلوة؟

ما أخشاه عليه هو الألم الذي يريدون أن يسببوه له في المستقبل يا سيد "جان". وقال "جان دوويت": نعم! هذا الشعب! أليس كذلك؟

ـ هل تسمع أصواته؟

كـان مضـطرباً حقـاً.. لكـن الشـعب سـوف يعرفنـا ، فـنحن لم نقـدم لـه إلا الخـير! سـوف يهـدأ في المسـتقبل.. وغمغمت الفتاة وهي تبتعد لتنفذ أمراً لوالدها بإشارة آمرة:

مع الأسف! ليس هذا سبباً كافياً.

أبـداً .. أبـداً يـا آنسـة إن مـا تقولينـه هـو عـين الحـق. ثـم تابع طريقه وهو يقول:

هـا هـي فتـاة صـغيرة قـد لا تحسـن القـراءة والكتابـة ، وطبعـاً لم تقـرأ شـيئاً تـأتي لـتلخص تـاريخ العـالم بكلمـة واحدة.

كـان هادئاً دائماً.. واليوم أكثر حزنـاً ، وتـابع الموظـف الكبير دربه نحو غرفة أخيه.

الفصل الثاني

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الأخوان

وكما قالت روزا الجميلة بشك يملؤه الانفعال...

كان "جان دوويت" يصعد الدرج الحجري المؤدي إلى غرفة أخيه في السجن كان البرجوازيون يقومون بكل ما يستطيعون لإبعاد فرقة "تيللي" التي كانت تقف في وجههم. وما كنا نراه أن الشعب يقدر النوايا الطيبة للحرس الوطني. كان يصيح بملء قوته: يعيش البرجوازيون...

إن "تيللي" حذراً ومصمماً أن ينافس البرجوازيين.. حاملي البنادق المعدة لمقاتلة سريته، فشرح لهم على قدر ما يستطيع التعليمات التي أمرته بها الدولة والتي تلزمه

بحراسة السجن ومحيطه مع ثلاثة من زملائه. وصاح الأورانجيون:

ـ لماذا هذه الأوامر؟ ولماذا تحرسون السجن؟

ويجيب السيد "تيللي"

ـ هذا ما سألتمونيه قبل قليل ولا أستطيع أن أقوله لكم. فهم يقولون لي: احرس.. فأقوم أنا بالحراسة، وأنتم كرجال جيش تعرفون معنى الأوامر فهي لا تناقش.

لكنهم أعطوا هذه الأوامر كي يتمكن الخونة من الفرار! وأجاب "تيللي"

ـ قد يكون ذلك صحيحاً ـ طالما أن الخونة قد حكم عليهم بالنفي.

ـ لكن من أعطاك هذه الأوامر؟

ـ إنها الدولة حتماً!

ـ إنهم من الخونة.. والدولة من الخونة

ـ هذا ما لا علم لي به!

ـ وأنت أيضاً خائن!

ـ أنا؟

ـ نعم أنت.

حسناً.. لنتفاهم أيها البرجوازيون: من أخون أنا؟ هل أخون الدولة؟ لا استطيع لأني أعمل عندها ومأجور من قبلها، فأقوم بكل التعليمات التي تطلبها مني بحذافيرها!

عند ذلك.. وطالما أن "تيللي" محق ولا يمكن مناقشة رده فقد ازداد الصخب والتهديد بشكل مخيف، ورد عليهم "تيللي" بكل لطف وكياسة ممكنة.

أيها السادة البرجوازيون ـ أرجو أن تنزعوا الطلقات من بنادقكم فقد تخرج منها طلقة سهواً، فإذا جرحت هذه الطلقة واحداً من فرساني فسنلقي مئة رجل منكم على الأرض. مما يحزننا كثيراً وصاح البرجوازيون:

ـ إن قمتم بهذا نطلق النار عليكم بدورنا.

ـ نعم.. لكن إن أطلقتم النار علينا نقتلكم جميعاً لآخر رجل وستموتون جميعاً.

إذن.. دع مكانك هذا الآن.. تكون قد قمت بعمل مواطن صالح فقال "تيللي":

أنا لست مواطناً، إنني موظف والأمر يختلف. وأنا لست هولندياً فأنا فرنسي وهذا يزيد الاختلاف.. وهكذا

لا أعرف الدولة التي تدفع لي أجري، أعطوني أمراً من الدولة أعطيكم مكاني وأعود مباشرة فقد سئمت البقاء هنا.

ــ نعم، نعم، وردد الكلمة مئة صوت امتزجت بأصوات خمسمائة آخرين تقول: لنذهب إلى دار البلدية، لنذهب ونقابل النواب هناك، هيا لنذهب وغمغم "تيللي" وهو يرى الجموع الغاضبة تغادر الساحة:

ـ هيا، اطلبوا العدالة من دار البلدية، وسترون إن كانت ستقدمها لكم.. هيا اذهبوا يا أصدقائي!

كان ذلك الموظف يعتمد على شرف القضاة وهؤلاء بدورهم يثقون بشف الجندي. وهمس، ملازم أول في أذن الكونت:

قل لي يا سيدي.. أرجو أن يرفض القضاة إعطاء هؤلاء الغاضبين ما يريدونه وأن يرسلوا لنا بعض القوة.. وأظن أن هذا لا يضير.

في الوقت الذي تركنا فيه "جان دوويت" يصعد الدرج الحجري بعد أن تحادث مع السجان "غريغوس" وابنته "روزا"، وصل إلى مدخل غرفة أخيه، فوجد أخاه "كورنيل

دوويت" يئن فوق فراشه وقد عاقبته مصلحة الضرائب وطبقت عليه تعذيباً تمهيدياً.. ولكن عندما وصل قرار النفي أصبحت عملية التعذيب الغرائبية لا معنى لها.

كان "كورنيل" ممدداً فوق سريره، يداه مكسورتان وأصابعه كذلك. فهو لم يعترف بشيء من جريمة لم يرتكبها. فجاء التعس ليعلم الآن بعد ثلاثة أيام من التعذيب ليعلم أن القضاة حكموا عليه بالنفي بعد أن توقع أن يحكموا عليه بالإعدام: جسده نشيط، روحه لا تقهر. يصاب أعداؤه بالخيبة عندما يرونه في أعماق غرفة مظلمة في "بيتانهوف" ويلمحون على وجهه الشاحب ابتسامة الشهداء التي تجعله ينسى ذل الأرض وهو أنها منذ أن يلمح عظمة وكبرياء السماء.

واستطاع هذا الرجل بقوة إرادته فقط أن يستعيد قواه ويستجمعها وهو يحسب كم من الوقت تحتاج العدالة لتنجز شكلياتها ويبقى في هذا السجن. وفي نفس الوقت ارتفعت أصوات الصخب بين البرجوازيين وامتزجت بأصوات الشعب مهددة الأخوين معاً ومهددة السيد "تيللي" الذي يشكل حاجزاً مانعاً لحمايتهما، صخب قوي يرتطم

بجدران السجن كموجة من المد يجري ليصل إلى أسماع السجين.

ومهما كانت هذه الأصوات مهددة فإن "كورنيل" لم يحاول أن يتعرف عليها ولم يتعب نفسه بالوقوف لينظر من النافذة الضيقة المشبكة بالحديد، لتسمح للضوء والشمس بالمرور من الخارج.

كان في حالة جيدة رغم استمرار بالألم الذي اعتاد عليه، وأخذ يشعر بتلك المتعة في روحه وفكره ليخلص من هذا الضيق الجسماني، وبدأ يشعر كأن هذه الروح وهذه النفس قد تخلصت من ماديتها وأخذت تسبح فوقها كما يسبح هذا اللهب الذي يصعد نحو السماء من مدفأة قد انطفأت منذ قليل، ذلك اللهب الذي يصعد نحو السماء والذي مما لا شك فيه أن اقتراب أخيه منه هو ذلك السر المجهول الذي أيقظه فيه وكشفه له..

وفي نفس الوقت الذي خطر فيه "جان" في فكر أخيه وكاد أن يهمس باسمه، فتح الباب ودخل "جان" بخطى مسرعة نحو سرير أخيه الذي بسط له ذراعين مجروحتين ويدين ملفوفتين بالقماش، أخيه الكبير الذي استطاع

بحكمته أن يتجاوز وينسى كل الخدمات التي قدمها لبلاده وان يتجاوز الكره والحقد الذي يكنه له الهولنديون وقبّل "جان" جبين أخيه الذي جلس ليرتاح فوق سريره وقد مد يديه المضمدتين فوق الفراش.

كورنيل ـ يا أخي المسكين ـ إنك تتألم كثيراً، أليس كذلك؟

أنا لا أتألم أبداً حالما أراك.

آه يا عزيزي كورنيل ـ على العكس فأنا الذي يتألم لرؤيتك هكذا، كم أتعاطف معك

ـ طالما فكرت بك وهم يقومون بضربي ولم أفكر بالشكوى، بل قلت مسكين أخي.. لكنك الآن عندي.. وليس هذا كل شيء، فهل أتيت لتأخذني؟ أليس كذلك؟

ـ نعم

ـ لقد شفيت الآن، ساعدني لأنهض وسترى أنني أمشي جيداً.

لن تمشي كثيراً فإن عربتي في "فيفيه" خلف فرسان "تيللي"

فرسان "تيللي"؟ لماذا هم هنا.. فرد الموظف الكبير وهو يبتسم بحزن:

لأنهم يفترضون أن شعب "لاهاي" يريد أن يراك تغادر ويخشون بعض الصخب. ورد "كورنيل" وهو يمعن النظر في وجه أخيه المرتبك.

ـ صخب... يخشون الصخب؟

ـ نعم يا "كورنيل" وردد السجين ولكنه يخاطب نفسه.

هذا ما كنت أتوقعه.. ثم عاد إلى أخيه وقال:

ـ هناك جمهور كبير في "بيتانهوف" أليس كذلك؟

ـ نعم يا أخي..

إذن كيف استطعت الوصول إلى هنا ، كيف تركوك تمرّ؟

ورد الموظف الكبير بنوع من الألم والمرارة:

ـ أنت تعرف يا أخي أن الناس هنا لا يحبوننا ، لقد سرت في دروب متباعدة.

ـ لقد تخفيت يا "جان"؟

ـ لقد خططت أن أصل إليك بسرعة فقمت بما يقوم به السياسيون عندما تكون الريح مواتية، لقد سرت في دروب ملتوية.

وفي هذا الوقت كانت الهتافات في ساحة السجن تتصاعد بشكل أكثر ارتفاعاً وكان "تيللي" يتحاور مع البرجوازيين. وقال "كورنيل"

حتماً أنت ربان ماهر يا "جان" ولكن لا أدري إن كنت تستطيع أن تخرج أخيك من "بيتانهوف" وسط هذه الأمواج الصاخبة من المناوئين الشعبيين ومن حسن الحظ أن تقود المركب من "ترويت" إلى "آنفير" في أعماق "الإسكوت" ورد "جان"

ـ سنحاول ذلك على الأقل، بمعونة الله. لكن عندي لك كلمة قبل كل شيء.

ـ قلها.. وارتفعت الأصوات من جديد. وقال "كورنيل"

ـ كم هم غاضبون.. هؤلاء الناس! هل هم غاضبون منك أم مني؟

أعتقد أنه منا نحن الاثنين. وأقول لك يا أخي أن البرتغاليون يأخذون علينا ، وسط احتجاجهم الأحمق ـ تعاملنا مع فرنسا.

ـ يا للحمقى:

ـ نعم ـ لكنهم يأخذون ذلك علينا

ولكن.. لو تم هذا الأمر لوفر عليهم مشاكل كثيرة لتجاوز نهر "الراين" ولاستطاعت هولندا أن ترى نفسها دولة لا تقهر رغم قنواتها ومستنقعاتها.

ـ كل هذا صحيح يا أخي. ولكن ما هو أكثر صحة أنهم لو لم يدركوا حتى الآن علاقتنا مع السيد "لوفوا"

وأنك مهما كنت رباناً ماهراً فلن تستطيع أن تنقذ ذلك المركب الضعيف الذي سيحمل الأخوين "دوويت" إلى خارج هولندا.. إن معاملتنا هذه ستؤكد للناس الشرفاء كم أحب بلدي وكم قدمت من التضحيات الشخصية من أجل حريتها وشرفها ومجدها.. لكن هذا التعامل بالنسبة للأورانجيين، سيفقدنا كل انتصاراتنا وآمل يا أخي أن تكون قد أحرقت أوراق المعاملة قبل أن تغادر "دوردريخت" لتأتي إلى "لاهاي" لملاقاتي. وتابع "كورنيل":

يا أخي إن تعاملك مع السيد "لوفوا" يؤكد أنك كنت الأعظم في الأوقات الأخيرة وأنك الأكبر وأنك الأمهر والأكرم من كل المواطنين في الولايات السبعة المتحدة، ثم أحب بلادي، وكم أحب مجدك يا أخي. وهل حرصت كثيراً على إحراق هذه المعاملة.

وردَّ الموظف الكبير وهو يدنو من النافذة:

ـ يا أخي ـ لقد ضعنا في هذه الحياة على الأرض.

ـ لا يا أخي "جان" على العكس.. لقد حصلنا على سلامة جسدنا وعلى شعبيتنا!

ماذا فعلت إذن بهذه المعاملة وهذه الوسائل؟

لقد عهدت بها إلى "كورنيليوس" ابني بالمعمودية الذي تعرفه ويسكن "دوردريخت"

آه.. يا للولد المسكين ـ هذا الطفل البريء الغالي هذا العالم الذي يعرف الكثير من الأشياء، ولا يفكر إلا في الأزهار ويحمد الله على أنه خلقها، لقد حملته هذا العبء القاتل ـ لقد ضاع يا أخي، هذا "الكورنيليوس" العزيز..

ـ لقد ضاع.. ولماذا؟

نعم، سيكون إما قوياً أو ضعيفاً، فلو كان ضعيفاً، ومهما يكن بعيداً عما يحدث لنا، رغم أنه في "دوردريخت" فلا بد أن يعلم في يوم من الأيام ماذا حصل لنا وتذهله هذه المعجزة أما إذا كان قوياً فسيفتخر بنا.. إذا كان ضعيفاً فسيخاف من صداقتنا..

ـ إذا كان قوياً فسوف يبوح بالسر.. إذا كان ضعيفاً فسيتركهم يأخذونها

وفي الحالتين.. ضاع.. وضعنا.. فلنهرب بسرعة طالما لدينا الوقت. وقال: ونهض "كورنيل" من سريره ممسكاً بيد أخيه التي ارتجفت عندما لامست الشاش الذي يغلفها.

أتظن أنني لا أعرف ابني هذا؟ ألم اعرف كيف يقرأ أفكار "فان بيرل" وكل أحاسيسه؟

أنت تسأل إن كان ضعيفاً أم قوياً! لا يهم كيف يكون، المهم أن يحفظ السر. ومن المصلحة أنه نفسه لا يعرف السر! واستدار "جان" دهشاً.. وتابع "كورنيل" بابتسامته العذبة:

إنك سياسي مهذب، وقد رباه "جان" وأكرر يا أخي أنه يجهل طبيعة الأمانة التي عهد بها إليه، وقيمتها

أسرع يا أخي ما دام لدينا الوقت، ولنمرر له أمراً بأن يحرق الملف.

عن أي طريق يمكن أن نمرر له هذا الأمر!

بواسطة خادمي "غريك" الذي سيرافقنا على حصانه وقد حضر معي إلى السجن كي يساعدك على نزول السلالم.

فكّر جيداً يا "جان" قبل أن تقوم بحرق هذه العناوين الماجدة.

- لقد فكرت يا "كورنيل" إن على الأخوين "دوويت" أن ينقذوا حياتهم قبل كل شيء أو أن ينقذوا اسمهم، فإذا متنا فمن سيدافع عنا؟ يا "كورنيل"! وعلى الأقل من سيكون قد فهمنا؟

- أنت تعتقد إذن أنهم يقتلوننا لو عثروا على هذه الأوراق.

ولم يحاول "كورنيل" أن يجيب أخاه بل مد يده نحو "بيتانهوف" حيث اندفعت من هناك دفقة من الصياح الوحشي.. وقال "كورنيل":

ـ نعم، اسمع هذا الصياح.. ولكن ماذا تقول هذه الأصوات؟ وفتح "جان" النافذة، وصاحت الجماهير:

ـ الموت للخونة!

ـ هل سمعت يا "كورنيل"؟

وقال السجين وهو يرفع عينيه نحو السماء ويهز كتفيه:

ـ والخونة.. هم نحن؟ ورد "جان":

ـ نعم، هم نحن!

ـ أين "غريك"؟

ـ إنه على باب غرفتك!

دعه يدخل! وفتح "جان" الباب ودخل الخادم الأمين الذي كان ينتظر فعلاً أمام الباب.. وقال:

ـ ادخل يا "غريك" واحفظ جيداً ما سيقوله أخي لك.

ـ آه.. لا يكفي يا أخي أن أقول! عليّ أن أكتب!

ـ لماذا؟

إن "فان بيرل" لا يسلم الإضبارة ولا يحركها إلا بأمر محدد. وسأله "جان" وقد رأى يديه المجروحتين.

ولكن ـ أتستطيع أن تكتب يا صديقي العزيز؟ آه يا كورنيل لو كان لدي ريشة للكتابة وحبراً لكنت رأيت!

ـ هاك قلماً على الأقل!

ـ هل لديك أوراق هنا؟ إنهم يتركوا لي شيئاً هنا!

ـ هذا الكتاب المقدس.. انتزع منه أول ورقة..

لكن خطك سيكون غير مقروء.. فقال "كورنيل" وهو يحرج أخوه بنظره.

ـ هيا يا أخي. إن الأصابع التي صمدت لمثاقب الجلادين، وهذه الإرادة التي قاومت الألم، سوف تتكاثف معاً ولن يهتز سطر الكتابة، فكن مطمئناً يا أخي!

وأمسك "كورنيل" القلم وكتب:

وعلى السطر الأبيض يمكنك أن ترى نقاط من دماء انبثقت من ضغط الإصبع على القلم فوق اللحم المفتوح. وتصبب العرق من جبين الموظف الكبير، وكتب "كورنيل"

ـ الابن الغالي

احرق الوديعة التي أرسلتها إليك، احرق دون أن ترى ما فيها أو أن تفتحها كي تبقى مجهولة حتى منك نفسك إن السر الموجود فيها من النوع الذي يسبب قتل مودعها.. احرقها تنقذ "كورنيل وجان" وداعاً.. أَحبني!

ومسح "جان" والدموع تسبح من عينيه نقاط الدم التي لونت الورقة. "كورنيل" فأعطاها إلى "غريك" وعاد إلى كورنيل فأعطاه كافة التعليمات .. فوجده شاحباً من الألم وبدا كأنه سيغيب عن الوعي.

وعندما سمع "غريك" همس سيده القديم، وأنه سيكون على الجانب الآخر من "فيفيه".. قال: علينا أن نرحل بدورنا.

ولم تكن تمضي عدة دقائق حتى انطلقت صفارة قوية طويلة ثقبت بصوتها البحري القباب وأوراق أشجار الدردار السوداء وتجاوزت كل الأصوات والصخب في "بيتانهوف" ورفع "جان" يديه إلى السماء ليشكرها وقال:

علينا أن نرحل الآن يا "كورنيل"!

الفصل الثالث

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

تلميذ "جان دوويت"

كـان زئـير الجمـاهير يتعـالى في "بيتـانهوف" بشـكل أكثـر رهبـة ويصـل إلى مسـامع الأخـوين ممـا جعـل "جـان دوويت" يتعجل سفر أخيه.. وقام وفد من البرجـوازيين كمـا سبق أن ذكرنـا.. بالـذهاب إلى دار البلديـة ليطلبـوا صـرف فرسان "تيللي" بعيداً عن "بيتانهوف" إلى "هوجوستريت".

ومــن أول المشــهد، أن شــاب غريــب يتــابع تفاصــيل الحدث بفضول كبير وهو يتجه مع الآخـرين أو خلفهـم إلى دار البلدية ليعرف وبالسـرعة الممكنـة مـا سيجري هنـاك، كـان هـذا الشـاب الغريـب يبلـغ مـن العمـر اثـنين أو ثـلاث وعشـرين عامـاً لا تبـدو عليـه قـوة..! كـان يتخفـى ويبـدو أن لديه من الأسباب ما يدفعه لأن لا يعرفه أحد. وجه شـاحب

متطاول يحمل منديلاً من قماش يمسح به جبينه المبلل بالعرق وشفتيه الملتهبتين بشكل دائم.. عيناه ثاقبتان كعيون الطيور المقدسة، أنف طويل معقوف فم صغير مستقيم مفتوح كشقي الجرح.

هذا الرجل لو قدم إلى "لافاتير" لو كان هذا حياً لا يزال ـ لكان موضوعاً لدراسات فيزيولوجية لم تتغير حتى الآن.. وربما لصالحه!! وقال القدماء: ما هو الفرق بين وجه الغازي ووجه القرصان؟ إنه الفرق بين النسر والعقاب! الفرق بين الصفاء والقلق.

هذه الهيئة الشاحبة، وهذا الجسم الناحل التعب.. وهذه المشية القلقة التي تنطلق من "بيتانهوف" وإلى "هوجوستريت" خلف هذا الشعب الذي يزأر ما هي إلا صورة رجل يشك، أو لص قلق، أو رجل شرطة متفاءل بهذه التعليمات الأخيرة. بسبب هذا الاهتمام الكبير الذي يحاول الآن أن يخفيه، على كل حال كان الشاب يرتدي ثياباً بسيطة بدون أي سلاح ظاهر، يد نحيلة لكنها مشدودة العصب كفان جافان لكنهما بيضاوان، تبدو عليه ارستقراطية لطيفة يتكئ على كتف موظفه لا على يده.

يده على سيفه معه عندما يبدأ بالمسير، ويراقب كل ما يجري حول "بيتانهوف" ببساطة ولهفة واضحة. وعندما وصلا إلى "هوجوستريت" دفع الرج الذي يرافقه إلى أسفل إحدى النوافذ المفتوحة وسدد بصره نحو شرفه دار البلدية وبسبب هذه التعليمات الهادرة وصيحات الشعب هذه فتحت نافذة من "هوجوستريت" وتقدم منها رجل ليخاطب الجماهير. وسأل الشاب مرافقه وهو يشير إليه بعينيه:

ـ من هذا الذي ظهر على الشرفة؟

وبدا الرجل على الشرفة مضطرباً كأنه يستند إلى الحاجز أكثر من كونه منحنياً فوقه وردد الضابط:

ـ إنه النائب "باول"

ـ كيف هو هذا الرجل؟ هل تعرفه

ـ سيدي، إنه رجل شجاع ـ على ما أعرف عنه على الأقل.

ولدى سماعه هذا التقدير من الضابط عن صفات "باول" هذا، قام بحركة تدل على خيبة أمل غريبة، وعدم رضا ظاهر لاحظها الضابط سريعاً فأضاف بسرعة.

هـذا مـا يقولونـه عنـه علـى الأقـل وأنـا لا أسـتطيع أن أؤكـد لأنـي لا أعرفـه شخصـياً سـيدي ورد الرجـل الـذي كان يناديه.. سيدي:

ــ رجـل شـجاع؟ أتريـد أن تقـول! أم أنـك تريـد قـول شجاعة رجل!

آه يـا سـيدي.. أنـا آسـف.. لا أسـتطيع أن أؤكـد هـذه الملاحظـة بالنسـبة لرجـل لا أعرفـه إلا بالشـكل فقـط، أكرر ذلك لفخامتكم .. وقال الشاب هامساً

ـ فعلاَ.. لننتظر ونرى

وحنى الضابط رأسه.. ولزم الصمت وتابع فخامته:

إذا كـان هذا الرجل شجاعاً حقـاً فإنـه سيقبل الطلب الـذي سـيقدمه لـه هـؤلاء الغاضـبون وحـرك يـده المضـطربة وهـي ترتجف فوق كتف رفيقه كما تتحرك الأصابع فـوق ملامس آلة موسيقية مما فضح نفاذ صبره الذي لم يستطع أن يخفيه سيما مع ملامح وجهه الجامدة الكامدة.

عندما سمع صوت البرجوازيين يخاطب النائب قائلاً:

أيـن زمـلاؤك النـواب الآخـرون؟ وصـاح "بـاول" للمـرة الثانية.

إنني وحيد هنا في الوقت الحاضر مع السيد "اسبرين" ولا أستطيع اتخاذ قرار لوحدي. وصاحت آلاف الأصوات:

النظام، النظام..

أراد السيد "باول" أن يتكلم، لكن صوته لم يسمع وشوهدت ذراعاه تتحركان فقط حركات متعددة ويائسة. وعندما رأى الناس لا يسمعونه عاد نحو النافذة المفتوحة ونادى السيد "اسبرين" وظهر السيد "اسبرين" بدوره على الشرفة حيث قوبل بتحية أكثر حماساً مما كانت قبل عشرة دقائق عندما قوبل بها السيد "باول" ولم يستطع أن يبدأ مهمته في الوعظ في هذا الجو من الصخب دفعته أن يجبر الحرس ـ الذي لم يستطع مقاومة هذا الشعب الحاكم ـ على الإصغاء إلى خطبة السيد "اسبرين" وقال الشاب وهو يرى الشعب يتداخل من الباب الرئيسي إلى "هوجوستريت"

هيا ـ على ما يبدو أن النهاية ستكون في الداخل يا "كولونيل" هيا نستمع إلى الخاتمة..

آه يا سيدي .. احذر..

من أي شيء؟

هنـاك العديـد مـن النـواب ممـن كانـت لهـم معكـم علاقات، ويكفي أن يتعرف عليك أحدهم..

حتى يتهمونني بـأنني السـبب في كـل هـا الحمـق. أنـت علـى حـق، وصـعد احمـرار النـدم علـى وجنتيـه لأنـه أظهـر الكثير من المشاركة في رغباته.

ـ نعم.. إنك على حق.. فلنبق هنـا. سـوف نـراهم يعـودون مع الأمر أو بدونه وهـكذا نحكم علـى السـيد "بـاول" بـأنـه رجـل شـجاع أم لا.. وهــذا مــا أرغـب بمعرفتــه فعــلاً وقــال الضابط، وهو يتأمل بدهشة ذلك الذي يناديه "سيدي"

ـ من المؤكد أن سيادتكم تفترض لوقت ما أن النواب يـأمرون فرسـان "تيللـي" بالابتعـاد، ألـيس كـذلك؟ وقـال الشاب ببرود:

ـ ولكن لماذا؟

ـ لأنهـم إن فعلـوا ذلـك فهـذا سـيكون ببسـاطة بمثابـة حكم بالإعـدام علـى "كورنيـل وجـان دوويـت" ورد صـاحب الفخامة.

ـ سـوف نـرى.. أن اللّه وحـده يسـتطيع أن يعـرف مـاذا يوجد في قلوب الرجال!

ونظر الضابط خفية إلى وجه مرافقه الهادئ وشحب وجهه.

ـ كم هو شجاع هذا الرجل! وكم يمتلك من القوة والشجاعة!!

ومن المكان الذي وقفا فيه كانت تصل إلى أسماعهم أصوات الصخب والضجيج الذي يحدثه تدافع الجماهير على أدراج دار البلدية، كما يسمع أصوات الصخب من تلك النافذة المفتوحة المؤدية إلى الشرفة التي بدا منها السيد "باول" والسيد "اسبرين" اللذان عادا إلى الداخل إذ خشيا أن يؤدي التدافع بهما إلى السقوط من حاجز الشرفة، كما شوهدت ظلال الرجال تتحرك من نوافذ الدار. توقفت الضجة فجأة ثم عادت وتأججت بشكل أقوى اهتز لها البناء القديم حتى قمته. وأخذ سيل الناس يتجول في الردهات والأدراج ثم أخذت الجماهير تتدافع من تحت قبة الباب كالإعصار.

وفي مقدمة المجموعة كان رجل يكاد يطير بدل من أن يمشي.. شخص شوهه الفرح بشكل قبيح، كان

"تيكلر" الجراح وهو يصيح ويلوح في الهواء بورقة في يده ويقول:

لقد أخذناه.. لقد حصلنا عليه. وصاح الضابط بدهشة:

لقد حصلوا على الأمر.. فقال فخامته بهدوء:

حسناً لقد تأكد رأيي! ألا تعلم أن السيد "باول" رجل شجاع؟!

وكأن الأمر: شجاعة رجل. (إنه ليس هذا ولا ذاك)

ثم أخذ يتابع بطرف عينيه دون أن يرف له جفن تلك الجماهير التي كانت تدور حوله ثم قال:

تعال.. لنعد الآن إلى "بيتانهوف" أظن أننا سنرى هناك مشهداً غريباً.. وحنى الضابط رأسه وتبع صاحبه دون أن يجيب.

كانت الجماهير كبيرة العدد في الساحة وحول بناء السجن ولكن فرسان "تيللي" كانوا يحتوونهم دائماً بنفس الاطمئنان والثبات. وبعد قليل سمع الكونت "تيللي" الصخب المتنامي يزداد شدة كلما اقترب من السجن. وهذا المد من الرجال الذين بدت طلائعهم تندفع كالسيل

الهادر يتدفق ومن ثم رأى الورقة تهتز مع الريح فوق أياد متشنجة تحمل أسلحة تتوقد ، فقال وهو ينهض عن مقعد ويلامس بمقبض سيفه كتف ملازمه.

-أظن أن هؤلاء المجرمين قد حصلوا على الأمر! فصاح الملازم:

- يا للجبناء الأنذال. وفعلاً كانت الورقة الأمر الذي حصل عليه البرجوازيون بكل صيحات الفرح.

وبعد قليل، تخلخلت المجموعة، وسارت سلاحها إلى الأسفل وهي ترسل صيحات عالية لملاقاة الكونت "تيللي"

لكن "تيللي" لم يكن ذلك الرجل الذي يسمح لهم بالاقتراب من السجن. وقال:

هيا نحرر صدور خيولنا.. وإني سآمر بالمسير. وردت عليه مئات الأصوات:

ـ ها هو الأمر!

تناوله بدهشة كبيرة وألقى عليه نظرة سريعة ومتعالية وقال:

-إن من وقعوا هذا الأمر هم الجلادون الحقيقيون بالنسبة "لكورنيل دوويت" أما أنا فلا يمكن أن أخط بيدي كلمة واحدة مثل هذا الأمر المشؤوم.

قال ذلك وهو يدفع بمقبض سيفه الرجل الذي حاول أن يستعيد الأمر وتابع:

انتظر قليلاً، أن أمراً كهذا له من الأهمية ما يجعله يستحق أن يحتفظ به، وثنى الورقة ووضعها باعتناء في جيب قميصه ثم التفت إلى فرقته وقال:

ـ يا فرسان "تيللي" سيروا إلى اليمين، ثم قال بصوت خفيف لا يسمعه الجميع

الآن أيها القتلة نفذوا أعمالكم

واستقبل الجمهور رحيل الفرقة بصياح قوي، امتزج بكل الحقد الجشع والفرح الوحشي الذي كان يدندن فوق "بيتانهوف" وتحرك الفرسان ببطء وبقي الكونت "تيللي" في المؤخرة مواجهاً لخطة هذا الشعب الثمل الذي أخذ يحتل قطع الأرض التي يغادرها فرسان "تيللي" ولم يكن "جان دوويت" مبالغاً في تقدير خطورة الوقت ـ كما رأينا ـ بينما كان يساعد أخاه على النهوض ويستعجله في

المغادرة، ونزل "كورنيل" الدرج متكئاً على ذراع أخيه وفي أسفل السلم المؤدي إلى الساحة وجد "روزا" الجميلة ترتجف وقالت:

آه يا سيد "جان" ما أكبر هذه المصيبة. وسألها:

ماذا حدث إذن يا صغيرتي؟

يقال إنهم ذهبوا إلى "هوجوستريت" يحضرون أمراً بإبعاد فرسان "تيللي" عن السجن فقال:

حقاً يا صغيرتي، فلو ابتعد فرسان "تيللي" لغدا الوضع سيئاً بالنسبة لنا. فقالت الفتاة وهي ترتجف: آه يا سيدي لو أستطيع أن أسدي إليكما نصيحة!!

قولي يا طفلتي: قد يكون من المدهش أن يخاطبني الله على لسانك!

- لا تخرجوا يا سيدي من الباب الكبير.

- لماذا؟ طالما أن فرسان "تيللي" لا يزالون في مواقعهم.

نعم.. هم في مواقعهم إذا رفضوا طلبهم

- حتماً..

وهل معكم من يرافقكم إلى خارج البلدة؟ إذ عندما تتجاوزان آخر فارس من فرسان "تيللي" تصبحون فريسة بين أيدي الشعب.

ـ إذن .. أين الحرس البرجوازي؟

ـ الحرس البرجوازي هو الألد عداوة وأكثر انفعالاً

ـ ما العمل إذن؟

لو كنت مكانك يا سيد "جان" لخرجت من الباب السري الذي يؤدي إلى طريق مقفر فالناس جميعاً في الشارع الرئيسي أمام المدخل الرئيسي للسجن ومن ثم تصل إلى أبواب البلدة التي تودان الخروج منها وقال "جان"

ـ لكن أخي لا يستطيع أن يمشي. فرد "كورنيل" بعبوس ثابت:

ـ سأحاول ذلك.. وسألت الفتاة:

هل معكم عربتكم؟ فقال "جان"

العربة هنا.. أمام الباب الرئيسي. فقالت الفتاة:

لقد أدركت أن حوذيكم رجل مخلص فطلبت منه أن يذهب لانتظاركما أمام الباب السري وتلاقت نظرات

الأخوين بحنو كبير وأوحت نظراتهما بنوع من الإحساس بعرفان الجميل وتركزت على الصبية فقال "جان"

علي أن أرى الآن إن كان "غريغوس" يريد أن يفتح لنا الباب! وقال "روزا"

- لا إنه لا يريد

- وما العمل إذن؟

توقعت أن يرفض فأخذته من الحزمة بينما كان يتحدث مع واحد من حاملي البنادق..

وهل هو معك؟

- إليك سيد "جان" وقال "كورنيل":

يا طفلتي! لا أملك شيئاً أقدمه لك لقاء خدمتك لنا سوى كتابي المقدس ستجدينه في غرفتي، إنه الهدية الأخيرة لك من رجل شريف، وآمل أن يجلب لك السعادة ورددت الفتاة:

شكراً "كورنيل" لن أتركه أبداً، وغمغمت وهي تتنهد:

يا للأسى.. فأنا لا أعرف القراءة. فقال "جان":

ها هو الصخب يتجدد وأظن أن لا وقت لدينا نضيعه، فقال الصبية الحلوة:

هيا إذن.. وقادت الأخوين إلى دهليز يؤدي إلى الجهة المقابلة للسجن فهبطا سلماً باثنتي عشر درجة واجتازا ساحة صغيرة لها سور ممزق وباب القوس مفتوحاً فوجدا نفسيهما في الجهة المقابلة للسجن في ذلك الشارع المقفر أمام عربة تنتظرهما. وقد أنزلت مرقاتها. وصاح الحوذي وهو يرتجف هلعاً.

هيا أسرعا يا سادتي.. ألا تسمعانهم؟

وأصعد الموظف الكبير أخاه أولاً ثم التفت إلى الشابة، وقال:

الوداع يا صغيرتي.. كل ما نستطيع أن نعبره لك هو بعض العرفان بالجميل فنحن نكلك إلى الله فهو لن ينساك. وآمل أن تكوني قد استطعت إنقاذ حياة رجلين وتناولت "روزا" اليد الممدودة إليها وقبلتها بكل احترام .. وقال:

هيا اذهبوا يقال أنهم يدفعون الباب.

وصعد "جان دوويت" إلى العربة بسعة واتخذ مكانه جانب أخيه وأسدل غطاء العربة وهو يقول:

- هيا بنا إلى "تول هوك" وتول هوك هي البوابة التي تغلق الدرب المؤدي إلى المرفأ الصغير في "سشيولينغ" حيث ينتظر بناء صغير هناك وصول الأخوين. وانطلقت العربة بسرعة يقودها حصانان قويان وهي تحمل الهاربين. وتابعتهم "روزا" ببصرها حتى انحرفت العربة إلى زاوية الشارع عندها عادت لتغلق الباب خلفهما، ثم ألقت المفتاح بالبئر.

كان الصوت الذي سمعته هو صوت الجماهير الشعبية التي بعد أن فرغت من ساحة السجن، اندفعت إلى بابه، ومهما كان هذا الباب متيناً ومهما كان "غريغوس" يرفض أن يفتحه، وعلينا أن نقر له بهذا فهو لن يقاوم طويلاً. وشحب وجه "غريغوس" وهو يفكر هل من الأفضل أن يفتح لهم الباب أم أن يتركهم يحطمونه؟

عندها أحس أنهم يجذبونه من ثيابه والتفت فرأى "روزا" فقال لها:

ـ أتسمعين صوت الغاضبين؟

- أسمعهم جيداً يا أبي.. لو كنت مكانك..

- لفتحت لهم الباب أليس كذلك؟

- لكنهم سوف يقتلونني

- نعم لو استطاعوا أن يروك..

- وكيف تريدين أن لا يروني..

- اختبئ

- ولكن أين؟

- في الزنزانة السرية

ولكن أنت يا ابنتي؟

- سأنزل معك يا أبي وعندما يغادرون السجن نخرج من مخبئنا. وصاح "غريغوس"

أنت والله على صواب ومن المدهش أن تكون في هذه الرأس الصغيرة كل هذه الحكمة.

وأخذ الباب يترنح بسبب فرح الشعب الكبير، وقالت "روزا" وهي تفتح باب السقف

تعال يا أبي.. تعال. وسأل "غريغوس" وسجنائنا. وقالت الشابة

سيحرسهم الله.. دعني أهتم بك

وتبع "غريغوس" ابنته وأغلقت الفوهة فوقهما. وفي نفس الوقت تحطم الباب وسمح للجماهير بالدخول.

وهذا المخبأ الذي انزلقت فيه "روزا" ووالدها والذي أطلق عليه اسم المخبأ السري أتاح للشخصين القادمين ملجأ أميناً لا يعرفه إلا السلطات المسؤولة وهو مخبأ يحتجزون فيه عند الضرورة بعض المجرمين الخطرين الذين يخشى أن يقوموا ببعض الثورات والانقلابات وعمليات الاختطاف.

وأخذ الجمهور داخل السجن يزأر ويصيح:

الموت للخونة، وإلى المشنقة يا "كورنيل" إلى الموت إلى الموت!

الفصل الرابع

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الجزارون

كان الشاب يتكئ بشكل دائم على ذراع الضابط، يخفي وجهه تحت قبعته ويمسح بشكل دائم جبينه وشفتيه بمنديل كان معه، ينظر بطرف عينيه إلى "بيتانهوف" بكل هدوء ويحتمي في ظل افريز لحانوت مغلق كان يتأمل المشهد الذي يقدمه له الجمهور الغاضب مشهداً يقترب من نهايته وقال للضابط:

أظن أنك على حق يا "فان ديكن" وأن الأمر الذي وقع عليه النواب هو حقاً أمر بالموت على "كورنيل" هل تسمع صوت هذا الشعب؟ إن له الكثير على الأخوين "دوويت" فقال الضابط

حقاً.. فأنا لم أسمع في حياتي أصواتاً كهذه

يبدو أنهم وصلوا إلى غرفة سجن رجلنا ، ولكن آه. انتبه .. أليست هذه نافذة الغرفة التي سجن فيها "كورنيل"؟

وبالفعل كان هناك رجل يمسك بكلتا يديه الحاجز الحديدي الذي كان يُغلق على غرفة "كورنيل" ويهزه هزاً عنيفاً.. لكن الفرقة كانت فارغة وقد غادرها الرجل منذ عشرة دقائق فقط.. وصاح الرجل:

ها.. ها.. لا يوجد أحد هنا؟ وصاح القادمون الأخيرون الذين لم يستطيعوا دخول السجن بسبب امتلائه بالبشر!

ـ كيف لا يوجد أحد؟ .. لا يوجد أحد .. لقد هربا وسأل فخامته وقد شحب لونه

ماذا يقول الرجل؟

ـ آه يا سيدي.. يقول خبراً مدهشاً وسعيداً لو كان صحيحاً!

ـ سيكون فعلاً نبأ سعيداً لو كان صحيحاً.. لكنه للأسف لن يكون كذلك.

وقال الضابط.. هل ترى.. أنت هناك، بعض الوجوه الغاضبة وقد تقلصت من الحقد لتسد النوافذ وهي تصيح:

لقد أنقذا .. لقد هربا.. لقد سمحوا لهم بالفرار. أما الشعب الذي بقي في الطريق فقد أخذ يرميهم بكل اللعنات والشتائم الممكنة. فقال الضابط:

- سيدي، يبدو أن السيد "كورنيل" قد نجا حقاً! ورد هذا:

ـ نعم .. من السجن يمكن ذلك! ولكن ليس من المدينة، سوف ترى يا "فان ديكن" أن المسكين سيجد الباب مغلقاً، الباب الذي يظنه مفتوحاً..

- إذن.. هل أعطي الأمر بإغلاق أبواب المدينة؟

لا .. لا أظن ذلك..! ومن قد يكون أعطى هذه الأوامر؟

- ومن تفترض أن يكون؟ ورد فخامته بلا مبالاة.

- هي الأقدار! فهناك العديد من عظماء الرجال يقفون ضحية هذه الأقدار.

وأحس الضابط بالقشعريرة تسري في جسده لدى سماعه هذا الكلام وأيقن بشكل أو بآخر أن السجين قد هلك. وفي هذا الوقت انفجرت أصوات الجماهير كالرعد عندما تأكدت أن "كورنيل" ليس في السجن. والواقع أو "كورنيل وجان" بعد أن جانبا بحيرة السمك سلكا

الطريق الواسعة التي تؤدي إلى "تول هوك" وقد أعطيا الأمر للحوذي أن يبطئ سير العربة كي لا تلفت انتباه المارة مما يدعو للشك. وعندما بلغا منتصف الطريق وشاهدا الحاجز أحسا أنهما تركا خلفهما الموت والسجن وأن أمامهما الحياة والحرية.

لكن الحوذي لم يطع التعليمات وسار بالعربة بأقصى سرعة. وتوقف فجأة.

وسأله "جان" وقد أخرج رأسه من العربة: ـ ماذا هناك؟

ورد الحوذي وقد اختنق صوته رعباً: ـ آه يا سيدي! وقال الموظف الكبير:

ـ أتمم كلامك؟ ماذا هناك؟

ـ إن باب الحاجز مغلق!

ـ كيف يغلق الباب؟ إنه يبقى مفتوحاً طيلة اليوم بالعادة! ـ انظر!

وانحنى "جان دوويت" نحو الخارج ورأى الباب مغلقاً حقاً! فقال "جان":

سر مع ذلك.. إن لي من السلطة ما يدعو البواب لفتحه. وتابعت العربة سيرها لكن الحوذي.. لم يكن

ليدفع بخيوله باطمئنان.. ومن ثم.. عندما أخرج رأسه من العربة رآه أحد العمال وعرفه. وكان هذا العامل قد تأخر عن رفاقه، فأغلق بابه على عجل وأسرع يلاقي رفاقه في "بيتانهوف" وأطلق العامل صيحة وركض خلف رفيقين له كانا يعدوان أمامه فلحق بهما بعد أقل من مئة خطوة وتحدث معهما فوقف الرجال الثلاثة وراحوا يتابعون العربة ليتأكدوا من في داخلها وفي هذا الوقت بلغت العربة "تول هوك" فصاح الحوذي:

افتح الباب! وخرج البواب من بيته ووقف أمامه، وقال:

ـ أفتح! وبماذا أفتح؟

ـ افتح بالمفتاح..

ـ بالمفتاح حتماً، لكن يجب أن يكون هذا المفتاح معي! وسأل الحوذي:

ـ كيف ذلك! أليس المفتاح معك؟

ـ لا

ـ ماذا فعلت به إذن؟

ـ لقد أخذوه مني!

ـ من هم؟

ـ إنه شخص لا يريد لأحد أن يخرج من البلدة.

وأخرج الموظف الكبير رأسه من العربة مغامراً بكل شيء في سبيل كل شيء.

ـ افتح .. افتح لي فأنا "جان دوويت" وأخي "كورنيل" أسير به إلى المنفى.

وصاح البواب وهو يندفع نحو العربة:

آه يا سيد "دوويت" أنا آسف جداً.. أقسم بشرفي لقد أخذوه مني!

ـ متى كان ذلك؟

ـ هذا الصباح

ـ ومن أخذه منك

ـ إنه شاب يكاد يبلغ الثانية والعشرون من العمر، نحيل وشاحب..

ـ ولماذا أعطيته له؟

ـ لقد كان معه أمر موقع ومختوم!!

ـ من قبل من؟

ـ من قبل رجال البلدية. وقال "كورنيل" بهدوء:

ـ لقد ضعنا.. حتماً!

هل تعرف هذه الحيطة في كل الأبواب؟

ــ لا أدري! فقال "جان" للحوذي: على الإنسان أن يحافظ على حياته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً!"

هيا لنذهب إلى باب آخر! ثم قال للبواب وهو يغير اتجاه العربة:

شكراً لرغبتك الصادقة يا صديقي.. إن النوايا هي بمثابة العمل! لقد كنت ترغب في خدمتنا أمام اللّه فكأنك قمت بذلك! وصاح البواب

ـ آه .. هل ترون ماذا هناك؟ وصاح جان بالحوذي:

هيا انطلق وسط هذه المجموعة، وسر في الشارع على اليسار فهذا أملنا الوحيد.

أما المجموعة التي تحدث عنها "جان" فكانت نواتها الرجال الثلاثة الذين رأيناهم يتابعون العربة والتي ازداد عددها بسبعة أو ثمانية آخرين عندما كان "جان" يتحاور مع البواب كانت نواياهم سيئة بالنسبة للعربة، وعندما رأوا الخيول تتدفع نحوهم، وقفوا يعارضونها وسط الطريق يلوحون بأيديهم ويصيحون.. قفوا.. قفوا..

فـانحنى الحـوذي فـوقهم يجلـدهم بسـوطه واصـطدم الرجال بالعربة. لم ير الأخوان شيئاً مما حدث فهما داخل العربة المقفلة لكنهما شعرا أن الحصانين قد وثبا واهتـزت العربة اهتزازاً عنيفاً هـذه الآلـة المتحركـة. ثم انـدفعت مـن جديـد وقـد مـرت فـوق شـيء مسـتدير وطـري كـأن جسـد إنسان قد سـقط. ومـن ثـم انطلقتـا وسـط سـيل مـن السـباب والشتائم وصاح "كورنيل"

كـم أخشـى أن نكـون قـد سـببنا كـارثـة مـا! وصـاح "جان"

أسـرع.. أسـرع.. وتوقف الحوذي رغم هـذا الأمـر وصـاح: ألا ترى؟

كـانت كل جماهير "بيتانهوف" في نهاية الشارع الـذي تقصده العربة! كانت الجماهير تزحف وتجأر كالعاصفة وصاح "جان" بالحوذي:

توقف.. واهرب وانج بنفسك لا فائدة من الـذهاب أبعد من هنا ـ لقد ضعنا!

وصـرخت خمسـمائة مـن الأصـوات بوقـت واحـد: هـا هما.. ها هما..

- نعـم .. هـا همـا الخائنـان، الجـزاران، القـاتلان..
والتقى الجمعان، الذين جاؤوا لملاقاة العربة والـذين يعدون خلفها وقد حملوا بين أيديهم جثة الرجل الـذي سقط وهـو يحاول القفز على الخيول. وكـان هـو ذلـك الشخص الـذي شعر الأخوان أنهم داسوه بالعربة.. توقف الحوذي قليلاً، ثم تـذكر جملـة قالها لـه صـاحبه فـرفض أن يهـرب. وتوقفـت العربـة بـين جمهـور جـاء لملاقاتهـا وآخـر كـان يعـدو للحـاق بها. وبعد دقيقة واحدة غدت العربة جزيرة تطفو فوق أمواج من البشر.

وتوقفـت العربـة فجـأة إذ أن ضـابطاً أطلـق النـار علـى أحـد الحصـانين فسـقط يتخـبط بـين العجـلات. وفي هـذا الوقـت فتحـت نافـذة في أحـد المنـازل وأمكـن رؤيـة ذلـك الوجـه الناحـل الشـاحب والعينـين الكـابيتين وتركـزا علـى المشهد الذي سيجري بعد قليل ومن خلفه بدا وجه الضابط وقد بدا شاحباً كصاحبه وصاح:

يا إلهي .. ماذا سيحدث .. ورد صاحبه:

سيحدث شيء رهيب حتماً..

آه يا سيدي.. هل ترى؟ إنهم يخرجون الموظف الكبير من العربة ويضربونه إنهم يمزقونه

فعلاً.. إن هؤلاء الناس منفعلون جداً ، متأثرين بحقد قديم. قال الشاب ذلك وهو لا يزال محتفظاً بهدوئه المعهود الذي لا يعبر عن شيء..

ها هو "كورنيل" أيضاً يجرونه من العربة وهو محطم من قبل وقد شوهه التعذيب آه.. انظر إليه.. انظر..

نعم .. إنه "كورنيل" حقاً.. وأطلق الضابط صرخة ألم وأدار وجهه إذ أن "كورنيل" قبل أن يصل إلى الدرجة الأخيرة قبل أن يصل إلى الأرض تلقى ضربة بقضيب حديدي كسرت رأسه.. نهض مرة أخرى.. لكن ليسقط من جديد. وجره بعض الرجال من قدميه إلى وسط الجماهير يتبعه خيط من دمائه النازفة وأصوات الجماهير التي تهدر بصراخ الفرح.

وازداد شحوب الشاب.. وقد ظنناه لا يتأثر .. وغاصت عيناه تحت أجفانهما فترة ولاحظ الضابط نظرة الشفقة لفترة وقد أتاح لها أن تنطلق لأول مرة فحاول الاستفادة من رقة قلبه. فقال الضابط:

أنظر يا سيدي.. إنهم يذبحون الموظف الكبير.. وكان الشاب قد أعاد فتح عينيه

الحقيقة أن هذا الشعب شرس جداً فليس من الخير أن تخونه. وقال الضابط:

سيدي ـ ألا يمكن أن نستطيع إنقاذ هذا المسكين؟ وهو الذي ربى جلالتكم، إن كان هناك من وسيلة فقلها! وعلي أن أفقد حياتي في هذا السبيل!

أما "غليوم دورانج" وهو ذلك الشاب فقد أسدل جفونه على عينيه بشكل حزين ليخفي الغضب الأسود الذي يتطاير من تحتهما وأجاب:

أيها الضابط "فان ديكن" اذهب إلى جماعتي وقل لهم أن يجمعوا السلاح في كل الحالات

ولكن.. هل أترك سيدي وحيداً في مواجهة هؤلاء القتلة؟ فقال له:

لا تكن قلقاً علي أكثر من نفسي.. هيا اذهب.. وغادر الضابط المكان مسرعاً تدل على أنه هرب من رؤية مقتل الموظف الكبير المخجل أكثر من طاعة الأمر الصادر إليه ولم يكد يغلق هذا الأخير الباب حتى أخذ

"جان" يبذل جهداً ليصل إلى عتبة البيت الذي يختبئ فيه تلميذه وهو يترنح تحت عشرات الضربات تنهال عليه من كل جانب وهو يقول:

أخي.. أين أخي؟ وتناول أحد الثائرين قبعته ورماها على الأرض بضربة من يده وأبرز له الدماء التي لطخت يديه عندما بقر بطن أخيه "كورنيل" ولكي لا يضيع فرصة أسرع ليقوم بنفس العمل للموظف الكبير.. وهم يسحبون جثة الذي قتل قبل قليل إلى المشنقة. وصرخ جان صرخة حادة ووضع يديه على عينيه فقال له أحد الفرسان:

هل تغلق عينيك..؟ سأفقئها لك! وأطلق عليه نبلاً صغيراً جعل الدم يتدفق من وجهه. وصاح "جان" وهو يحاول أن يرى من خلال الدم المتدفق من وجهه ويتمتم بعبارة:
ـ أخي.. أين أخي؟!

هيا.. اذهب لملاقاته، وأطلق عليه ضربة من مقبض بندقيته وهو يشد الزناد لكن الطلق لم يخرج، فأمسك القاتل البندقية بكلتا يديه وحطم بها "جان دوويت" فترنح هذا الأخير وهوى بين قدميه. وبقوة إرادة عليا صاح بصوت يكاد يختنق آه يا أخي.. فما كان من الشاب في البناء

المقابـل إلا أن أغلـق النافـذة، ولكـن لم يبـق الكـثير ليشاهده فقد أطلق أحد الرجال طلقة اخترقت جمجمته وسقط "جان" سقطة لم يقم بعدها أبداً. عندها رغب هؤلاء الجناة أن يفرغوا أسلحتهم على الجثة فكان البعض يضربه بجسم البندقية أو السيف أو السكين ويريدون أن يسحبوا بعضاً من دمائه أو قطعة من ثيابه. وعندما غدا القتيلان عاريين أخذت الجماهير تسحبهما عراةً وداميين إلى مشنقة شدت على عجل علقوهما فيها من قدميهما. عندها تقدم أحد الجبناء الذين لم يتمكنوا من ضرب اللحم الحي أخذوا يقطعون اللحم الميت وراحوا يبيعون القطع، كل قطعة صغيرة من "جان دوويت" وكورنيل بعشرة قروش.

ولا يمكننا أن نقول أنه من خلال درفة النافذة التي لا تكاد ترى، شاهد الشاب نهاية هذا المنظر الرهيب ولكن يمكننا أن نقول أنه بينما؟ كان الشعب مشغولاً بذلك العمل المفرح الذي قاموا به ـ فلم يأبهوا له ووصل إلى "تول هوك" التي كانت لا تزال مغلقة فسأله البواب؟

هل ستعيد لي المفتاح؟

نعم نعم يا صديقي.. إليكه! فقال البواب وهو يتنهد:

آه يا سيدي، لو أعطيتني المفتاح قبل نصف ساعة فقط.. وسأله الشاب. لماذا؟

لأني كنت استطعت أن أفتح الباب للسيدين "دوويت" إذ أنهما عندما وجدا الباب مغلقاً اضطرا للعودة مما سبب وقوعهما بين أيدي الجماهير التي كانت تجري وراءهم.

وسمع صوت يصيح: الباب الباب فالتفت الأمير ليرى رجلاً عرف فيه "فان ديكن" فقال:

أهذا أنت يا كولونيل؟ ألم تخرج بعد من "لاهاي" لقد تأخرت كثيراً في تنفيذ أمري.

فرد الكولونيل: سيدي كان الباب الثالث الذي جئت إليه مغلقاً والبابين الآخرين مغلقين..

حسناً إن هذا الرجل الشجاع سيفتح لنا الباب.. افتح يا صديقي: وذهل البواب لدى سماع اللقب الذي يناديه به لذلك الشاب الشاحب الذي يخاطبه بكل مودة. فأسرع يفتح الباب وكأنه يصحح خطأ ارتكبه. فدار الباب على مصراعيه وهو يطلق صريراً حاداً. وسأل الضابط غليوم! هل تريد فرسي..

شكراً يا كولونيل ـ هناك حصان ينتظرني على بعد خطوات من هنا ، وأخرج من جيبه صفارة ذهبية وأطلق منها صفيراً حاداً متطاولاً.. وكانت تلك وسيلة لمناداة الخدم وأسرع سائس يمتطي حصاناً لدى سماعه الصوت، ويجر بيده آخر لتلبية الطلب. وقفز غليوم على الحصان حتى لم يستعمل المصعدة وانطلق باتجاه "لييد" وعندما أصبح هناك ـ أشار للضابط الذي كان يبتعد على بعد حصان واحد ، أن يسير إلى جانبه وقال له:

هل عرفت أن هؤلاء الجبناء قتلوا "جان دوويت" بعد أن قتلوا أخاه فقال الكولونيل بأسى: كنت أتمنى بالنسبة لكم أن يبقوا الصعوبة الوحيدة التي عليك أن تتخطاها كي تصبح فعلاً رئيساً لهولندا. فقال الشاب:

فعلاً كان من الأفضل أن لا يحصل ما حصل. لكن ما كان قد كان ولسنا السبب فيه

انحنى الكولونيل وأتاح للأمير أن يسبقه بأن عاد إلى مكانه السابق قبل أن يدعوه للكلام وغمغم غليوم دورانج آلياً وهو يرف بأجفانه ويصر على شفته ويخز بطن الحصان بمنخسه كانت في يده!

كم أتمنى لو أرى وجه "لويس الشمس" وهو يعلم الطريقة التي عومل بها صديقاه "دوويت" الشمس الشمس ـ وأنا أدعى غليوم الصامت.

الشمس الشمس[1].. حذار من أشعتك. وسار هذا الأمير الشاب مسرعاً على فرسه وهو الخصم العنيد للملك الكبير ذلك المسؤول الذي كان بالأمس ضعيفاً حتى الآن. وغدا بقوة جديدة: إذ جعل البرجوازيون في لاهاي من جثتي "كورنيل وجان دوويت" موطئ قدم له ذلك الرجلين النبيلين أمام الناس كما هما أمام اللّه.

[1] الشمس: لقب ملك فرنسا لويس الرابع عشر.

الفصل الخامس

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

عاشق الزنبق وجيرانه

بينما كان بورجوازيو "لاهاي" يقطعون في جثث "جان وكورنيل دوويت" وبعد أن تأكد "غليوم دورانج" أن خصميه قد ماتا فعلاً راح يجتاز على فرسه الطريق إلى "لييد" يتبعه ضابطه الكولونيل "فان ديكن" الذي كان يعتقد أن استمراره بالوفاء له رحمة مبالغ فيها. أما "غريك" خادمه الأمين فكان يسير إلى جانبه فوق حصان قوي جداً وبعيد عن أن يحدث له مآسي كالتي حدثت عند سفره إذ كان يسير على دروب مظللة بالأشجار حتى غدا بعيداً عن البلدة وعن القرى المجاورة لها وعندما أصبح في مأمن من أن يكون موضع شك ترك حصانه في أحد الإسطبلات وأكمل طريقه على مركب أوصله بمهارة كبيرة على دروب متعرجة قصيرة الفروع للنهر إلى "دوردريخت" التي تخفي رطوبتها هذه الجزر الرائعة وقد تزينت حوافيها

بأشجار الصفصاف والعليق والأعشاب المزهرة حيث ترعى بكل اطمئنان قطعان الأغنام متألقة تحت أشعة الشمس.

وعرف "غريك" من بعيد مدينة "دوردريخت" تلك المدينة الضاحكة في أسفل الرابية المغروسة بطواحين الهواء وعرف فيها البيوت الحمراء المخططة بالأبيض التي تغسل أقدامها بمياه النهر وترفرف في شرفاتها المفتوحة على النهر السجاد الحريري المبرقش بأزهار مذهبة من عجائب بلاد الهند والصين وبالقرب منها تمتد الأشراك لصيد الثعابين الشرهة تجذبها نحو بيوت السكن تلك المخلفات اليومية التي تلقى من نوافذ المطابخ إلى ماء النهر. ولمح"غريك" وهو فوق سطح المركب ومن خلال طواحين الهواء، برفة عين ـ ذلك البيت الأبيض والزهري هدف رحلته هذه، عرفه بسطحه وسط الأوراق الصفراء وستار أشجار الحور يرتفع فوق الجو المعتم الذي تسببه غابة من أشجار الدردار العملاقة. فكان قمحاً تتجمع فيه أشعة الشمس لتدفئ وتجفف وتخصب وحتى سحب الضباب التي لم يتمكن ذلك الحاجز الأخضر من أن يمنع هواء النهر من الوصول إليها صباحاً ومساءً. ونزل "غريك"من المركب فوصل إلى أسماعه صخب المدينة العادي وسار

متجهاً نحو البيت الذي سنقدم له وصفاً للقراء لا يستغنى عنه " هو بيت أبيض شديد الوضوح متألق، منظف بعناية كبيرة، مطلي بالدهان باهتمام كبير حتى في أكثر الأماكن اختفاءً أكثر منه في الأماكن الظاهرة. وفي هذا البيت رجل سعيد دائماً.. هذا الرجل السعيد هو "فان بيرل" ابن "كورنيل دوويت" بالمعمودية، يقطن فيه منذ طفولته فهو بيت أبيه وجده.. وكان هذا الأخير تاجراً نبيلاً في مدينة "دوردريخت" النبيلة أيضاً. أما السيد" فان بيرل" الأب فقد جمع ثروته وهي من ثلاثمائة ألف إلى أربعمائة ألف فلوران من تجارته مع الهند. وقد وجدها "فان بيرل" الابن جديدة لا تزال في عام ١٦٦٨، عندما توفي والداه الطيبان الغاليان. وقد مسك قسم من هذه الأموال عام ١٦٦٨ وبعضها الآخر عام ١٦١٠ مما يدل على أن هناك مال من أيام الأب وأموال من الجد. ولنسرع بالقول أن هذه الأربعمائة ألف فلوران كانت مصروف الجيب "لكورنيليوس فان بيرل" بطل هذه الرواية. أما أملاكه في الضواحي فكانت تبلغ حوالي عشرة آلاف فلوران كمردود وعندما عبر المواطن المحترم والد "لكورنيليوس" من الحياة إلى الموت بعد جنازة زوجته بثلاثة أشهر فقط

بدت وكأنها سهلت له دروب الموت بعد أن سهلت له دروب الحياة. وعانقه أبوه للمرة الأخيرة وقال له:

اشرب وكل.. إذا شئت أن تحيى حياةً حقيقية لأنه ليس من الحياة في شيء أن تعمل طيلة يومك فوق مقعد خشبي أو أريكة من الجلد في مختبر كان أو حانوت فإنك ستموت بدورك. وإذا لم تحصل من السعادة على طفل لك سيموت اسمك وتؤول أموالك إلى مجهول، تلك الأموال الجديدة التي لم يمد لها أحد يداً إلا والدي وأنا ومن قام بسكها، ولا تقتدي بعرابك "كورنيل دوويت" الذي ارتمى بالسياسة أكثر المراحل الحياتية جحوداً وتنتهي دائماً بشكل سيء.

ومن ثم مات الأب "فان بيرل" وترك لابنه الذي يحبه قليلاً من المال وكثيراً من الحب. وبقي بعد ذلك "لكورنيليوس" وحيداً في ذلك البيت. وعندما عرض له عرابه "كورنيل دوويت" الكثير من الوظائف في العمل العام. عبثاً حاول أن يجعله يتذوق المجد.

ولكي يرضي رغبة عرابه أبحر مع السيد "رويتر" على مركب اسمه "الولايات السبعة" وكان هذا يأمر على مئة

وتسع وثلاثون مركباً، كان هذا الأميرال الشهير يحرك لوحده ثورة فرنسا وانكلترا مجتمعتين. وبينما كان يقود السفينة البحار "له جير" وصل إلى مسافة طول بندقية عن المركب "الأمير" وكان فوق المركب هذه "دوق يورك" شقيق ملك انكلترا. عندما هوجمت "رويتر" كان قائد المركب مفاجئاً وماهراً جداً، حتى انه عندما شعر أن مركبه ستغرق لم يجد "الدوق يورك" من الوقت إلا ما يكفي لانسحابه إلى المركب "سان ميشيل" لكنه رآها محطمة بقنابل الهولنديين وقد خرجت عن مسارها.. كما شاهد المركب "الكونت دو سوميتش" تنفجر وتغرق بين الأمواج أو بين النيران مع أربعمائة من البحارة. وعندما رأى كل لهذا وقد تحطم عشرون مركباً، وقتل ثلاثة آلاف رجل، وخمسة آلاف جريح ولم يكن هنا نتيجة واضحة لهذا أو ذاك وادعى كل طرف أن النصر كان حليفه. وهنا يجب أن تبدأ المعركة من جديد وقد أضيف لها اسم معركة "ساوس ودباي" أضيف إلى فهرست الحروب. وحُسِبَ كم من الوقت يحتاج رجل يفكر ليغلق عينيه ويسد أذنيه، بينما أمثاله من الرجال لا يزالون يتبادلون القصف المدفعي.

ودع "لكورنيليوس" رويتر، والروال "دوبولتين" كما ودع المجد معهما. وقبّل ركبتي الموظف الكبير الذي يكن له الكثير من الاحترام والتقدير. وعاد إلى بيته في "دوردريخت" غنياً بالراحة التي كسبها، وثمانية وعشرين عاماً بلغها وصحة جيدة يتمتع بها، ونظرة ثاقبة أضف إلى ذلك رأسمال قدره أربعمائة ألف فلوران، وعشرة آلاف أخرى من عائداتها وقناعة كبيرة من السماء حصل عليها، كافية لتجعل منه إنساناً سعيداً وكافية أيضاً لكي لا يكون كذلك. والخلاصة أنه لكي يعيش عيشة سعيدة على طريقته الخاصة بدأ "كورنيليوس" بدراسة علم النبات والحشرات، فاقتلع كل النباتات الجذرية وزرع نباتات البستنة في منطقته وألّف حولها دراسة مكتوبة مرفقة بلوحات رسمها بيده.

ومن ثم ولأنه لم يعد يعرف ماذا سيعمل في أوقات فراغه وفي أمواله الطائلة التي أخذت تتضاعف بشكل رهيب أخذ يختار من كل أنواع الجنون الموجود في بلده وزمنه، الأشياء أكثرها جمالاً وأكثرها ارتفاعاً في سعرها: لقد أحب الزنابق!! في ذلك الحين كان الفنلنديون والبرتغاليون يستثمرون هذا النوع من الزراعة كهواية حتى

توصلوا إلى تمجيد هذه الزنابق، وجعلوا من هذه الزهور القادمة من الشرق ما لم يستطع أي عالم طبيعي أن يجعل مثلها للجنس البشري، خشية أن يثيروا غيرة الإله، وبسرعة انطلقت الأخبار عن زنابق السيد "مينهير فان بيرل" ولوحاته ومساكبه وغرف التجفيف وظروف الفصوص. فكان الناس يزورونه كما كان السياح الرومان المشهورون يزورون مكتبة الإسكندرية. والمعارض الفنية. وبدأ "فان بيرل" ينفق على مشروعه من مردوده السنوي لترتيب مجمعاته، وفتح ثغرة في دراهمه الجديدة لإكمال مشروعه! فهل كانت نتائج هذه الأعمال مكافأة له؟ لقد عثر على خمسة أنواع من الزنابق أطلق على إحداها اسم "جان" وهو اسم أمه واسم "بيرل" وهو اسم أبيه واسم "كورنيل" وهو اسم عرابه أما الأسماء الأخرى فقد فقدناها ومن أراد أن يعرفها يعثر عليها في فهارس ذلك العصر. وفي أول عام ١٦٧٠ قدم "كورنيل دوويت" إلى "دوردريخت" ليقيم ثلاث أشهر في بيت أهله القديم.. فمن المعروف أن "كورنيل دوويت" لم يولد وحده في هذا البيت بل أن كل أصول أسرة "دوويت" هي من "دوردريخت" وبدأ منذ ذلك الحين يستغل كونه لا شعبية له ـ كما يقول

"غليوم دورانج" ـ لكن المواطنين سكان "دوردريخت" الطيبين لم يكن لديه وظيفة يستفيدون منه ولم يكونوا مسرورين من أفكاره الجمهورية الصرفة بل كانوا فخورين بشخصيته وقيمتها فأرادوا أن يقدموا له من خمر البلدة عندما دخلها. وبعد أن قدم الشكر لمواطنيه راح ليزور بيت أهله وأمر بإجراء بعض الإصلاحات فيه قبل قدوم زوجته السيدة "دوويت" وأولادها لتقييم فيه. ومن ثم تقدم نحو بيت ربيبه وهو الوحيد الذي كان يعلم بقدومه إلى وطنه الأصلي.

وبقدر ما حصل "كورنيل دوويت" على المبغضين باستعماله بذور السياسة السيئة التي يدعونها الهوس السياسي، بقدر ما حصل "فان بيرل" على الكثير من الود عندما أهمل بشكل كامل زراعة السياسة واهتم بزراعة الزنبق.. ومن ثم فإن "فان بيرل" كان محبوباً جداً من خدمه والعمال الذين يتعامل معهم لذلك فلم يكن يستطيع أن يفترض أنه يوجد في العالم رجل يريد الإساءة إلى رجل مثله ـ ومع ذلك، ولنقل ذلك خجلاً من الإنسانية أن "لفان بيرل" عدواً لا يعرفه مفترس بشكل مختلف. منفعل بشكل مغاير ومتناقض بشكل آخر.. وهو لم يعتبر حتى

الآن أخويـه مـن الأورانجـيين المنـاوئين. وذلـك بسـبب تلـك الأخـوة الطيبـة بيـنهم الـتي لم تعكـرهـا أيـة سـحابة في هـذه الحياة وامتدت وفاءً حتى ما بعد الموت.

ومنـذ أن بـدأ "كورنيليـوس" يهـتم بالزنـابق بـدأ ينفـق عليهـا مـن مـردوده السـنوي مـن مـال أبيـه وفي "دوردريخـت" كـان لـه جـار بابـه أمـام بابـه جـار بورجـوازي يـدعى "إيـزاك بوكسل" كـانت لـه الاهـتمام نفسـه والهوايـة نفسـها منـذ أن رأى النور. فأغرم بالمعنى الحرفي لكلمة "توليان" التي تعنـى ـ كما أكد العالم الفرنسي والمؤرخ الكبير بمعرفة هـذه الزهـرة.. أنها الكلمة الأولى في اللغة الصينية واستخدموها لتدل على أجمل إبداعات الخليقة والتي تدعى "الزنبق".

أمـا "بوكسـل" فلـم يسـعفه الحـظ ليكـون غنيـاً مثـل "فان بيرل" لكنه جعل حديقته وبيتـه وبكـثير مـن الصـعوبة وكـثيرٍ مـن الاعتنـاء وجـد مكانـاً ملائمـاً وحديقـة تناسـب الزراعــة. فأعــد الأرض حســب الوصــف المطلــوب وهيــأ لطبقاتهـا الحـرارة اللازمـة والرطوبـة الضـرورية الـتي تـنص عليها قواعد البستنة. وفي المرحلة العشرين من تطورها غدا "بوكسـل" يعـرف درجـة حـرارة مسـاكبه وضـغط الريـاح فيهـا ، فكـان يعـدل مسـارهـا حتـى تلائـم أزهـاره ومـن ثـم

كان لديه محصول يثير الإعجاب فكانت زنابقه جميلة ومرغوبة حتى أن بعض المعجبين كانوا يحضرون ليتفرجوا ويتأملوا زنابق "بوكسل" وأخيراً توصل إلى أن صدر إلى العالم العديد من الزنابق وزنبقة سميت باسمه. وشقت هذه الزنبقة طريقها واجتازت فرنسا ووصلت إلى إسبانيا وسارت حتى وصلت البرتغال حتى أن الملك "الفونس السادس" عندما طرد من "لشبونة" اعتكف في جزيرة "تيرسير" حيث كان يتسلى بزراعة الزنبق. وعندما رأى زنبقة "بوكسل" قال: إنها ليست سيئة.. فهو لم يتسلى بسقاية القرنفل كما كان يفعل عظماء "كونده" الكبار. وقام "فان بيرل" ببناء طابق آخر في ساحة بيته في "دوردريخت" بعد عدة دراسات.. كتعديل لبيته الذي يجاور بيت "بوكسل" وبعد أن اكتمل البناء ضعفت درجة الحرارة وازدادت البرودة نصف درجة في حديقة "بوكسل" كما منع عنه الهواء وبدّل الكثير من حساباته واقتصاده الزراعي. وبعد فليس "لبوكسل" إلا هذه المصيبة إذ أن "فان بيرل" ليس سوى رساماً ، أي نوع من الجنون، إذ يحاول أن يبرز على القماش روائع الطبيعة بعد أن يبدل فيها. وقد أضاف هذا الرسام طابقاً إضافياً لمرسمه

ليحصل على ضوء شمس أفضل وهذا من حقه. فالسيد "فان بيرل" رسام. أما السيد "بوكسل" فهو بائع أزهار. لقد كان يحتاج إلى الشمس للوحاته فأخذ منها نصف درجة حرارة زائدة على حساب زنابق "بوكسل" والقانون هنا لصالح "فان بيرل" ومن ناحية أخرى فإن "بوكسل" قد اكتشف أن الكثير من الشمس يضر الزنبق وان هذه الزهرة تنمو بشكل أفضل وتكون أجمل ألواناً عند شمس الصباح الندية أو شمس المساء أكثر منها عند شمس الظهير. لذا كان "بوكسل" مسروراً لأن "فان بيرل" ـ وليس هذا هو التعبير الصحيح عما يفكر به ـ لكن النفوس العظيمة تجد دائماً في الفلسفة ينابيع غريبة تقدم لها العزاء في حالة المصائب الكبيرة.

ولكن.. كيف سيصبح هذا المسكين "بوكسل" عندما يرى من نوافذ البناء الجديد أبصال الزنابق وقصومها في الأرض وزنابق في الأواني وكل ما يتعلق بزراعة الزنبق وزراعها الوحيد.. فهناك رزم البطاقات والأدراج وعلب الحفظ وسياج الحديد والمعد بإغلاق الأدراج عند تجديد الهواء ليحول دون السماح للفئران والخنافس والحشرات والجرذان بالدخول، حتى ولا لعشاق الزنابق

الفضـوليين الـذين يشـترون بصـلة الزنبـق الواحـدة بـألفي فلوران.

وذهـل "بوكسـل" عنـدما شـاهد كـل هـذه الأدوات لكنـه لم يتخيـل بعـد بُعـد مأسـاته فمـن المعـروف أن "فـان بـيرل" يفكـر بكـل شـيء بفـرح ويسـرّ في الحيـاة فكـان يـدرس طبيعـة لوحاتـه ويعـرف أنهـا تنتهـي مثـل لوحـات "جـيراردو" أسـتاذه، ولوحـات صـديقه " سـيبرس" ألـيس مـن الممكـن عنـدما يقـوم بتلـوين داخـل الزنبقـة أن يكـون قـد جمـع في مرسمـه كـل الأدوات اللازمـة لـذلك؟ وإذا كانـت هذه الفكـرة المخادعة قد هدهـدت فكـره فهـو لم يسـتطع مقاومة الفضول الذي كان يقض مضجعه.

وعندما حل المساء وضع سلماً على الجدار واخذ ينظـر إلى بيت جـاره متأكـداً أن الأرض كانـت مربعـاً كـبيراً لا يوجد فيه زرع قد بدلت على شـكل مستطيلات من الـتراب الممـزوج يوحـل الأنهـار ـ مركـب خـاص مفيـد للزنـابق ـ والكـل ممتـزج ومـدعم ببقايـا العشـب كـي تمنعـه مـن الانهيـار ـ أضـف إلى شمـس الصـباح والمسـاء.. وهنـا ظـل موضب لتعديل حـرارة الشـمس عنـد الظهيرة. وهنـاك الميـاه الغزيـرة تحـت التصـرف.. أقـيم في الجنـوب الغربـي وأخـيراً

فهناك شروط متكاملة لإنجاح الزراعة وتطويرها فمما لا شك فيه أن "فان بيرل" غدا زراع زنبق وتخيل "بوكسل" أن "فان بيرل" ذلك العالم الذي يمتلك رأسمال قدره ٤ مئة ألف فلوران وربحه السنوي مئة ألف فلوران يستغل مداخيله المالية والنفسية والفكرية في زراعة الزنبق بالجملة، وتخيل أن هذا النجاح لا يزال مبهماً لكنه سيتأكد بالمستقبل وأدرك بشكل مسبق ذلك الألم الذي يسببه له هذا النجاح فتراخت يداه وترنحت قدماه فارتمى يائساً في أسفل السلم. وأدرك أنه ليس من أجل زنابق مرسمه أخذ منه نصف درجة من الحرارة، بل من أجل زنابق حقيقية، وعليه فسيكون لدى "فان بيرل" أجمل الأماكن المشمسة بالإضافة إلى غرفة كبيرة يحتفظ فيها بأبصاله وقصوصة، غرفة مضاءة ومهواة: ثروة كبيرة لا يمكن "لبوكسل" الحصول عليها. إذ أنه اضطر أن ينام في السقيفة ليترك للزنابق غرفة نومه كي لا يضر بحيوية أبصاله وفصوصه ودرناته.

وهكذا وجد "بوكسل" أن الباب أمام الباب والجدار لصق الجدار - خصماً منافساً متفوقاً عليه.. بستاني ليس مغموراً ومجهولاً بل كان ربيب السيد "كورنيل دوويت"

ولم يكـن "بوكسـل" كمـا نـراه.. بـل كانـت نفسـيته لا تشـبه أبـداً نفسـية "تـوروس" الـذي تعـزى أن مـن قهـره هـو الاسـكندر الكـبير بسـبب شـهرة مـن تغلـب عليـه وفعـلاً .. ماذا سيحصل لـو اكتشـف "فـان بيرل" زنبقـة جديـدة أطلق عليها "جان دوويت" بعد أن سمى واحدة "كورنيل دوويت"؟

سـيختنق "بوكسـل" مـن الغضـب ومـن خـلال تصـوراته الحسـودة والمتنبئـة بالمآسـي بالنسـبة لنفسـه.. احـذروا مـا سيحدث؟

بعـد هـذا الاكتشـاف قضـى "بوكسـل" أسـوء ليلـة يمكن أن يتخيلها إنسان!!

الفصل السادس

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

حقد زراع زنبق

ومنذ ذلك الحين غد "بوكسل" يشعر بالخوف، بدلاً من أن يهتم بما يقدمه من قوة ونبلٍ إلى الجهد الجسدي والروحي الذي كان يبذله، بل فقد الفكرة الطيبة إذ كان يجتر دائماً تلك الأخطار التي ستسببها له أفكار جاره. أما "فان بيرل" كما نظن أننا نعرفه، منذ أن استغل ذكاءه المتوقد الذي منحته له الطبيعة استطاع أن يربي أجمل الزنابق والأكثر من هذا.. أن في "هارلم" أو "ليندس" تلك المدن التي يوجد فيها أفضل أرض وأفضل مناخ لتربية الزنابق فقد تمكن "كورنيليوس" إن ينوع في ألوان الزنابق وأن يبدل في أشكالها ويكثر من أنواعها، فقد كان من تلك المدرسة الماهرة التي أنبتت في القرن السابع هذه المقولات المأثورة ــ وقد تطورت في عام ١٦٦٣ واتبعت مبادئها وهي أنه:

- أن احتقار الزنابق هو مسبة للخالق: مقدمة منطقية جعلت المدارس أكثر تفاعلاً بينما كانت في عام ١٦٣٣ تقتصر على المبادئ الآتية.

ـ أن احتقار الأزهار هو بمثابة سباب للخالق. وكلما كانت الوردة جميلة كان احتقارها أكثر إساءة لمن خلقها.

ـ الزنبق هو مثل كل الأزهار.

ـ من يحتقر الزنبق كمن يشتم الخالق.

ـ كلما زاد احتقار الزنبق زاد احتقار الخالق. ومنطقياً حسب هذه المقولة وحسب النوايا السيئة فإن أربعمائة ألف أو خمسة من زارعي الزنبق في هولندا وفرنسا والبرتغال عدا عن زارعي سيلان والهند والصين اعتبرا خارج القانون واعتبر عدة ملايين من الناس مدعيين ومنشقين يستحقون الموت لأنهم لا يهتمون بالزنبق. وهكذا.. فإن "فان بيرل" حصل على عدة نجاحات وصار الناس يتحدثون عنه بينما اختفى "بوكسل" إلى الأبد من قائمة زارعي الزنبق المشهورين في هولندا. أما "كورنيليوس" ذلك العالم البسيط الذي لا يجارى غدا الوحيد الذي يمثل زارعي

الزنبق في "دوردريخت" وهكذا فإن العلم والتنظيم جعل من أبسط غصن سلالة رائعة من زهرة "النسرين" ذات التويجات الأربعة والتي لا لون لها غدت وردة عظيمة ذات عطر رائع، كما يحدث في الحياة أحياناً إن بعض البيوتات الملكية تولد في أكواخ الصيادين أو بعض الحطابين.

وانصرف "فان بيرل" إلى عمله الزراعي في مساكبه ـ محصوله وزراعته، ولم يخطر له أبداً أن هناك إلى جانبه، فاقد المجد الذي سرقه منه، فتابع تجارته وانتصاراته، وخلال سنتين فقط استطاع أن يملأ مساكبه بعناصر رائعة من الزنبق لم يستطع أحد أن ينتج مثلها إلا "شكسبير وروبين" وهكذا يمكننا أن نتعرف بعد الله تعالى على الشيطان الذي نسيه "دانتي" إذا رأينا "بوكسل" في ذلك الحين.

وبينما يكون "فان بيرل" يمزق أرضه ويقتلع الأعشاب الضارة ويرطب مساكبه يركع على ركبتيه أمام المنحدر المعشوشب يحلل كل وريد من أوردة زنابقه المزهرة، ويفكر في التعديلات التي سيجريها لامتزاج الألوان ويقوم بتجربتها، يكون "بوكسل" مختفياً خلف شجرة جميز

صغيرة قرب الجدار ليتابع بعين أثملها الحقد، وفم مزبد، كل خطوة وكل حركة من حركات جاره، فكان إذا رآه مسروراً أو شاهد ابتسامة على شفتيه أو ومضة من السعادة غمرت عينيه يصب عليه اللعنات والتهديدات الرهيبة التي يمكنك أن تدرك إلى أي مدى ستذهب هذه اللعنات القاتلة المشبعة بالحقد والغضب.

فهل ستذهب لتتسل إلى جذوع الأزهار وتنقل إليها أسباب الانحلال وخلايا الموت؟!

وطالما أن الشر يولد في النفس البشرية ثم ينمو ويترعرع بسرعة، فإن "بوكسل" لم يعد يكتفي بأن يراقب "فان بيرل" فقط بل أراد أن يراقب أزهاره أيضاً، فهو فنان كبير تسيطر على تفكيره قمة أعمال منافسة.

واشترى "بوكسل" منظاراً استطاع بواسطته أن يتابع تطور أزهار "فان بيرل" منذ أن تنبت في سنتها الأولى، وبراعمها الشاحبة منذ أن تخرج من الأرض حتى تكمل دورتها في خمس سنوات، فتسير أسطوانتها النبيلة اللطيفة ويبدو من تحتها ذلك التمازج اللوني الذي لم يتوضح بعد ومن ثم تتطور تويجات الأزهار فتكشف عن كؤيسها

السـري. يراقـب كـل ذلـك كمـا لـو كـان هـو مالـك هـذه الأزهار. وكم مرة صعد هـذا الغيـور المسـكين علـى سـلمه لـيرى مسـاكب "فـان بـيرل" وزنبقـات تكـاد تغشـي بصـره بجمالها ويكـاد يختنـق لكمالها ودفنتهـا. وبعـد أن انتهـى عهد الإعجاب الذي لا يمكن قهره أصابته حمى الحسـد. ذلك الألم الذي ينهش صدره ويتحول في قلبه إلى مليار من الأفاعي الصغيرة تأكل واحدتها الأخرى. نبع لا ينضب من آلام مخيفة. وكم من مرة وسط عذاباته الشـديدة، التي لا يستطيع أي وصف أن يكون فكرة عنها. راودته فكـرة أن يقفز إلى حديقة جاره في الليل ويلتهم الأبصال بأسـنانه، وقد يضحي بصاحبها نفسه لو أراد هـذا الأخير أن يدافع عن زنابقه.

وبالنسبة لمربي زنابق حقيقي فإن قتل زنبقة هـو جريمة شـائنة، قتـل إنسـان قـد يكـون أسـهل منهـا. وكـان "فـان بـيرل" يتقـدم علمـاً كـل يـوم، ويبـدو أنـه يلـتهم هـذا العلـم بغريزتـه. أمـا "بوكسـل" فقـد بلـغ بـه الحقـد إلى أن يلقـي بالأحجار والعصي على مساكب جاره ـ ولكنه فكـر، أنه في الصباح عندما يرى "فان بيرل" الضـرر الـذي أصـابه، سـوف يـدرك أن الطريـق العـام بعيـد عنـه وان الأحجـار

والعصي لا تسقط من السماء كما في أيام العمالقة في القرن السابع عشر.. وأن الفاعل سوف يعرف ولو قام بذلك ليلاً.

وسوف يعاقبه القانون وسيصاب بشرفه في نظر زارعي الزنبق الأوروبيين، لذلك حول حقده إلى أسلوب الحيلة.. وفكر طويلاً.. وأخيراً.. وجدها..

في إحدى الأمسيات أمسك بقطين وربط كل منهما بقائمته الخلفية بخيط يطول خمسة أقدام، وألقاها من أعلى الجدار وسط المسكبة الرئيسية، المسكبة الملكية التي لا تحتوي فقط على "كورنيل دوويت" بل أيضاً على المتوحشة البيضاء كالحليب والحمراء القرمزية، والرخامية "روقر" والرمادية المتماوجة، ومعجزة "هارلم" وزنبقة "كولومبيا" القاتمة وكولومبيا ذات اللون الكامد والفاتح.. وسقط الحيوانان المذعوران من أعلى الجدار على المسكبة يحاولان الفرار كل من جهة.. وامتد الخيط الذي يربطهما.. ولكن عندما شعرا أنهما لا يستطيعان الانطلاق إلى أبعد من ذلك جعلا يتخبطان هنا وهناك ويطلقان مواءً عالياً ويحصدان بالحبل الأزهار التي يتقلبان

فوقهـا.. وبعـد معركـة اسـتمرت حـوالي ربـع سـاعة قطـع الخيط الذي يربطهما ثم لاذا بالفرار.

كـان "بوكسل" مختبئاً خلف شجرة الجميـز، لا يـرى شيئاً لكنه يتخيل كل شيء على أصوات القطـط.. وامـتلأ قلبه بـالفرح بدل الحقد. ولكـي يتأكـد مـن الضـرر الـذي أحدثـه لجـاره فقـد بقـي واقفـاً حتـى الصـباح لكـي يمتـع عينيه مباشرة بنتائج المعركة التي حدثت بين القطـين علـى مسـاكب جـاره. كـان يكـاد يتجمـد مـن بـرد ضـباب الصباح، لكنه لم يشعر بالبرد بل كان إحساسه بالانتقام يبعث الدفء في أوصاله والألم الذي سببه لجـاره سيعوضـه عن كل أتعابه. وعنـد أول شـعاع مـن نـور الصـباح فتح بـاب البيت الأبيض وظهر "فان بيرل" ودنا من مساكبه كمـا لـو كـان قضـى ليلـة هادئـة في فراشـه يحلـم أحلامـاً سـعيدة.. وفجـأة.. لمـح أثلامـاً فـوق هـذه الأرض وكـانـت ملسـاء حتـى مسـاء الأمـس مسـتوية كـالمرآة، صـفوف زنابقـه متداعيـة كمـا ألـوان قنبلـة انفجـرت في وسـطها.. فأسـرع شـاحب اللون..

وارتجف "بوكسل" من شدة فرحه فهناك خمسة عشر أو عشـرون زنبقـة تكسـرت وتجرحـت وبعضـها مالـت

برؤومها وبعضها الآخر تكسر نهائياً وقد شجبت وسال النسغ من جراحها، تلك الدماء الثمينة التي يتمنى "فان بيرل" لو يشتريها بدمائه ولكن.. يا للمفاجأة .. بالفرح "فان بيرل" وألم "بوكسل" فالزنبقات الهامات الأربعة لم تصب بأذى بتلك المحاولة الغادرة بل كانت ترفع رؤوسها النبيلة فوق جثث رفيقاتها مما كان كافياً ليواسي "فان بيرل" ويجعل القاتل ينفجر غيظاً ويشد شعر رأسه ألماً عند رؤيته جريمته وقد ارتكبها بدون طائل. أما "فان بيرل" فكان حزيناً من تلك المصيبة التي لم يعرف سببها لكنها كانت وبفضل الله اصغر مما كان يمكن أن تكونه. وعرف فقط أن طول ذلك الليل كان مضطرباً لسماعه أصوات مواء القطط الرهيب. وقد عرف أخيراً الطريق الذي سلكته القطط من الآثار التي تركتها مخالبها أو بقايا وبرها في ساحة المعركة حتى كانت قطرات الندى المتفرقة تهتز على وريقات زهرة محطمة.

ولكي لا تتكرر المأساة أعطى "فان بيرل" أوامره أن ينام كل يوم صبي بستاني في الحديقة في كوخ قرب المساكب، وسمعه "بوكسل" يعطي الأوامر ورأى الكوخ ينتصب لساعته فكان سعيداً لأنه بعيد عن الشبهات،

لكنه كانت منفعلاً وثائراً ضد المزارع السعيد، وبقي ينتظر فرصة أكثر ملائمة. وفي هذا الوقت أعلن مجتمع الزنابق في "هارلم" أنه سيرصد جوائز كبرى في هذا المجال وانه في سبيل صنع زنبقة سوداء لا بقعة فيها.

كانت مشكلة كبرى لا تُحل وتعتبر حتى الآن مستحيلة لو وجدنا أن هذا النوع من الزنابق موجود في ذلك الوقت لا ذلك اللون الأسمر الداكن في الطبيعة وما يمكن أن يقال أن الذين رصدوا الجائزة استطاعوا أن يخصصوا مليوني فلوران بدل المئتي ألف المرصودتين على أساس أنه أمر مستحيل.

ولم يكن زارعو الزنبق أقل انفعالاً من أولهم لآخرهم.. فقد تبنى بعض عشاق الزنبق الفكرة دون أن يفكروا هل يمكن تطبيقها أم لا. بل كانت فكرة خيالية وبادئ ذي بدء لم يعد الزارعون يفكرون إلا بهذه الزنبقة السوداء الكبيرة التي اشتهرت بشكل سحري كما لو كانت "لقلق هدراس" الأسود والشحرور الأبيض في الأساطير الفرنسية. وكان "فان بيرل" من الزارعين الذين تبنوا الفكرة. أما "بوكسل" فكان من الذين قالوا بالتأمل والتفكير في هذه المهمة. ومنذ أن رسخت الفكرة في رأس

"فـان بـيرل" أخـذ يعمـل بكـد وجهـد في مسـاكبه ويجـري العمليات الضـرورية لتحويل اللـون الأحمـر إلى رمـادي ومنـه إلى رمادي قاتم في كل الزهيرات الـتي غرسـها. ومنـذ ذلـك العام أخذ "فان بيرل" يحصـل علـى زنـابق بلـون رمـادي قـاتم. كـان "بوكسـل" يراقبـه فهـو لم يـتمكـن إلا مـن الحصـول على اللون الرمادي الفاتح.. ويتمكن أن يكون من الأهمية بمكان أن نشرح للقارئ النظرية الجديدة التي تقـول: "أن الزنبقـة تأخـذ ألوانهـا مـن غـذائها" لـذا يمكـن القـول أن لا شـيء مسـتحيل بالنسـبة لـزارع زنبـق يضـع في عملـه ــ إلى جانـب عبقريتـه وصـبره ــ ضـوء الشـمس، ورطوبـة المـاء، وغـذاء الأرض، ونسـمات الهـواء. ولكـن! لا تعامـل كـل الأزهار بهذا الشكل، لكنها سيرة زنبقـة واحـدة خاصـة، قدرنا أن نصنفها لكم لنذكر بالموضوع المقدم إلينا.

وبعـد أن انهـزم "بوكسـل" للمـرة الثانيـة لسـبب تفـوق منافسه يئس من الزراعـة وانصـرف بكليتـه للمراقبـة. كـان بيت جاره ومنافسـه مفتوحـاً لكـل طـارق: حديقـة مكشـوفة للشمس وغـرف زجاجيـة يمكـن اختراقهـا، أدراج، خـزائن، علب، بطاقات، يغوص فيها المنظار بسهولة. ترك "بوكسـل" أبصاله تفسد على طبقاتها والكـؤوس تجـف في أماكنهـا،

وتموت الزنابق على مساكبها فأخذ يستغل حياته وعينيه، لا يهمه منها إلا ما يحدث عند "فان بيرل" فكان يتنفس من سوق زنابق ويشرب من الماء الذي يصبه لها ويقتات بالتراب الناعم الذي يغمر جاره أبصاله الغالية به.

ولكن الأكثر إثارة هو ما يحدث في الحديقة: تدق الساعة الواحدة ليلاً، يصعد "فان" إلى مختبره، تلك الغرفة الزجاجية التي يدخل إليها منظار "بوكسل" بسهولة، وهناك ومنذ أن تضاء الغرفة بعد غياب الشمس وينير النوافذ والجدران، يبقى "بوكسل" يتأمل عبقرية منافسه الإبداعية يتأمله وهو يجرب في حبيباته فيرويها بمواد مغذية مخصصة لتعديلها أو تلوينها. كان يدرك عندما يراه يقوم بتدفئة هذه الحبيبات ثم يرطبها ومن ثم يركبها مع أنواع أخرى بالتطعيم أنها عملية دقيقة وماهرة جداً ثم يغلق على الحبيبات بالعتمة التي يجب أن تعطي اللون الأسود، ويعرض للشمس أو للحبابة تلك التي يجب أن تعطي اللون الأحمر. أما التي ستعطي اللون الأبيض فيعرضها لرذاذ الماء بشكل دائم: تمثيل ساذج وخرافي لعنصر الرطوبة: ذلك السحر الدائم الناتج عن أحلام طفولية أو عبقرية خالصة امتزجت مع بعضها.. كل ذلك

جعله يضع في منظار الحسد كل حياته وكل تفكيره وكل آماله.. وما أغرب هذا.. وكيف أن كل هذا الاهتمام والأنانية لم تستطع أن تروي غلة الحسد عند "اسحق بوكسل" ولا عطش الانتقام من منافسه هذا.. في كثير من الأحيان، كان يلاحق "فان بيرل" بمنظاره متمنياً لو كان هذا المنظار بندقية لا تخطئ الهدف، فيعدل وضعها ويتوهم أنه يبحث بإصبعه عن الزناد ليرسل الطلقة التي ستقتله ويتخلص منه.

والآن جاء الوقت لنربط بهذا الزمن الذي يقوم فيه الأول منهما بأعمال جيدة ورائعة ويقوم الثاني بأعمال تجسس وحقد.. بزيارة "كورنيل دوويت" إلى مدينة "دوردريخت" مدينته ووطنه ومسقط رأسه.

الفصل السابع

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الرجل السعيد يتعرف على البؤس

عاد "كورنيل دوويت" إلى بيت أبيه بعد أن قضى كل حاجات أسرته في كانون الثاني ١٦٧٢ في المساء وقد أسدل الليل ستار الظلام.

ورغم أن "كورنيل" لم يكن مزارعاً ولا فناناً فقد قام بزيارة كل البيت مع المعمل حتى البيوت الزجاجية، من اللوحات حتى الزنابق. وشكر ابن أخيه الذي أركبه على ظهر الباخرة الرسمية للولايات السبعة أثناء الحرب "ساوس ودباي" وأنه أطلق اسمه على زنبقة رائعة بحنان. وبينما كان يتأمل كنوز "فان بيرل" كان جمهور كبير ينتظر بفضول كبير واحترام كبير أمام بيت الرجل السعيد. وأيقظ هذا الصخب فضول "بوكسل" وهو يتناول عشاءه ويصلي أمام النار. وعلم "بوكسل" بالحادث فأسرع إلى مختبره وتمركز رغم البرد الشديد أمام منظاره.. إذ أن

هـذا المنظـار لم يعـد ذا فائـدة كـبيرة منـذ خريـف ١٦٦٤، فالزنـابق ناعمـة ورقيقـة كفتيـات الشـرق لا تـزرع في فصـل الشـتاء. إذ يلزمهـا بيـت في الـداخل، سـرير نـاعم، ودروج ومداعبات عذبة ووقت طويل.

وهـكـذا كـان "فـان بـيرل" يقضـي أوقاتـه في فصـل الشـتاء في المختبر وسـط كتبـه ولوحاتـه ونـادراً مـا يـدخل غرفـة الأبصـال إلا إذا أراد أن يـدخل إليهـا بعضـاً مـن أشـعة الشـمس قـد يفاجئهـا في السـماء فيفـتح كـوة زجاجيـة ليجبرها على الدخول شاءت أم أبت. وفي ذلـك المسـاء الـذي كنا نتحدث فيـه قـام الاثنـان بزيـارة لأقسـام الشـقة يتبعهم بعض الخدم. وهمس "كورنيل لفان بيرل"

ــ أبعـد هـؤلاء النـاس، ودعنـا لوحـدنا بعـض الوقـت. وانحنى "فان بيرل" علامة الموافقة ثم قـال بصـوت مرتفـع: - هل يريد سيدي أن يزور غرفة التجفيف؟

ــ غرفـة التجفيـف؟ بـؤرة جهـنم لهـذه الزنـابق، هـي الغربـان هـذا؟ هـو مثـل "دلفيس" حيـث كـان يحـرم دخولـه علـى الفرنسـيين. والواقـع أن أي خـادم لم يضـع قدمـه في خطوة جريئة.. كما قال "راسين" العظيم وكان مزدهراً في

ذلك الوقت. فلم يكن "كورنيليوس" ليسمح بدخوله إلا لمكنسة خادمة عجوز ترتجف، ومربية له التي ومنذ أن انصرف "كورنيليوس" لتربية الزنابق لم تقشر بصلة واحدة للمساء كي لا تقشر قلب ربيبها. وعندما ذكرت كلمة "المجفف" ابتعد الخدم الذين يحملون المشاعل باحترام وحمل "كورنيليوس" الشمعة من الأول منهم ثم تقدم أباه إلى الغرفة. ومن المفيد أن نضيف إلى ما ذكرنا أن غرفة التجفيف هذه هي التي يسدد "بوكسل" منظاره إليها بدون انقطاع فتمركز هذا الحسود في مكانه عندما أضيئت الغرفة وجدرانها وشاهد ظلين يدخلانها: رجل كبير وعظيم جلس قرب المنضدة التي وضع "كورنيليوس" شمعته عليها. وعرف "بوكسل" أن هذا الوجه الشاحب والشعر المتفرق على جبينه ويسقط على كتفيه عرف فيه "كورنيل دوويت" وأفضى إلى "كورنيليوس" بعدة كلمات لم يستطع هذا الحسود أن يدرك معناها من حركة شفتيه وسحب من صدره رزمة بيضاء ملفوفة بعناية عرف "بوكسل" من طريقة "كورنيليوس" باستلامها ووضعها في الخزانة ما افترض أنها أوراق على جانب كبير من الأهمية وظن في بادئ الأمر أن هذه الرزمة الثمينة قد تحتوي على

بضعة بصلات زنبق قدمن مؤخراً من "البنغال" أو من "سيلان" لكنه فكر بسرعة أن "كورنيل دوويت" لا يربي الزنابق ولا يهتم أبداً بالإنسان إلا بالإنسان فهو نبتة أقل جمالاً من غيرها وأصعب بكثير من أن يجعلها تزهر: وعاد يفكر أن في هذه الرزمة أوراق فقط بكل بساطة وهذه الأوراق تحتوي على سياسة.. ولكن لماذا أوراق سياسية إلى "كورنيليوس" وهو الذي لا يفتخر فقط بأنه بعيد جداً عن هذا العالم لكنه أيضاً يراه أكثر غموضاً وصعوبة من الكيمياء والخيمياء بالنسبة له.. إنها حتماً وديعة من "كورنيل" المهدد بعدم شعبيته فأعطى هذه الرزمة إلى ابنه"فان بيرل" لأنه من المؤكد أنه لا يمكن لأحد أن يتابعها عنده فهو بعيد جداً عن كل المؤامرات.

وعلى كل حال، لو كانت تحتوي على قصوص زنبق، فإن "بوكسل" يعرف جاره جيداً فلو لم يهتم بها ولكان قدر بسرعة قيمة الهدية التي وصلت إليه كمعجب ومحب للزنابق، لكن على العكس فإن " وكورنيليوس" استلم الرزمة بكل احترام من يد "كورنيل" ووضعها بتأن في أحد الأدراج ودفعها إلى آخر الدرج حتى لا يراها أحد وحتى لا تحجز مكاناً كبيراً مخصصاً لأبصال زنابقه

وبعد أن أصبحت الرزمة في الدرج نهض "كورنيل" وشد على يد ربيبه "فان بيرل" وأتى نحو الباب وأسرع "فان بيرل" يحمل المشعل ويتقدمه لينير له الدرب. وعندما أطفئت الأنوار في الغرفة الزجاجية عادت لتظهر في الدرج ومن ثم في الدهليز وأخيراً في الشارع الذي لا يزال يعج بالجمهور الذي يريد أن يرى "كورنيل" وهو يصعد إلى العربة. إن هذا الجار الحسود لم يخطئ في تقديره فالرزمة التي سلمها "كورنيل" لقريبه والتي لفها بعناية كبيرة كانت أوراق تلك المعاهدة بين "جان دوويت" والسيد "لوفوا" ووضعها أمانة لدى ربيبه دون أن يدعه يشك قليلاً أو كثيراً بالأهمية السياسية لها. أما الأوامر التي أعطاها له فهي فقط أن لا يسلمها إلى أي كان ومهما كان مركز هذا الشخص الذي يطلبها وكما شاهدنا خبأ "كورنيليوس" الرزمة في درج الخزانة التي يضع فيها قصوص الزنبق. وبعد رحيل "كورنيل" خفتت الأصوات وهدأت الحركات وأطفئت الأنوار، فلم يعد صاحبنا "بوكسل" يفكر بالرزمة، بل كان يحلم كما لو كان بحاراً ماهراً، رأى في هذه الرزمة تلك السحابة البعيدة التي لا تكاد تُرى الآن، لكنها ستكبر وهي تدنو وتحمل العاصفة...

إذن.. تلك هي أعمدة روايتنا المزروعة في هذه الأرض الثرة الغنية بين "دوردريخت ولاهاي" ومن أراد أن يعرفها فليتابعها في الفصول الآتية، أما نحن فلا نزال عند كلمتنا ونؤكد أنه لم يكن "لكورنيل دوويت وجان دوويت" عدواً متوحشاً في كل هولندا مثل عدو "فان بيرل" هذا جاره "إيزاك بوكسل" الذي يستمر في جهله.

كان زراع الزنبق يسير في طريقه نحو الهدف الذي عرضت جمعية "هارلم" فاجتاز مرحلة الزنبق الأسمر الداكن إلى الزنبق بلون القهوة المحروقة، وإذا عدنا إلى ذلك اليوم الذي حدث في "لاهاي" ذلك الحدث الكبير الذي ذكرناه نجد "فان بيرل" في تمام الساعة الواحدة والنصف من بعد الظهر يحمل من مساكبه البصلات التي لم تثمر بعد من زنابق القهوة المحروقة إذ أنها لا تزال تخفق حتى الآن. وكان قد حدد لها موعداً لأزهارها في الربيع القادم ١٦٧٣.. فلا تتأخر وتنبت الزنبقة الكبرى التي يطلبها مجتمع "هارلم" وبعد العشرين من آب ١٦٧٢، وفي بعد ظهر ذلك اليوم كان "كورنيليوس" في غرفة التجفيف قدماه على أعمدة المنضدة ويداه على الغطاء يتأمل بكل متعة ثلاثة فصوص انتزعها حالاً من بصلاتها، فصوص

نقية كاملة سليمة، منطلق لا يقدر بثمن لمعجزة من اكبر المعجزات نتجت عن العالم والطبيعة واجتمعت في هذه التركيبة التي إن نجحت لفتحت باب الشهرة لاسم "فان بيرل". وقال "كورنيليوس" لنفسه وهو ينتزع فصوص الزنبق.

- سوف أقبض خمسمائة ألف "فلوران" المخصصة للجائزة وسأوزعها على الفقراء في "دوردريخت" فيهدأ الحقد الذي يشعرون به تجاه الأغنياء أثناء الحروب الأهلية. وأستطيع أن أحتفظ بمساكبي في حالة رائعة لا أخشى الجمهوريين ولا أخشى البرتغاليين ولا أخشى البرتغاليين ولا أخشى أن يأتي في يوم ما أصحاب الحوانيت أو بحارة المرفأ ليقتلعوا أبصالي لإطعام أسرهم كما يهددونني بذلك بصوت خافت عندما يعلمون أنني اشتريت بصلة واحدة بألفين أو ثلاثة آلاف "فلوران" واتخذت قراري الآن أن أعطي الفقراء مئة ألف "فلوران" من جائزة "هارلم". ومع ذلك توقف "فان بيرل" وتنهد سيكون إنفاقاً جيداً لمئة ألف فلوران مخصصة لنمو وتطوير أرضي وزراعتي. أو لرحلة إلى الشرق موطن هذه الأوراد الجميل الأصلي. ولكن مع الأسف فالوقت غير مناسب لأنه وقت البيارق

والرايـات والإعـلام والهتافـات وطبـول الحـرب. ورفـع "فـان بيرل" يديه للسماء وتنهد ثم انتقل ببصره إلى أبصاله التي يفكر بها بشكل دائم قبل البنادق فهذه الطبول والإعلام والهتافات أشياء تجعل نفس هذا الإنسان الشريف الطيب تضطرب وقال: ها هي فصوص جميلة، ما أروعها، وما ألطف ملمسها كم هي متقنة الصنع، ما أجمل هذه اللمحة الحزينة التي تبشر بلون الأبنوس الأسود، لا تبدو على أوراقها عروق جهاز الدوران فلا تُرى بالعين المجردة، لا تلطخها أي بقعة على ثوب الحداد الذي ترتديه، زهرة على أن أعمل بها يوماً كاملاً. ومن ثم! سأسمي هذه الوردة؟ إنها ابنة سهدي وجهدي وفكري، سأطلق عليها اسم "برلنسي" الزنبقة السوداء. نعم – ما أجمله من اسم "برلنسي" كل أوروبا التي تعمل بتربية أزهار الزنبق، كل أوروبا الزكية سوف تهتز عندما تصل أخبارها إلى أربع أصقاع الأرض الأصلية ولقد وجدت الزنبقة السوداء!!

وسيقول المعجبون : ما هو اسمها؟ إنها الزنبقة السوداء "البرلنسية"، ولماذا؟ إنه اسم مبدعها "فان بيرل" ومن هو "فان بيرل"، هذا؟ إنه مكتشف أنواع جديدة من الزنابق مثل: زنبقة "جان دوويت" و"كورنيل" إنه طموحي وجهدي

سوف يتحدثون عن زنبقة سوداء "برلنسية" عندما يكون معمدي الذي سيعرفه الناس من خلال اسمه الذي أعطيته لزنبقتي، يا للفصوص الرائعة، وتابع تفكيره:

لقد عاد الهدوء إلى هولندا، وعندما ستزهر زنابقي، سوف أقدم خمسين ألف فلوران للفقراء وهذا مبلغ كبير بالنسبة لرجل ليس مديناً لأحد بشيء. أما الخمسين الثانية.

آه.. لو أتمكن من أن أجعل لزنابقي رائحة جميلة، كرائحة القرنفل أو الورد أو رائحة خاصة جديدة.. وهذا أفضل حتماً.

آه لو أستطيع أن أعيد إلى ملكة الزنابق رائحتها الأصلية الطبيعية التي فقدتها وهي تغادر عرشها الشرقي إلى عرشها الأوروبي عرشها الذي كان في شبه الجزيرة الهندية.. في جاوا.. في بومباي، في "مدراس"، في تلك الجزيرة التي كانوا يدعونها "جنة الله على الأرض" جزيرة "سيلان" يا للمجد! وأحب أن أقول: وسأقول ذلك عندها أحب أن أكون "كورنيليوس" على أن أكون الإسكندر أو قيصر أو مكسميليان! ما أجمل هذه الفصوص.

واستغرق كورنيليوس في تأملاته بأحلام عذبة وفجأة رن جرس البيت بشكل أقوى من المألوف.

وانتفض "كورنيليوس" وامتدت يده نحو فصوص الزنابق وسأل:

- من القادم؟ ورد الخادم: - إنها رسالة من "لاهاي"

- رسالة من "لاهاي"؟ ماذا يريدون؟

- سيدي إنه "غريك"

غريك؟ خادم "جان دوويت"الخاص؟ حسناً فلينتظر! وصاح صوت في الممر:

لا أستطيع الانتظار! واندفع "غريك" إلى غرفة التجفيف دافعاً الخادم أمامه. وأحدث هذا الظهور المفاجئ "ببيرل" - وقد خالف كل التقاليد المطبقة في هذا البيت - اضطراباً شديداً حتى أن "فان بيرل" عندما رأى "غريك" يندفع إلى غرفة التجفيف بهذا الشكل قام بيده بحركة عصبية أسقطت اثنان من فصوص الزنابق الثمينة واحد تحت المنضدة وآخر في الموقد وصاح "فان بيرل" وهو يندفع خلف فصوصه.

- إلى الشيطان.. ماذا هناك يا "غريك"؟

فقال غريك وهو يضع ورقة فوق المنضدة تئن عليها البصلة الثالثة.

ـ هناك..! إنك مدعو لقراءة هذه الورقة حالاً ولا تضيع لحظة واحدة أما "غريك" .. فقد لاحظ في شوارع "دوردريخت" نفس الصخب الذي تركه في "لاهاي" منذ قليل وهرب دون أن يلتفت وراءه. وقال "فان بيرل" وهو يمد يده تحت المنضدة ليلتقط البصلة الثمينة.

ـ حسناً. حسناً سنقرأ ورقتك: وبعد أن استعاد البصلة ووضعها في بطن راحته لفحصها قال: حسناً هذه بصلة سليمة.. إلى الشيطان يا "غريك" كيف تدخل غرفة تجفيفي؟! وتقدم "فان بيرل" نحو الموقد دون أن يتخلى عن البصلة الأولى وركع على ركبتيه وراح يجس الرماد الذي كان بارداً لحسن الحظ. وعثر على الفص الثاني بعد قليل وقال:

حسناً ها هو.. وراح يتأمله بحنان الأب.. إنه سليم أيضاً!

وفي نفس الوقت و"فان بيرل" لا يزال راكعاً يتأمل الفص الثاني اهتز باب غرفة التجفيف بشدة وفتح بقوة

جعلت اللهب الأحمر يتصاعد إلى وجنتيه وأذنيه من الذي يدعونه الغضب

ماذا هناك؟ هل من الناس الآن؟

وصاح أحد الخدم وهو يندفع إلى غرفة التجفيف شاحب الوجه يبدو عليه هلعاً يفوق ما كان على وجه "غريك" وسأل "كورنيليوس" وهو يتوقع مصيبة من ذلك الخرق المرعب لكل التقاليد وصاح الخادم:

- اهرب يا سيدي!

- ولماذا أهرب؟

- البيت مملوء بحرس الدولة!

- ماذا يريدون؟

- إنهم يبحثون عنك!

- لماذا يبحثون عني؟

- لكي يوقفوك

- يوقفوني أنا؟

نعم ومعهم أمر من الحكومة بذلك! فقال "فان بيرل" وهو يضغط على فصوص الزنبق وينظر إلى الدرج! وصاح الخادم:

ـ إنهم يصعدون الدرج.. إنهم يصعدون..

وصاحت مربيته بدورها وهي تدخل الغرفة

ـ -آه يا سيدي، خذ ذهبك ومجوهراتك واهرب!

وقال "فان بيرل""

ـ ومن أين تريدينني أن أهرب؟

- اقفز من النافذة!

- خمساً وعشرون قدماً

- ستسقط على ستة أقدام من التراب الطري!

- لكن سأسقط فوق زنابقي

- لا يهم.. اقفز.. وحمل "فان بيرل" البصلة الثالثة واقترب من النافذة وفتحها وعندما تصور الأذى الذي سيلحق بمساكبه وتخيل المسافة التي سيجتازها بسقوطه فقال:

- لا أبداً.. وتراجع خطوة إلى الوراء. وفي هذا الوقت بدت الخوذات الحديدية من خلال قضبان السلم ورفعت المربية يديها إلى السماء.

أما "فان بيرل" فكان اهتمامه بالأبصال التي لا تقدر بثمن فدار بعينيه على ورقة يلفها بها فرأى ورقة التوراة التي وضعها "غريك" على المنضدة فتناولها بلا وعي لشدة اضطرابه ولم يفكر من أين أتت هذه الورقة ولف بها الأبصال الثلاثة ودسها في صدره وبقي ينتظر. في هذا الوقت دخل الجنود والفرقة يتقدمهم القاضي الذي بادر بالسؤال.

ـ هل أنت الدكتور "فان بيرل" رغم أنه يعرفه تمام المعرفة، لكن ذلك تبعاً لقواعد العدالة مما أعطى خطورة كبرى للاستجواب. ورد "كورنيليوس" بكل لطف وحياد قائلاً

ـ أنا هو يا سيد "فان سبينين" وأنت تعرف ذلك جيداً!

ـ إذن أعطنا الأوراق المخبئة عندك! وصاح "فان بيرل" مذهولاً من هذا الطلب

ـ أوراق الخطاب؟

- آه لا تتظاهر بالدهشة.

- وصاح "كورنيليوس"

- أقسم لك يا سيدي

إنني أجهل تماماً ما تريد قوله! فقال القاضي:

إذن سأدلك على الطريق أعطنا الأوراق التي أودعها عندك الخائن "كورنيل دوويت" في كانون الثاني الماضي، ولمع برق في فكر "كورنيليوس" وصاح "سبينين"

- آه أنت تتنكر إذن!

- مؤكداً

والتفت القاضي وعانق ببصره كل أرجاء الغرفة وسأل:

- أي غرفة في بيتك هي غرفة التجفيف؟

- إنها التي نحن فيها الآن سيد "سبينين" وألقى ببصره على ورقة صغيرة من الصف الأول من الأوراق وقال مصمماً وقد التفت إلى "كورنيليوس"

- هل تسمح أن تسلمني هذه الأوراق؟

لكن.. سيد "سبينين" لا أستطيع ذلك فالأوراق عندي بصفة الأمانة والأمانة مقدسة فقال القاضي: باسم الدولة آمرك أن تفتح الدرج وتسلمني الأوراق المخبئة فيه. وأشار القاضي إلى الدرج الثالث في خزانة كانت قرب الموقد. وبالفعل فالأوراق التي أعطاها له "كورنيل دوويت" كانت في الدرج الثالث من نفس الخزانة مما يدل على أن الشرطة تعلم ذلك مسبقاً ـ وقال "سبينين" أنت لا تريد إذن؟ سأفتحه بنفسي.

وبينما كان القاضي يفتح الدرج شاهد في أوله عشرين بصلة زنبق مصففة وعليها بطاقاتها وصففت بعناية تامة ثم مجموعة الأوراق وقد بقيت على وضعها منذ أن سلمها لابنه المسكين. وقطع القاضي الشمع المختومة به ومزق الغلاف وألقى نظرة مبهمة على الوريقات الأولى التي وقعت تحت بصره وصاح بصوت رهيب:

ـــ آه. لم تتلق العدالة إذن بلاغاً كاذباً. وصاح "كورنيليوس"

ـ كيف؟ ماذا هناك؟ وأجاب القاضي: إنك تتجاهل يا "كورنيليوس" وعليك أن تأتي معنا.

وصاح الدكتور:

ولماذا أتبعكم؟

آه.. لأنني أوقفك باسم الدولة: ولم يصدر التوقيف باسم "غليوم دورانج" لأنه لم يمضِ وقت كاف على استلام السلطة.

وصاح "فان بيرل" ـ هل توقفونني؟ وماذا فعلت إذن؟

ـ هذا لا يهمني يا دكتور ـ سيشرح لك القضاء ذلك!

ـ وأين هذا؟

ـ في لاهاي!

وعانق "كورنيليوس" مربيته ذاهلاً ففقدت وعيها وصافح الخدم مودعاً وقد غرقوا في دموعهم وتبع القاضي الذي أجلسه على مقعد السجناء في العربة وسار به بأقصى سرعة إلى "لاهاي"

الفصل الثامن

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

السطو

ما حدث منذ برهة كان عملاً شيطانياً من السيد "إيزاك بوكسل" ونحن نذكر أنه بواسطة منظاره لم يضيع شيئاً من تفاصيل تلك المقابلة بين "كورنيل دوويت" وربيبه فهو لم يسمع شيئاً مما جرى .. لكنه رأى. ونذكر أنه حدس بالأهمية الكبرى للأوراق التي خبأها "كورنيل دوويت" لدى ربيبه عندما رأى هذا الأخير يضعها باعتناء ويدسها بالدرج الذي يضع فيه الأبصال الثمينة مما يدل على أن "بوكسل" يهتم بالسياسة أكثر من جاره "كورنيليوس" إذ أدرك أن "كورنيل دوويت" متهم بالخيانة العظمى بالنسبة للدولة وتخيل أن كلمة واحدة فقط تكفي لتوقف ربيبه أيضاً. ورغم فرحه فقد ارتجف لفكرة اتهام رجل بريء تهمة قد تقود إلى المشنقة. ومن

المخيف هـي أفكـار الشـر أنهـا تتـآلف بسـرعة مـع النفـوس السيئة، لكـن "بوكسـل" كـان يستمد شـجاعته مـن هـذه القصـة يتفكـر: أن "كـورنيـل دوويـت" مـواطن سـيء لأنـه مـتهم بالخيانـة العظمـى وهـو موقـوف الآن أمـا أنـا فـإني مواطن صالح لأني لست متهماً بشـيء في هـذا العـالم، وإذا كـان "كـورنيل دوويت" مواطناً سيئاً كما هو مؤكـد لأنـه متهم بالخيانة العظمى وطالما أن "كـورنيليـوس" "فـان بيرل" لا يكـون أقـل سـوءاً منـه، وطالما أنـني مـواطن صـالح فمـن الواجب على المـواطن الصـالح أن يشـي بـالمواطنين السـيئين. إذن مــن الواجــب علــي أنــا "إيــزاك بوكســل" أن اتهــم "كـورنيليوس" واشي به. وهـذا النوع مـن التفكير كـان لـه تأثير كبير على "بوكسل" وقد لا يخضع هذا الحسـود إلى رغبتـه في الانتقـام الـذي يعتصـر قلبـه إذا لم يطـع شـيطان الحسد شيطان الجشع أيضاً فهو يعـرف إلى أي مـدىً وصـل "فـان بيـرل" في أبحاثـه عـن الزنبقـة الكـبيرة السـوداء. ولأن "كـورنيليوس" بريئاً بسيطاً فلم يسـتطع أن يخفـي ذلـك عـن أصدقائه الخلص أنـه يكـاد أن يؤكـد أنـه في العـام ١٦٧٩ وبفضل اللّه سيحصل علـى الجـائزة مئـة ألـف "فلـوران" الـتي تعرضها جمعية المزارعين في "هـارلم".

وتأكيد "كورنيليوس" هذا هو ما سبب تلك الحمى التي تضني "إيزاك بوكسل" فإن توقيف "فان بيرل" سيحدث اضطراباً كبيراً في البيت. ففي الليلة التي تلت ليلة التوقيف لم يتذكر أحد أن يسهر على الزنابق في الحديقة، وفي نفس الليلة امتطى "بوكسل" الجدار وهو يعرف أين هي البصلة التي ستنجب الزنبقة السوداء الكبيرة، فسوف يقتلعها وبدلاً من أن تزهر في بيت "كورنيليوس" ستزهر عنده وسيحصل على المئة ألف فلوران بدلاً منه دون أن يحسب ذلك الشرف الكبير الذي سيحصل عليه عندما سيطلق على الزنبقة السوداء الجديدة اسم الزنبقة "البوكسلية" مما سيشفي غليل الانتقام في نفسه وغليل الجشع. وبقي مسهداً لا يفكر إلا بالزنبقة السوداء ونائماً لا يحلم إلا بها. وأخيراً.. وفي يوم التاسع عشر من آب في نحو الثانية من بعد الظهر، اشتدت رغبته بشكل لم يستطع مقاومتها. فأرسل وشاية مغفلة، ألغت تردده.. وألقى بها في صندوق البريد. ومنذ أن انزلقت هذه الورقة في صندوق البريد أحدثت ذلك الأثر السريع والتأثير الرهيب. ففي نفس الليلة تلقى القاضي الرئيسي تلك الورقة فطلب من زملائه أن يلاقوه في الصباح. واجتمع

القاضي وزملاؤه وقرروا التوقيف وسلموا الأمر للسيد "فان سبينين" الذي نفذ الأمر وقام بالواجب كما رأينا ، ذلك الواجب الملزم لكل مواطن صالح. وأوقف "فان بيرل" في نفس الوقت الذي كان فيه الأورانجيون يشوون أجزاء من جثث "كورنيل وجان دوويت"

وسواءً أكان ذلك خجلاً أو وصفاً أمام الجريمة فلم يكن لدى "بوكسل" في تلك الليلة الجرأة على وضع منظاره فوق الحديقة أو فوق المعمل أو فوق غرفة التجفيف، فهو يعرف ما يحدث في بيت "فان بيرل" المسكين دون الحاجة لأن يرى. وفي صباح هذا اليوم لم ينهض من فراشه حتى جاء خادمه الوحيد وكان يحسد أيضاً الخدم عند "فان بيرل" كما يحسده معلمه.. ودخل الغرفة ليقول "بوكسل" له:

ـ لن أنهض اليوم من فراشي فأنا مريض.. وفي تمام الساعة التاسعة سمع صخب في الشارع، فارتجف بوكسل لدى سماعه وشحب وجهه كأنه مريض فعلاً. ودخل الخادم من جديد. فغطى "بوكسل" وجهه تحت اللحاف. وصاح الخادم وهو لا يشك أنه سيقدم لسيده خبراً ساراً بما جرى لجاره "فان بيرل".

ـ آه يا سيدي! أنت لا تدري ماذا حدث الآن! وصاح "بوكسل" بصوت لا يكاد يفهم.

ـ وأنى لي أن أعرف؟

ـ أنهم أوقفوا جارك "فان بيرل" بتهمة الخيانة العظمى. وغمغم "بوكسل" بصوت خافت

ـ هذا غير ممكن!

ـ هـذا مـا يقولونـه علـى الأقـل. وقـد رأيـت القاضـي "سبينين" يدخل بيته ومعه القواسين. وقال "بوكسل" :

ـ إن كنت رأيت هذا فيتغير الموضوع. وقال الخادم:

على كل حال، سأذهب لأستطلع من جديد ، كن مطمئناً يا سيدي سأخبرك بكل شيء مما يجري. واكتفى "بوكسل" بأن شجع خادمه بإشارة صغيرة. وخرج الخادم من الغرفة ثم عاد بعد حوالي ربع ساعة

ـ آه يا سيدي، كل ما قلته لك هو الحقيقة بعينها!

ـ وكيف ذلك؟

لقد أوقف السيد "فان بيرل" ووضع في عربة نقلته إلى "لاهاي"

ـ إلى لاهاي؟

ـ نعم.. نعم، ما يقال هو الحقيقة ـ ولن يكون هذا لصالحه، وسأله "بوكسل"

ـ وماذا يقولون أيضاً؟

آه يا سيدي.. هذا ليس مؤكداً.. أنهم يقولون أن البورجوازيين يقومون في هذه الساعة بذبح "كورنيل وجان دوويت" وقال "بوكسل" أو بالأحرى حشرج وهو يغمض عينيه من منظر يتخيله بشكل مرعب. وقال الخادم في نفسه:

ـ إن السيد "بوكسل" مريض فعلاً كما لو كان رجلاً قتل رجلاً آخر، قتله لهدفين تحقق الأول منهما ويبقى أن يتحقق الثاني.

وحل الليل وأرخى سدوله السوداء على الكون، وكان هذا ما ينتظره "بوكسل" فنهض وقام إلى منظاره.. وكان قد عمل حساباً لكل شيء. فلم يتذكر أحد في مثل هذه الليلة أن يقوم بحراسة البستان فالبيت كله في اضطراب، وسمع الساعة تدق العاشرة ثم الحادية عشر ثم منتصف الليل. وفي منتصف الليل أخذ قلبه يدق بعنف ويداه

ترتجفـان ويشـحب وجهـه.. كـان كـل شـيء سـاكناً لا يعكر صفو الليل أي صوت ضوء واحد كان في البيت، كان ضوء غرفة المربية. وشجع هذا الظلام وهذا الصمت "بوكسل" فتسلق الجدار وتوقف برهة عند القمة. وتأكد أنه ليس هناك ما يخشاه فحمل السلم ونقله من حديقته إلى حديقة "فان بيرل" ونزل: إنه يعرف تماماً أين دفنت أبصال الزنبقة السوداء المستقبلية فجرى باتجاهه متبعاً الدرب كي لا تكشفه آثار قدميه، وعندما وصل إلى المكان غرس يديه في الأرض المبللة وهو يشعر بفرح النمر، لم يجد شيئاً وظن أنه مخطئ وتدحرجت حبات العرق من جبينه وبحث في الجانب الآخر.. لا شيء أيضاً ـ بحث إلى اليمين وإلى إلى اليسار إلى الأمام وإلى الخلف لكنه لم يجد شيئاً. كاد يصاب بالجنون، فالأرض قد قلبت صباح هذا اليوم إذ أن "فان بيرل" نزل إلى الحديقة و"بوكسل" لا يزال في فراشه ـ وأخرج البصلة من الأرض وقسمها إلى ثلاثة فصوص. ولم يستطع "بوكسل" أن يقرر مغادرة المكان ليعود خاوي الوفاض وقد تورمت كفاه. ولم يبق لديه شك في مأساته. فعاد إلى السلم وقد أعماه

الغضب فامتطى الجدار وأعاد السلم إلى بيته فألقاه في الحديقة وقفز خلفه.

وفجأة .. خطى له أمل أخير، أن الفصوص في غرفة التجفيف ولم يتطلب الأمر إلا الوصول إلى المجفف كما دخل إلى الحديقة.. وهنا سوف يعثر عليها. على كل حال ليس هذا بالعمل الصعب. فغرفة التجفيف هي غرفة زجاجية فقح "فان بيرل" ولم يخطر لأحد أن يغلقها ، كل ما في الأمر أنه بحاجة لسلم أطول من سلمه.. سلماً له عشرون درجة بدلاً من اثني عشر.

كان "بوكسل" قد لاحظ في الشارع الذي يسكن فيه بيتاً يقومون بترميمه وعلى مدى ارتفاعه سلم كبير مستنداً إليه.. كان هذا السلم غرض "بوكسل" فالعمال لم يرجعوه إلى مكانه. أسرع إلى البيت فوجد السلم لا يزال في مكانه ، فأخذه ونقله بصعوبة إلى حديقة بيته وبصعوبة أكبر إلى بيت "كورنيليوس" فكاد السلم أن يصل إلى باب الغرفة. وضع "بوكسل" بيلاً كهربائياً في جيبه وصعد السلم ودخل إلى غرفة التجفيف وعندما وصل إلى هذا "المذبح" وقف خلف المنضدة وقد تخلعت ساقاه من الرعب وقلبه يدق بعنف حتى ليكاد يختنق.. فوضعه هنا

أسـوأ مـن وضـعه ـ في الحديقـة ، فهنـاك يمكـن أن يقـال أن الـريح قد أطاحت لـه بشـيء ثمـين، وسـقط مـن الأعلـى وهـو يمتطي الجـدار. فهنـا ـ في الحديقـة "بوكسـل" هـو مغـامر أم ـ في الغرفة فهو لص! ومـع ذلـك فقـد اسـتدعى شـجاعته فهـو لم يحضـر إلى هنا ليعود يخفي حنين.. لكنه، بحـث طـويلاً فـتح وأغلـق الأدراج، وفـتح الأدراج المتميـزة الـتي كانـت مخزنـاً "لفـان بـيرل" ثـم غـدت شـؤماً عليـه. فوجـد الزنبقـة "لاجانيت" والزنبقة "دوويت" وزنبقـة القهـوة المحروقـة لكنـه لم يعثر على الزنبقـة السـوداء أو بـالأحرى فصوصـها ، فهـي مختفية لا تزال – فلم يعثر لها على أثر ومع ذلـك فقـد وجـد ـ في سـجل البـذور والفصـوص الـتي أمسـكها بكـل اعتنـاء ودقـة كمـا لـو كانـت سـجلاً تجاريـاً ـ في أولى بيوتـات "أمستردام" إذ قرأ فيها: "اليوم ـ في عشرين آب ١٩٧٢ اقتلعت مـن الأرض بصـلة الزنبقـة السـوداء وقسـمتها إلى ثلاثـة فصوص. وصاح "بوكسل" وهو يجرب كـل شـيء ـ في غرفـة التجفيف: هذه الفصوص! أين وضعها؟ أيـن خبأهـا؟ وفجـأة صفع جبينه صفعة كـادت ترقـق دماغـه.. آه كـم أنـا تعـس لقـد ضـللت ثـلاث مـرات، هـل يتخلـى عـن فصوصـه؟ هـل يبتعـد عنهـا؟ هـل يتركهـا ـ في "درودريخـت"؟ وهـي فصـوص

الزنبقة السوداء العظيمة؟ كان لديه الوقت الكافي ليحملها معه ذلك المشؤوم! أنها معه في "لاهاي" وكان هذا برقاً لمع ليكتشف عن عمق جريمة لا طائل منها.. فمنذ عدة ساعات كان "فان بيرل" يتأمل بإعجاب كبير ومتعة أكبر فصوص الزنبقة السوداء وأخيراً قال هذا الحسود وهو يدفع عن المنضدة وجهه الشاحب: إذا كانت هذه الفصوص معه فهي في حوزته طالما هو على قيد الحياة! وتداخلت فكرته المخجلة بابتسامة مخيفة: أن الفصوص في لاهاي فلا أستطيع العيش في "دوردريخت" إلى "لاهاي" وبدون أن يفكر في ثروته التي سيتركها لشدة انشغاله بثروة أخرى لا تقدر بثمن. وخرج من الغرفة وأعاد أداة السرقة إلى مكانها وعاد إلى بيته وهو يزأر بقوة كأنه حيوان مفترس.

الفصل التاسع

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

غرفة العائلة

كانت الساعة تدق منتصف الليل عندما دفع المسكين "فان بيرل" إلى "بيتانهوف" وحدث ما توقعته "روزا" عندما شاهدت الغرفة التي شغلها "كورنيل دوويت" فارغة إذ كان الغضب شديداً وحتى لو وجد الأب "غريغوس" بين أيدي هؤلاء الغاضبين لدفع هو الثمن عن سجينه. لكن هذا الغضب وجد طريقة للتعبير عنه عندما التقى الأخوان بالقتلة وذلك بسبب الاحتياطات التي اتخذها "غليوم دورانج" بإغلاق أبواب المدينة. لذا غدا السجن فارغاً. وعاد الصمت بعد ذلك الزئير الرهيب الذي حدث قرب الدرج. واستغلت "روزا" هذا الصمت لتخرج والدها من الغرفة التي خبأته فيها ، فلم يعد هناك فائدة من الاختفاء بعد أن تم القتل في "تول هوك" وسار

"غريغوس" وهو يرتجف خلف ابنته الشجاعة وراحا يغلقان باب السجن المحطمة حتى ليقال أن طوفاناً من الغضب العارم مر من هنا. وفي حوالي الساعة الرابعة، سُمع كأن الصخب قد عاد لكن ذلك لم يزعج "غريغوس" إذ كان ذلك لسبب نقل جثث القتلى يجرونها ليتم شنقها في المكان المخصص للتنفيذ. واختبأت "روزا" هذه المرة كي لا ترى المشهد المرعب. وفي تمام منتصف الليل دق باب سجن "بيتانهوف" أو بالأحرى باب الخراب الذي حل محله كان "كورنيليوس فان بيرل" هو الذي يساق إليه وعندما استقبل "غريغوس" النزيل الجديد قرأ الورقة التي كتبت عليها صفته فغمغم:

إنه ربيب "كورنيل دوويت" وابتسم ابتسامة سجان .. يا للشاب! لدينا هنا غرفة العائلة وسنقدمها لك. وأعجبه المزاح الذي جاء على قوله ذلك الأورانجي القاسي، وحمل المشعل والمفتاح ليقود "كورنيليوس" إلى الغرفة التي غادرها "كورنيل" في نفس هذا الصباح في طريقه إلى التنفيذ: وكما يدعو ذلك الأخلاقيون أيام الثورة كرمز للسياسة العليا إذ يقولون: "كل الناس يعرفون عدا الأموات" وتهيأ "غريغوس" لنقل "فان بيرل" إلى غرفة مربيه

وفي الطريق الذي كان عليه أن يجتازه ليصل إلى الغرفة لم يكن بائع الأزهار المسكين ليسمع إلا صوت نباح لكلب ولا يرى إلا الوجه الجميل لهذه الصبية. أما الكلب فقد خرج من حفرة في الجدار وهو يهز سلسلة كبيرة ويتحسس بأنفه "كورنيليوس" ليتعرف عليه عندما يتلقى أمراً بافتراسه وعندما أنّ درابزين الدرج تحت وطأة يد السجين المتثاقلة فتحت الفتاة باب الغرفة الصغيرة التي تقيم فيها تحت كتلة الدرج تحمل بيدها مصباحاً كهربائياً يتدلى شعرها الأشقر الجميل ضفائر كثيفة وتربط بيدها اليسرى ثياب الليل البيضاء التي ترتديها فقد استيقظت من أولى مراحل نومها عند وصول "كورنيليوس" الغير متوقع كانت لوحة تُرسم ويستحقها "رامبرانت"..

ذلك الدرج اللولبي ينيره المصباح الأحمر يحمله "غريغوس" ذلك الوجه العبوس للسجان، وجه "كورنيليوس" الشاحب الذي يستند على حديد الدرج وجه "روزا" الجميل وهي تخرج من الغرفة الصغيرة المضاءة وتحركها الهادي الموقور الذي قد يكون بسبب الأهمية العالية "لكورنيليوس" وهو يصعد هذه الدرجات حيث تداعب أبصاره الحزينة الأكتاف المستديرة للفتاة الشابة.

وهناك في الظل حيث تنفي العتمة كل التفاصيل كانت عينا الكلب العقيقية وهو يهز سلسلته تجعل النور المضاعف من ضوء قنديل "غريغوس" ومصباح "روزا" تغدو كأنهما لآلئ براقة.

ولكن ما يستطيع أن يصوره في هذه اللوحة ذلك الفنان الكبير هو: الشعور بالألم الذي بدا على وجه "روزا" عندما رأت هذا الشاب الجميل الشاحب وهو يصعد الدرج ببطء والذي وجهت إليه تلك الكلمات المأساوية يتفوه بها والدها "ستكون غرفة العائلة" واستمرت هذه الرؤية زمناً كثيراً عما استغرقه وصفه لنا وتابع "غريغوس" طريقه واضطر "كورنيليوس" أن يتبعه. وبعد خمس دقائق تقريباً دخلا الغرفة التي لا تحتاج لوصفها لأن القارئ يعرفها من قبل. وبعد أن أشار "غريغوس" بيده إلى السرير الذي طالما عانى فوقه "كورنيل" من التعذيب، ذلك الشهيد الذي أسلم روحه لبارئها في نفس اليوم. وحمل "غريغوس" قنديله وخرج. وألقى "كورنيليوس" نفسه على السرير عندما غدا وحيداً.. لكنه لم ينم. بل بقيت عيناه مسمرتان بتلك النافذة الضيقة ذات القضبان الحديدية المطلة على ساحة "بيتانهوف". وهكذا كان يرى ذلك الشعاع الأبيض الأول

مـن النـور عنـدما ترسـله السـماء إلى الأرض مـن خـلال الأشجار كأنه رداء أبيض. وفي الليل كانت بعض الخيول تمـر مسـرعة على السـاحة لـبعض الـدوريات تـدق قوائمهـا علـى بـلاط السـاحة المستدير الصغير. أمـا بـؤرة الغربينـة، فكانت تطلق وهي تشتعل في الهواء الغربي بريقاً متقلعاً على واجهة السجن. وعندما فضضّ الفجر الوليد قبعات البيوت كان "كورنيليوس" متشوقاً لمعرفة ماذا هناك في أجواء هذا المحيط الذي وجد فيه. دنا من النافذة وجال ببصره بدون تحديد فيما حوله ففي آخر الساحة شاهد كتلة سوداء ملونة بالأزرق القاتم من ضباب الصباح ترتفع لترسم ظل هيكلها المتقطع (المشوه) على البيوت الشاحبة وعرف فيها المشنقة!! وقد تدلى منها مزقين تعسين ـ هيكلان لا يزالان يدميان، إذ أن شعب لاهاي الطيب كان قد مزق لحم ضحاياه، لكنه ومن باب الوفاء أعاده إلى المشنقة تنفيذاً لإعلان مكتوب على هذه اللائحة وبعيون شاب ذي ثمانية عشر ربيعاً تمكن "كورنيليوس" أن يقرأ الأسطر التالية وقد كتبها مخربشوا اللافتات، بريشة غليظة.

"هنا نفذ شنق الموظف الكبير "جان دوويت" وكذلك أخيه الصغير "كورنيل" عدوا الشعب والصديقان الوفيان لملك فرنسا" وأطلق "كورنيليوس" صيحة رعب عالية ولشدة اضطرابه وهلعه الجارف راح يدق الباب بيديه ورجليه بعنف شديد. وأسرع "غريغوس" يحمل قنديله ورزمة مفاتيحه ليصب جام غضبه ولعناته الرهيبة على ذلك السجين الذي أزعجه في وقت اعتاد أن لا يتلقى أي إزعاج فيه.

أهذا أنت؟ هل أنت غاضب؟ هذا الآخر من آل "دوويت" هؤلاء الـ دوويت يسكن الشيطان في أجسادهم. وصاح "كورنيليوس" وهو يمسك السجان بيده ويجره نحو النافذة.. سيدي ماذا هناك في الأسفل؟

أين هناك؟

على هذه اللائحة، وأشار له بكل اضطراب وثورة، شاحب الوجه متقطع الأنفاس إلى المشنقة واللوحة التي تعلوها الكتابة الوقحة وأخذ "غريغوس" يضحك

نعم ـ لقد قرأت إذن يا سيدي العزيز! هذا ما يحصل إذا كان لك علاقات استخبارية مع أعداء الأمير "أورانج" فقال "كورنيليوس" والعرق ينتفض من جبينه.

إذن.. لقد قتل السيدان "دوويت"

لقد نال الأخوان جزاءهما وعدالة الشعب ـ هل تسمي ذلك قتلاً؟ أما أنا فأقول: لقد نفّذ!!

وعندما لاحظ السجان أن السجين قد فقد وعيه بسبب الإعياء الشديد خرج من الغرفة وصفق الباب خلفه بشدة وأعاد المصراع بصخب شديد. عندما استعاد "كورنيليوس" وعيه وجد نفسه وحيداً وعرف أنه في غرفة العائلة كما دعاها "غريغوس" وكأنها الطريق أو الغدر الذي يؤدي إلى ميتة تعسة.

وكأنه فيلسوف ورجل مسيحي راح يصلي لراحة نفس ربيبه ونفس الموظف الكبير. أما بالنسبة له، فقد اقتنع أنه سيتحمل كل الآلام التي سيرسلها اللّه له. ومن ثم، وبعد أن هبط من السماء إلى الأرض وحيداً في هذه الغرفة أخرج من صدره ثلاثة فصوص للزنبقة السوداء وخبأها فوق مقعد يضعون خلفه جرة الماء في أعمق نقطة

في السجن. سدىً كان تعبه لعدة سنوات، تحطمت أعذب الآمال وسيضيع اكتشافه إلى الأبد.. وهو إلى الموت. إذ لا نبتةً صغيرة في هذا السجن، لا ذرة من تراب ولا حتى شعاعاً من الشمس ووقع "كورنيليوس" بيأس شديد وهو يفكر بكل هذا، بأسىً لم يخرج منه إلا على ظرف طارئ وغير متوقع! ما هو هذا الظرف؟

هذا ما ندخره لنقوله لكم في الفصل القادم.

الفصل العاشر

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

بنت السجان

في مساء نفس اليوم بينما كان "غريغوس" ينقل الطعام للسجين زلن قدمه وهو يفتح الباب فسقط على البلاط الرطب. وانحنى وهو يحاول أن يتماسك فوقع وكسر يده من ما يلي الراحة. فأسرع "كورنيليوس" نحو السجان لإسعافه لكن هذا الأخير وهو:

ولم يعرف بعد خطورة الحادث ـ قال:

لا تتحرك، لا شيء مهم، لكنه عندما أراد أن ينهض اتكأ على ذراعه فانثنى عظم يده عندها شعر بألم شديد وأطلق صيحة عالية وعرف عندها أن يده قد كسرت. هذا الرجل القاسي بالنسبة لكل الناس هوى على الأرض أمام الباب مغشياً عليه وبقي بلا حراك كأنه قد مات. كان

باب السجن مفتوحاً وبدا "كورنيليوس" كأنه طليق لكنه لم يخطر له على بال أن يستفيد من هذا الظرف وقد رأى كيف انثنت يد السجان وسمع طقطقة العظم وعندما ثناها عرف أن يده مكسورة وان ألمها شديد فلم يفكر إلا في مساعدة هذا الجريح رغم النية السيئة التي أبداها له عندما كان مكانه في لقائه الأول له. وعندما احدث سقوطه هذا الصوت وأطلق صيحة الألم التي أفلتت منه سُمع صوت خطوات متسارعة تصعد السلم.

وصاح "كورنيليوس" لدى سماعه هذا الصوت وردت عليه صيحة أخرى من الفتاة الجميلة عندما شاهدت أباها مرمياً على الأرض والسجين محنياً فوقه، فخطر لها بادئ ذي بدء أن "غريغوس" الذي تعرف فيه القسوة قد سقط أثر مشادة بينه وبين السجين. وفهم "كورنيليوس" ما جال بخاطر الفتاة عندما خطر لها هذا الخاطر.. لكنها عادت إلى نفسها وعرفت الحقيقة فخجلت مما فكرت به ورفعت نحو الشاب عينيها الدامعتين وقالت له:

عفوك يا سدي ـ عما فكرت فيه، وأشكرك على ما تقوم به فقال وقد علا الاحمرار وجهه: - لم أقم إلا بواجبي وعلي أن أسعف إخواني.

ـ نعم – لقد قمت بإسعافه الآن ونسيت إساءته إليك في الصباح وهذا عمل يفوق الإنسانية والمسيحية. ورفع "كورنيليوس" عينيه نحو الطفلة وعجب كيف تخرج هذه الكلمات النبيلة من فم بنت من عامة الشعب. ولم يتمكن أن يعبر عن دهشته إذ أن "غريغوس" عاد إليه وعيه، وفتح عينيه وعادت مع وعيه شراسته المعهودة مع عودة الحياة إليه وقال:

هكذا إذن.. نسرع بتقديم الحساء للسجين فنزل وسقط وتكسر يدنا على البلاط. فقالت "روزا"

اسكت يا أبي.. أنت تظلم هذا الشاب، لقد رأيته مهتماً بتقديم المساعدة الممكنة

فقال بلهجة يشوبها الشك

ـ هو؟

ـ نعم يا سيدي، أنا سعيد لإسعافك أيضاً وقال "غريغوس"

ـ أنت؟ هل أنت طبيب إذن؟ وقال السجين:

ـ نعم كانت تلك مهنتي الأولى وأستطيع أن أعيد ذراعك سليمة!

ـ تماماً؟ أحقاً؟ وماذا تحتاج لكي تقوم بذلك؟

ـ قطعتين من الخشب وضماد من قماش! وقال "غريغوس"

ـ أسمعت يا "روزا"؟ إن السجين سيجبر لي ذراعي.. وهذا توفير علينا!

هيا ساعديني لأقف فأنا الآن متوازن!

فأدنت "روزا" كتفها للجريح وأحاط الأخير رقبة ابنته بيده ثم حاول النهوض، ووقف على ساقيه بينما كان "كورنيليوس" يقدم له المقعد ليجلس عليه ويختصر الطريق. وارتمى "غريغوس" على المقعد ثم التفت إلى ابنته:

ألم تسمعي ما قال؟ هيا اذهبي واحضري ما طلبه، ونزلت "روزا" ثم عادت بعد قليل بقطعتين من خشب البراميل وضمادة طويلة من القماش. بينما كان "كورنيليوس" ينزع عنه سترته ويرفع له كميه وسألته "روزا":

ـ هل هذا ما تريده يا سيدي؟ فقال وهو ينظر إلى ما جاءت به

- نعم يا آنسة! هذا ما أريده. ادفعي هذه المنضدة قليلاً كي أسند إليها والدك

ودفعت "روزا" المنضدة ووضع "كورنيليوس" اليد المكسورة عليها. كي تكون مستوية تماماً، وبمهارة فائقة أعاد العظم إلى مكانه وسوّى قطعتي الخشب وأحكم الربطة ولم يكد يبلغ الحبسة الأخيرة حتى غاب السجان عن الوعي من جديد. وقال "كورنيليوس"

هيا اذهبي وأحضري بعض الخل لتدعك به صدغي والدك ليعود إلى وعيه. ولكن "روزا" بدلاً من أن تسرع لتنفذ ما طلب وقد اطمأنت أن والدها غاب عن الوعي تماماً قالت له:

- سيدي .. خدمة مقابل خدمة!

- ماذا تعنين يا طفلتي الصغيرة؟

سيدي! إن القاضي الذي سيستجوبك غداً قد وصل ليعرف فيما إذا كانت الغرفة التي كان فيها "كورنيل دوويت" أنت فيها الآن! وعندما تأكد من ذلك منحك ضحكة خبيثة مما يدل على أن لا خير ينتظرك هنا. وسألها "كورنيليوس"

- ماذا تظنينهم فاعلين بي؟

- ألا ترى المشنقة من هنا؟

- لكنني بريء وغير مذنب.

لقد كانا كذلك.. أولئك الذين هناك في الأسفل معلقين، ممزقين، ومشوهين.

وصاح "كورنيليوس" وقد شحب وجهه اكتئاباً وتابعت "روزا"

على كل حال، الرأي العام هنا يريدك مذنباً، وأخيراً سواء كنت مذنباً أو غير مذنب سينظرون غداً في دعواك، وبعد غد ستكون مداناً والأمور تجري بسرعة في هذا الزمن الهارب.

- إذن بماذا تختمين؟ أقول:

- إنني هنا وحدي الآن وأنا ضعيفة وأبي مغمى عليه والكلب مقيد، لا شيء يمنعك من الهرب.. اهرب إذن.. هذا ما أريد قوله!

- ماذا تقولين؟

أقول إنني لم أستطع أن أنقذ السيدين "دوويت" مع الأسف وأريد الآن أن أنقذك أنت.. أسرع! ها هو والدي قد

بدأ يستعيد وعيه ويفتح عينيه وتكون قد تأخرت. هل تتردد؟

وبالفعل فإن "كورنيليوس" لم يتحرك وبقي ساكناً ينظر إلى "روزا" يتأملها ولا يسمعها. وصاحت الفتاة وقد نفذ صبرها.

ألا تفهم .. وقال "كورنيليوس":

نعم أفهم. ولكن..

ولكن ماذا؟

أنا أرفض لأنهم سيتهمونك أنت!

وجأرت "روزا": هذا لا يهم. وتابع "كورنيليوس"

ـ شكراً لك يا طفلتي .. لكن سأبقى هنا.

ـ ستبقى؟ يا إلهي.. يا إلهي.. ألا تفهم.. ستكون مداناً وسيحكمون عليك بالموت.. لقد قتلوا ومزقوا السيدين "دوويت" بحق السماء لا تفكر بوضعي واهرب من هذه الغرفة التي أنت فيها، احذرها فهي مشؤومة تجلب الشر لآل "دوويت" وقال "غريغوس" وقد بدأ يستعيد وعيه.

ـ آه من يذكر أولئك الرجلين التعسين من آل "دوويت"

فقال "كورنيليوس" بابتسامة عذبة:

ـ لا تهتم يا رجلي الشجاع، فأسوأ شيء بالنسبة للكسر هو فورة الدم والانفعال ثم قال بصوت خافت إلى "روزا"

ـ يا صغيرتي .. أنا بريء وسأنتظر حكمي بكل براءة وهدوء الأبرياء. وقال "روزا"

ـ اصمت.. فقال: ولماذا أصمت؟

ـ يجب أن لا يشك والدي بأننا تحدثنا معاً.. وأين الخطأ في هذا؟ فقالت:

ـ الخطأ أنه سيمنعني من العودة إلى هنا! واستمع "كورنيليوس" إلى هذا السر البريء، وبدا له أن شيئاً من السعادة قد تألق وسط مأساته.

وقال "غريغوس" وهو ينهض ممسكاً يده بيده اليسرى:

ـ بماذا تتهامسان أنتما الاثنان؟ فقالت "روزا" :

ـ لا شيء هو يشرح لي النظام الذي عليك أن تتبعه

ـ النظام؟ النظام الذي علي أن أتبعه؟

ـ وأنت عليك أن تتبعي النظام!

أي نظام يا أبي؟

ـ أن لا تحضري أبداً إلى غرفة السجناء. وإن حضرت لن تعودي بسرعة هيا سيري أمامي بخفة وعلى عجل.
وتبادلت "روزا" وكورنيليوس" نظرة أخيرة، نظرة تقول له:

ــ هل رأيت جيداً؟ إن نظرة "كورنيليوس" كانت تقول:

ـ ليكن ما يكون مما يرضي الله تعالى.

الفصل الحادي عشر

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

وصية "كورنيليوس فان بيرل"

كانت "روزا" على حق ففي صباح اليوم التالي حضر القضاة وقاموا باستجواب "كورنيليوس" لم يكن الاستجواب طويلاً فقد تم التأكد فيه أن "كورنيليوس" احتفظ بهذه الأوراق المشؤومة عن علاقة الأخوين "دوويت" وهو لم يفكر بذلك.

وفي نظر المحققين أنه كان يشك في هذه الرسائل التي سلمها له ربيبه "كورنيل" لكنه لم يتصرف بشيء بعد موت الشهيدين، ولم يفكر أنه استلم الوديعة شخصياً من "كورنيل دوويت" كما ذكر كيف وأين وفي أي ظروف سلمت له تلك الوديعة التي ورطت الابن بجريمة الأب وأن "كورنيليوس" هو شريك "لكورنيل" ولم يكتف

"كورنيليوس" بهذا الاعتراف بل ذكر كل الحقائق فيما يختص بأصدقائه ومن يألفهم وكيف أنه لا يهتم بالسياسة وأنه يحب الدراسة والفن والعلوم والأزهار، وروى أنه منذ أن جاء "كورنيل" إلى "دوردريخت" لم يلمس أحد هذه الأمانة ولم يرها أحد إلا الذي أودعت عنده. وكان رأي المحققين أنه لا يمكن أن يكون "كورنيليوس" قد قال الحقيقة وأن الأوراق مخبئة في درج خزانة يدس يده وعينه فيها كل يوم. وقال "كورنيليوس" إن هذا صحيح لكنه لم يضع يده في الدرج إلا ليطمئن على أبصاله وأنها قد جفّت تماماً أو أن أبصاله بدأت تتبرعم. أما إدعاءه بالحياد بالنسبة للسياسة فهذا لا يقاوم المنطق فمن غير الممكن أن يتلقى من ربيبه أمانه كهذه ولا يدرك أهيمتها. ورد "فان بيرل" على ذلك بما يلي: أن ربيبه "كورنيل" كان يحبه كثيراً سيما وهو إنسان حكيم فلم يذكر له محتوى الأوراق لأن مثل هذا البوح لا يجلب إلا العذاب لحاملها. ورد عليه القضاة أن السيد "دوويت" لو تصرف بهذا الشكل لوضع مع هذه الرسائل ورقة تؤكد أن قريبه بعيد جداً عن محتواها. أو لكان عندما حوكم كتب بضعة كلمات يمكن أن تفيد في تبرئته أن حدث حادث ما.

لكـن ربيبـه لا يـدري أن لهـذه الأمانـة خطـورة علـى ربيبـه.. فهـي في خزانـة مخبئـة وينظـر إليهـا كشـيء مقـدس فهـي الأثـر المقـدس في عائلـة "فـان بيـرل" لـذا اعتبـر أن مثـل هـذه الشـهادة لا فائـدة لهـا. أمـا بالنسـبة للرسـالة فهـو يـذكـر أن قبـل توقيفـه بفتـرة قصيـرة كـان مسـتغرقاً بتأمـل إحـدى بصـلاته النـادرة عنـدما دخـل عليـه خـادم السـيد "كورنيـل" إلى غرفـة التجفيف وأعطـاه ورقـة.. ولـم يبـق في ذاكـرتـه مـن هـذا الحـادث سـوى ذكـرى غائمـة كـأنهـا رؤيـة خياليـة وأن الخـادم قد اختفـى. وهـكـذا يمـكـن العثـور علـى الورقـة لـو تـم البحـث عنهـا أم "غريـك" فـلا يمكـن العثـور عليـه. إذ قـد يكـون قـد غـادر "هولنـدا" ولـم يؤكـد "فـان بيـرل" علـى الورقـة إذ حتـى لـو عثـر عليهـا فهـي لا تحتـوي أي شـيء يتعلـق بالاتصالات موضوع التهمة.

وبـدا القضـاة كـأنهم يريـدون مـن "كورنيليـوس" أن يدافـع عـن نفسـه بشـكل أفضـل واعترفـوا لـه بـذلك الصـبر والتحمـل الطيبين ممـا يـوحي إمـا لقـاضٍ مهـم بالنسـبة للمتهـم أو قـاضٍ انتصـر علـى خصـمه وطرحـه أرضـاً ، فـلا يحتـاج لأن يضـطهد خصـمه طالمـا انـه سـيفقده. ولـم يـرض "كورنيليـوس" عـن هـذا النفـاق ففـي آخـر جـواب رد علـيهم

بكل نبل الشهداء وهدوء الأبرياء: إنكم تطلبون مني أشياء لا جواب لها عندي، وليس لدي إلا الحقيقة التامة وهي أن الرزمة قد وصلت إلي عن الطريق الذي ذكرته وأقسم لكم أمام الله أنني كنت ولا أزل أجهل ما تحتويه، وعرفت يوم أن تم توقيفي فقط، أن الأوراق هي الاتصالات بين الموظف الكبير والسيد "لوفوا" وأقسم أخيراً أنني أجهل كيف عرفوا بوجود هذه الأوراق عندي فكيف أكون مذنباً لأنني استلمت ما قدمه لي قريبي الشهير التعس؟ كانت تلك كل محاكمة "كورنيليوس" وذهب القضاة للتشاور ثم عادوا بالحكم: "وخلاصته أن كل التحاليل والاستنتاجات المدنية مشوومة فيما يتعلق بإشعال حرب يتمنى الجميع أن يخمد أوزارها.

وأكد واحد من القضاة وهو رجل عرف عنه أنه يفكر بعمق:

إن هذا الشاب الهادئ ظاهرياً لا بد أن يكون خطيراً جداً في الحقيقة فهو يخفي تحت هذا الرداء البارد الذي يتخفى فيه رغبة جامحة في أن ينتقم للأخوين "دوويت" وهم أقرباؤه ــ ولاحظ آخر أن حبه للزنابق يرتبط كثيراً بالسياسة، ويقول التاريخ أن بعض الرجال الخطرين

كـانوا يعملـون بالزراعـة كـل حسـب رغبتـه بـل كـانوا ﻓﻲ الحقيقـة يهتمـون بأشـياء أخـرى.. فكـان "تاركـان" يـزرع الخشخاش ﻓﻲ "غابيه" أمـا "كونـده" العظيم فكـان يسـقي قرنفلـة ﻓﻲ بـرج "فانسـان" ﻓﻲ وقـت كـان الأول ينتظـره أن يعود إلى روما ، والثاني ينتظـر خروجـه مـن السـجن. واختتم القاضي أقواله بهذه المشكلة:

إن السيد "كورنيليـوس" إمـا أنـه يحـب الزنـابق كـثيراً أو يحـب السياسـة كـثيراً وقـد كـذب علينـا ﻓﻲ الحـالتين: ففي الأولى يدل على انه يهتم بالسياسة لوجود هـذه الأوراق عنده ودلّل علـى أنـه يهتم بالزنـابق فالفصـوص هنـا لتؤكـد ذلـك وأخيراً وهـو الأهـم أنـه طالمـا يهتم بالزنـابق والسياسـة معاً فهو إذن ذو طبـع هجين يتبـع تنظيمـاً مزدوجـاً يعمـل فيـه بنفس الحماس ﻓﻲ السياسة والزنـابق معـاً ممـا يعطيـه صـفة رجـل خطـير بالنسـبة لـلأمـن العـام فهنـاك بعـض الشـبه ﻓﻲ الأفكـار النفسـية لــ "ثاركـان دانسـيان" و"كونـده" فهـو يشـكل مثالاً لهم الآن. وكـان مـن نتيجـة هـذه الأفكـار أن أمير حكومة هولندا وله باع طويل لدى حكومـة لاهـاي إذ تسهل له إدارة الولايات السبعة فتقتـل لـه أقـل بـذرة مـؤامرة ضـد سـلطته. وأبطلـت هـذه الحجـة كـل الحجـج الأخـرى

ولكي تهدم أي بذرة مؤامرة فقد نُطق الحكم بالموت على "كورنيليوس" وقد اقتنعوا أنه يخفي تحت مظاهر البراءة هذه كعاشق الزنبق مشاركته بالمؤامرة الدنيئة والدسيسة المقيتة للسيدين "دوويت" من دولة "هولندا" بعلاقتهما السرية مع العدو الفرنسي. وكان النص يحتوي استطراداً يقول: أن "كورنيليوس" المذكور سيخرج من سجن "بيتانهوف" ليقاد إلى المشنقة المنصوبة بالساحة المسماة باسمه حيث يقوم المنفذ لحكم القضاة بقطع رأسه. وبما أن هذا التداول كان جاداً واستمر لنصف ساعة أعيد بعدها السجين إلى السجن. وما حدث أن كاتب المحكمة قدم ليتلو عليه النص. أما "غريغوس" فقد كان ملازماً لسريره بسبب الحمى التي سببها له كسر ذراعه وسلمت مهمته إلى احد الخدم الزائدين عن المطلوب في السجن. وخلف الخادم الذي أدخل كاتب المحكمة كانت "روزا" الجميلة تختفي خلف الباب وقد وضعت منديلاً على فمها كي تخفي به نشيجها وتنهداتها. واستمع "كورنيليوس" إلى الحكم بمزيج من الدهشة أكثر منه إلى الحزن. وبعد تلاوة الحكم طلب منه الكاتب إن كان لديه شيء يقوله فرد قائلاً:

ـ لا .. أبداً ، وأعترف أنني من بين كل الأسباب القاتلة التي يمكن لإنسان حريص أن يتنبأ بها ليتفاداها لم أشك في واحدة من هذه الأسباب!! وبعد أن سمع كاتب المحكمة أقواله حيّاه بذلك الاحترام الذي يمارسه الموظفون حيال المجرمين الكبار من كل نوع. وسأله "كورنيليوس" أثناء خروجه:

ـ سيدي الكاتب.. من فضلك، في أي يوم سيكون هذا؟ فقال الكاتب وهو يشعر بالاضطراب لبرودة هذا المتهم: ـ سيكون في هذا اليوم.

وسُمِعَ صوت نشيج من خلف الباب: وانحنى "كورنيليوس" ليرى من يبكي لكن "روزا" أحست بحركته وتراجعت إلى الخلف وسأل "كورنيليوس":

ـ في أي ساعة سيكون التنفيذ؟

ـ في تمام الثانية عشر.

فصاح "كورنيليوس"

ـ يا للشيطان! لقد سمعت ساعة السجن تدق العاشرة

هناك عشرون دقيقة ليس لدي وقت أضيعه وأضاف الكاتب وهو يحيه بانحناءة كاد بها أن يلامس الأرض.

يمكنك أن تطلب الكاهن الذي تريد لكي تتصالح مع الله. قال ذلك وهو يسير إلى الخلف وتبعه السجان فخرج وهو يغلق الباب على "كورنيليوس" بينما كانت اليد البيضاء المرتجفة تقف بين الرجل والباب الحديدي. ولم ير "كورنيليوس" إلا القبعة الذهبية ذات الأطرف المسننة البيضاء - زينة "روزا" الجميلة - ولم يسمع إلا همساً في أذن السجان فما كان منه إلى أن قدّم رزمة المفاتيح الثقيلة إلى اليد البيضاء الممدودة نحوه. فنزل عدة درجات وجلس وسط السلم ذلك الذي يقوم بحراسته من الأعلى ويحرسه الكلب من الأسفل. وعادت القبعة المذهبة وعرف فيها "كورنيليوس" ذلك الوجه الذي خططه البكاء وتلك العينين الزرقاويتين الغارقتين بالدمع عينا "روزا" الجميلة. وتقدمت من "كورنيليوس" وهي تضغط بيديها الاثنتين على صدرها المكسور وصاحت:

ـ آه يا سيدي.. آه يا سيدي.. ولم تستطع أن تكمل كلامها. فقال "كورنيليوس" وهو شديد الانفعال:

ـ آه يا طفلتي الجميلة.. ماذا تريدين مني وأنا لا أملك أي قوة الآن؟ وها أنا أخبرك..

فقالت "روزا" وهي تمد يديها ضارعة نحو السماء ثم نحو "كورنيليوس"

ـ سيدي ـ جئت أطلب منط معروفاً.. فقال لها السجين:

ـ لا تبكِ هكذا يا "روزا" إن دموعك تؤلمني أكثر من موتي القريب. أنت تعلمين أنه كلما كان السجين بريئاً كلما استقبل الموت بهدوء. وقد يكون بفرح لأنه سيموت شهيداً. هيا لا تبكِ. وقولي ما تريدين يا وردتي الجميلة.

وجثت الفتاة على ركبتيها وقالت: ـ أرجوك أن تسامح أبي. وقال "كورنيليوس" بدهشة: ـ أبوك؟

لقد كان قاسياً عليك ـ لكن هذه طبيعته فهو كذلك مع الجميع فلم يقسُ عليك بشكل خاص.

ـ أنا أغفر له كل شيء!

وقالت "روزا" شكراً جزيلاً ـ والآن قل لي هل أستطيع أن أقوم بشيء من أجلك؟!

فقال لها "كورنيليوس" وهو يبتسم ابتسامته المعهودة:

ـ جففي عينيك الجميلتين أولاً.. إن من لم يبق له سوى ساعة واحدة في الحياة من الترف أن يريد شيئاً. يا "روزا"

العزيـزة ــ وهـذا الكـاهن الـذي يحـرص عليـك؟ فقـال "كورنيليوس"

لقد عبدت الله ربي طيلة حياتي، عبدته في أعماله، وقدست إرادته وليس له علي أي شيء لذلك لا أريد كاهناً.. وآخر تفكير لي هو تمجيد ربي، وساعديني على إنجاز هذه الأفكار الأخيرة. وقالت الفتاة وهي غارقة بدموعها.

آه يا سيدي "كورنيليوس" تكلم أيضاً تكلم...

ـ هيا أعطني يدك وعديني أن تضحكي. وصاحت "روزا" بيأس:

ـ أضحك؟! أضحك في مثل هذا الوقت؟ حقاً إنك لم تعرفني يا سيد "كورنيليوس"

لقد رأيتك يا "روزا" لقد رأيتك وعرفتك بعيون الجسم، ورأيتك وعرفتك بعيون الروح: لا توجد امرأة أجمل.. ولا توجد روح أنقى قدمت إلي! لن أنظر إليك بعد الآن.. واعذريني فأنا على أبواب مفارقة الحياة. أتمنى أن لا أغادرها وهناك شيء آسف عليه. وارتجفت "روزا" والساعة تدق الحادية عشر في ساحة "بيتانهوف" وفهم

"كورنيليوس" وقال: نعم.. نعم لنسرع، أنت على حق يا "روزا" عندها أخرج من صدره ما خبأه فيه وقد أدرك أنهم لن يفتشوه بعد الآن، أخرج الورقة التي تحتوي الفصوص الثلاثة وقال:

يا صديقتي العزيزة ـ لقد أحببتُ الأزهار كثيراً عندما لم أكن أعرف أن هناك أشياء أخرى تُحب! لا تخجلي ولا تلتفتي يا "روزا" هل علي أن أقدم لك تصريحاً بالحب؟.. لن يكون لهذا نتيجة بالنسبة لك يا "روزا" المسكينة، فهناك في الأسفل، بعض من قصدير سيضع حداً لجرأتي خلال ستين دقيقة، إذن، لقد أحييت الأزهار يا "روزا" وعثرت أو اعتقدت أنني عثرت على سر الزنبقة السوداء الكبيرة مما كان يعتقد أنه مستحيل، وأنك قد تعرفين أو لا تعرفين أن هناك جائزة قدرها مئة ألف فلوران مقدمة من الجمعية الزراعية في "هارلم" إن هذه المئة ألف فلوران ويعلم الله أنني لست آسف عليها ـ في هذه الورقة تربحها هذه الفصوص الثلاثة التي تحتويها بإمكانك أن تأخذيها وأنا أقدمها لك.

ـ سيدي "كورنيليوس"

ـ بإمكانك أن تأخذيها يا "روزا" فأنت لم ترتكبي ذنباً مع أحد يا طفلتي، وأنا وحيد في هذه الحياة، لقد توفي أبي وأمي وليس لي أخ أو أخت، ولا أفكر بأن أحب أي شخص، وإذ فكر شخص بأن يحبني فأنا لا أعرف ذلك. وأنت تدركين ذلك يا "روزا" فأنا وحيد في هذه الساعة ليس إلاك الآن في غرفتي تساعديني وتواسيني..

ــ ولكن.. يا سيدي، مئة ألف فلوران.. فقال "كورنيليوس"

لنكن جادين يا "روزا" يا طفلتي، إن مئة ألف فلوران هي ستكون مهراً جيداً لجمالك. وستكون لك حتماً فأنا واثق من فصوصي. وستحصلين عليها يا "روزا" العزيزة. ولن أطلب منك مقابل ذلك شيئاً سوى أن تتزوجي شاباً شجاعاً يستحقك. يحبك وتحبينه بقدر ما أحببتُ الزهور. لا تقاطعيني يا "روزا" فلم يبق لي إلا دقائق قليلة وكادت الشابة أن تختنق بنشيجها وأمسك "كورنيليوس" يدها وتابع:

أصغ إلي، سأشرح لك كيف تتصرفين، خذي قطعة أرض من حديقتي في "دوردريخت" واطلبي من البستاني

هناك ويدعى "بترشيم" تربة من مسكبتي رقم -٦- تضعيها في صندوق عميق، وتزرعي فيها هذه الفصوص الثلاثة التي ستزهر في أيار القادم أي بعد سبعة أشهر وعندما تبدو الزهور فوق سويقها حاولي أن تحميها من الهواء في الليل، ومن الشمس في النهار، ستكون زهرة سوداء تماماً وأنا واثق من ذلك. عندها، أخبري بذلك رئيس جمعية الزارعين في "هارلم" فيتأكد من لونها مع أعضاء الجمعية، وينقدونك مئة ألف فلوران. وتنهدت "روزا" بعمق.

وقال "كورنيليوس" وهو يمسح دمعة راجعة من عينيها فهي تستحق هذه الزنبقة السوداء التي قدر له أن لا يراها بعد كل هذا التعب فيها في هذه الحياة التي عليه أن يغادرها الآن. أنا لا أطلب منك شيئاً سوى أن تسمي هذه الزنبقة "روزا كورلنيس" أي أن اسمها سيكون اسمي واسمك معاً.

وطالما أنك لا تعرفين اللغة اللاتينية وانك قد تنسين ما قلته لك حاولي أن تجدي لي قلماً وورقة لأكتبها لك.. وانخرطن "روزا" ببكاء شديد وقدمت له كتاباً ثميناً يحمل في أوله حرفي : ك،د.. أي كورنيل دوويت. وسأل السجين:

ما هذا؟

مع الأسف .. إنه لربيبك المسكين ـ لقد استخدم قوته المقدسة عندما كانوا يضربونه وعند النطق بالحكم، فلم يشحب له وجه. لقد وجدته في هذه الغرفة بعد موت الشهيد واحتفظت به كأثر مقدس، سأحضره لك لأنه يبدو لي أن فيه من القوة الإلهية ما قد تحتاج إليه، من قوة خصك الله بها ـ حمداً لله. اكتب يا سيدي ما تريد أن تكتبه مع كل الحب! وحزني أني لا أعرف القراءة وما تكتبه سينفذ كما تريد. وتناول "كورنيليوس" الكتاب المقدس وقبله باحترام وسأل:

بأي شيء سأكتب يا "روزا"؟ قالت:

هناك قلم في التوراة. لقد كتب به واحتفظت به، لقد كان قلم "جان دوويت" قدمه لأخيه ولم يفكر باستعادته. وأمسك "كورنيليوس" القلم وكتب على الصفحة الثانية وكما ذكر أن الصفحة الأولى منزوعة منه ـ لأنه وهو يدنو من الموت كانت يده أقل ثباتاً:

"نحن الآن في الثالث والعشرين من آب، وقبل أن أسلم روحي إلى بارئها على المشنقة ورغم براءتي أنقل إلى "روزا

غريغوس" الإرث الوحيد الذي بقي لي من كل أملاكي وثروتي في هذا العالم، فقد صادروا أملاكي الأخرى ـ أقول أنني أترك "لروزا غريغوس" ثلاثة فصوص! حسب قناعتي أنها ستعطي في أيار القادم الزنبقة السوداء الكبيرة موضوع جائزة "هارلم" وهي مئة ألف فلوران التي ستقدمها المؤسسة وأرجو أن تسلم هذه الجائزة إلى "روزا" بدلاً مني وبمكاني بما أنها وريثتي الوحيدة على أن تعمل لأن تتزوج شاباً له نفس عمري تقريباً يحبها وتحبه وأن تعطي للزنبقة السوداء العظيمة التي ستشكل صنفاً جديداً من الزنابق اسم "روزا برلنس" مما يعني اسمي واسمها مجتمعين وأرجو من الله أن يشملني برحمته، وأن يديم عليها صحتها" "كورنيليوس فان بيرل"

أعطى الورقة "لروزا" وقال لها اقرئي:

آسفة سيد "كورنيليوس" لقد ذكرت لك أنني لا أحسن القراءة. عندها تلا لها الورقة التي جاء على كتابتها. وتضاعف نشيج الفتاة وسألها وهو يبتسم ابتسامة حزينة ويقبل أطراف أناملها المرتجفة:

ـ هل توافقين على شروطي؟!

وغمغمت الفتاة: ـ آه يا سيدي.. لا أستطيع!!

ـ ولماذا لا تستطيعي يا طفلتي؟ لماذا؟

ـ لأن فيها شرط لا أستطيع تنفيذ.

ـ وما هو هذا الشرط؟ أظن أننا بحثنا كل شيء ونحن متفقان!

ـ إنك تهبني هذا المال كمهر لي!

ـ نعم

ـ لكي أتزوج شاباً يحبني وأحبه

ـ بلا شك

ـ لن تكون هذه الدراهم من نصيبي.. فأنا لن أحب ولن أتزوج. وبعد أن تفوهت بصعوبة كبرى بهذه الكلمات جثت على ركبتيها وأوشكت أن تفقد الوعي من شدة ألمها. وعندما رآها "كورنيليوس" غائبة عن الوعي شاحبة الوجه تكاد تموت كاد أن يضمها بين ذراعيه عندما سمع صوت خطى ثقيلة يتبعها صوت خطى أخرى فوق السلم وصوت نباح كلب. وقالت "روزا" وهي تدعك أصابعها بيدها.

- يا إلهي - لقد جاؤوا ليأخذوك - ألديك ما تقوله لي أيضاً؟ وركعت على ركبتيها ورأسها بين يديها يخنقها البكاء والعبرات.

أريد أن أقول لك أن تخبئي هذه الفصوص الثلاثة وتعتني بها حسب ما أمليته عليك من أجل حبي - الوداع يا "روزا" فقالت دون أن ترفع رأسها:

- نعم - آه - سأقوم بعمل كل ما قلته لي- إلا أن أتزوج - قالت ذلك بهمس: فهذا بالنسبة لي شيء يستحيل وأقسم على ذلك. ودفعت في صدرها الكنز الثمين.

وكان الصوت الذي سمعاه صوت كاتب المحكمة الذي جاء ليجلب لهم المتهم يتبعه منفذ الحكم وبعض الجنود المعدين لحماية المشنقة وبعض الفضوليين الذين يألفون منظر السجن. أما "كورنيليوس" فقد استقبلهم كأصدقاء بدون ضعف ولا تشدق وسمح لهم أن يأمروه بكل شروطهم لتنفيذ مهمتهم. وألقى نظرة من نافذة الغرفة الضيقة المحدودة. فشاهد بعد عشرين خطوة من المشنقة، لا يزال معلقاً معها بقايا الأخوين "دوويت". وعندما كان عليه أن يتبع الحرس بحث "كورنيليوس" بعينيه عن

نظـرات "روزا" الملائكيـة، ولكنـه بسـبب حمائـل سـيوف الحرس لم ير سوى جسداً مسجى بالقرب من مقعد خشبي ووجهاً شديد الشحوب اختفى نصفه تحت موجة من شعر طويل أشقر وقد هوت "روزا" بلا حراك ـ لكنها ولكي تنفذ رغبة صديقها ضغطت بيدها على صدر قميصها المخملي. ورغم أنها نسيت كل حياتها فقد استمرت تحمل الأمانة الثمينة التي أودعها إياها "كورنيليوس" وعندما غادر "كورنيليوس" غرفة السجن رأى بين الأصابع المتشنجة لروزا تلك الورقة الصفراء من كتاب التوراة التي كتب عليها "كورنيل دوويت" تلك الأسطر القليلة بكل الألم وبكل الصعوبة التي لو قرأها "كورنيليوس" لأنقذ رجلاً وأنقذ زنبقة.

الفصل الثاني عشر

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

تنفيذ الحكم

لم يبق سوى ثلاثمائة خطوة يمشيها خارج السجن ليصل إلى المشنقة.

في أسفل الدرج كان الكلب ينظر إليه وهو يسير بهدوء، ولاحظ "كورنيليوس" في نظرات الكلب نوعاً من التعبير اللطيف يكاد يقرب من الشفقة. قد يكون هذا الكلب يعرف المتهمين فلا يعض إلا الذين يخرجون أبرياء. ومن المعروف أنه كلما كانت الرحلة قصيرة من باب السجن إلى المشنقة كلما كانت الساحة تزدحم بالفضوليين والفضوليين أنفسهم الذين لم يرتووا من الدم الذي شربوه منذ ثلاثة أيام فهم الآن ينتظرون ضحية أخرى. ومن ثم فلم يكد "كورنيليوس" يبدو في الساحة

حتى أطلقوا زئيراً كبيراً تطاول واحتد في الشوارع وصب في الاتجاهات العديدة في كل الطرقات التي تؤدي إلى المشنقة وتزدحم بالجمهور. فبدت المشنقة كأنها جزيرة يضربها الموج من أربعة أو خمسة أنهار كبيرة، وفي وسط هذا الزئير وهذا الصياح وهذه الشتائم كان "كورنيليوس" مستغرقاً في تأملاته.. لم يسمع شيئاً. فلماذا يفكر..؟ هذا البريء الذي سيموت بعد قليل؟

لم يكن يفكر في أعدائه ولا في قضاته ولا في جلاديه، كان يفكر بالزنابق الجميلة التي سيراها في السماوات العلا ـ في سيلان أو البنغال ـ وهناك في الآخرة، سيكون جالساً مع كل الأبرياء إلى يمين الله سينظر إلى هذه الأرض برثاء، تلك الأرض التي أعدم فيها السيدين "دوويت" لأنهم فكروا كثيراً بالسياسة وسيقومون بإعدام "كورنيليوس" أيضاً لأنه فكر بالزنابق.. ويقول أحد الفلاسفة: "مجرد ضربة سيف ويبدأ حلمي الجميل يتحقق!؟ إلا أنه يجب أن نعرف فيما إذا كان السيد "شاليه" والسيد "دولو" وأناس آخرون قد قتلوا بضربة واحدة أو أنهم قتلوا بشكل سيء، فالجلاد لا يضرب إلا مرة واحدة! مما يعني أن هناك أكثر من استشهاد واحد

لعاشق الزنبق المسكين. ولم يصعد "فان بيرل" سلم المشنقة بقليل من الثقة بل صعد عليها فخوراً جريئاً فهو صديق ذلك الموظف الكبير "جان دوويت" وربيب ذلك النبيل "كورنيل" الذي تجمع الأشقياء لرؤيته فقاموا بتمزيقه وحرقه منذ ثلاثة أيام فقط. وركع وصلّى ولاحظ وهو يشعر بفرح غامر أنه عندما سيضع رأسه فوق النطع سيتطلع بعينيه المفتوحتين لآخر لحظة في حياته إلى النافذة المحددة في سجن "بيتانهوف" وأخيراً دقت الساعة الرهيبة التي سيتم العمل فيها ووضع "كورنيليوس" ذقنه على البلاطة الرطبة والباردة.. ولكن.. وأغمض عينيه في تلك اللحظة كي يستطيع أن يتحمل كل الشتائم المشؤومة التي ستسقط فوق رأسه وتبتلع حياته، ولمع برق على أرض المشنقة عندما رفع الجلاد سيفه، وقال "كورنيليوس" وداعاً إلى الزنبقة الكبرى، وهو متأكد أنه سيصحو بعد قليل ليقول: عم صباحاً يا ربي.. في عالم آخر تضيئه أنوار مغايرة وألوان أخرى. وشعر لمرات ثلاث بهواء السيف البارد قرب عنقه المرتجف. ولكن يا للمفاجأة.. لم يشعر بأي ألم أو بأي انتفاضة، ولم ير أي تغيير في الموقف وشعر فجأة أن

أحداً قد حمله بيدين رقيقتين لم يعرفهما من قبل ووجد نفسه واقفاً على قدميه المترنحتين.. وفتح عينيه من جديد..

كان بعضهم يقرأ قولاً بالقرب منه مكتوب على رق كبير وقد ختم بخاتم كبير من الشمع الأحمر! الشمس نفسها ـ شمس شاحبة تُناسب شمس هولندا تضيء في السماء النافذة المحددة نفسها تنظر إليه من أعالي "بيتانهوف" والناس الحقيرون لا يجأرون، بل يتأملون من الأعلى إلى الأسفل كل شيء وهم ذاهلون. وبعد أن فتح عينيه أخذ ينظر حوله ويستمع إلى القراءة. ففهم منها أن السيد "غليوم دورانج" خشي من أن تكون تلك السبعة عشر ليتراً من الدماء التي يحتويها جسده لن تجعل كأس العدالة تطفح، فأشفق على أخلاقه وعلى مظهره البريء فتفضل ومنحه الحياة ولهذا السبب فالسيف الذي ارتفع، وهذا البريق المشؤوم الذي تطاير ثلاث مرات هول رأسه ترك فقراته سليمة لذا لم يشعر بأي ألم ولم يكن هناك انتفاض. ولهذا أيضاً استمرت الشمس ضاحكة في الفضاء المعتدل. لكن "كورنيليوس" الذي آمن بالله وبكل المشاهد الزنبقية في العالم غدا محبطاً نوعاً ما. لكنه تعزى عندما أمسى عنقه يتحرك براحة وفقراته تلك

النوابض الذكية لهذا القسم من الجسد وقد أطلق عليه الرومان اسم "المقطع" وندعوها نحن الفرنسيون "العنق" بكل بساطة، لا تزال تتحرك براحة تامة.

وأمل "كورنيليوس" أن يكون هذا المعروف كاملاً، وأنهم سيعيدون له حريته فيعود إلى مساكبه في "دوردريخت" لكنه كان مخطئاً.. فقد كان قدره محتوماً كما تقول "مدام دوسيفينيه" في الأدب تعبير "ياست سكريبتوم" ما يعني تقريباً قدره المحتوم أو المكتوب مسبقاً. وبحكم هذا القرار، حكم "غليوم دورانج" حاكم هولندا على "كورنيليوس" بالسجن المؤبد، فجريمته أقل من أن يستحق الموت لكنها أكثر من أن يستحق الحرية.. وأصغى "كورنيليوس" إلى نص القرار وبعد أن أزال الإحباط كل ضيق سببه القرار قال "كورنيليوس": لا بأس فأنا لم أفقد كل شيء. فالسجن المؤبد له فوائده، فهناك "روزا" وهناك فصوص الزنبقة السوداء الثلاثة.. لكنه نسي أن هناك سجناً في كل ولاية من الولايات السبعة.. وأن هناك في الولايات الطعام أرخص ثمناً من "لاهاي" لأنها العاصمة. وعلى ما يبدو أن فخامته لا يريد أن يُطعمَ "فان بيرل" في "لاهاي" فأمر بإرساله ليقضي

سجنه في قلعة "لوفستان" القريبة من "دوردريخت" .. لكنها للأسف بعيدة جداً عنه.

و"لوفستان" كما يقول الجغرافيون تقع على قمة جزيرة شكلها مقابل "كوركوم وبونفلت" نهرا وال والموز ولا يعرف "كورنيليوس" أن السيد "غرونان" الشهير كان مسجوناً في هذا القصر بعد وفاة "براندليت" ومن باب الكرم تجاه ذلك الناشر الكبير والمستشار العدلي، والمؤرخ والشاعر وعالم اللاهوت، فقد خصص "غليوم دورانج" أربع وعشرين قرشاً هولندياً في اليوم ثمناً لإطعامه وقال "كورنيليوس" لنفسه: وأنا الذي ليس له قيمة "غرانيوس" سوف يقدمون لي اثني عشر قرشاً فقط وسأعيش بشكل سيء.. ولكن المهم أنني سأعيش.

وفجأة .. وكأن ذكريات سيئة عصفت به صاح "كورنيليوس"

آه تباً لهذه البلاد الرطبة والغائمة وتباً لتربتها فهي سيئة للزنابق وغمغم ومن ثم "روزا" "روزا" لن تكون في "لوفستان" وترك رأسه يتدلى فوق صدره رأسه الذي نجا من أن يسقط إلى أسفل من ذلك!!

الفصل الثالث عشر

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

ماذا كان يجري في فكر المشاهد في ذلك الوقت

بينما كان "كورنيليوس" يفكر بهذا الشكل اقتربت عربة من المشنقة، كانت العربة للسجين ودعوه ليستقلها فأطاع، وألقى نظرة أخيرة نحو "بيتانهوف" يأمل أن يرى في النافذة وجه "روزا" وقد تعزت. لكن والعربة يجرها حصانان قويان انطلقت به بعد قليل وسط الهتاف الصاخب للجماهير تحيةً لهذا الحاكم الرحيم هتاف امتزج مع بعض السباب للأخوين "دوويت" وربيبهما "فان بيرل" الذي نجا من الموت. ومن حسن الحظ أننا على عجل فأن ننصف هذا الموظف الكبير "جان دوويت" وهذا "الكورنيل" الغير المدلل ولو وجدت رحمة لدى فخامته لانتزعهما من الموت كما اقتلعت هذا الأخير.

ومن بين كل الجماهير التي شدها إعدام "فان بيرل" إلى بيتانهوف الطريقة التي تحولت فيها الأمور إلى الشكل الذي عرفناه كانت الأمور مخيبة نوعاً ما وأكثر الخائبين هم بعض من البرجوازيين يرتدون ثياباً نظيفة، يسعون منذ الصباح الباكر بأيديهم وأرجلهم ليكونوا قريبين جداً من آلة التعذيب. وبدا أن بعضاً منهم لا يزال متعطشاً لرؤية دماء "كورنيليوس" المجرم، لكن لم يستطع أحد منهم أن يعبِّر عن هذه الرغبة المشؤومة مثل اللهفة التي شعر بها البورجوازي، موضوع حديثنا ـ الذي حضر مع إطلالة الفجر إلى ساحة "بيتانهوف" كي يحصل على مكان ممتاز. لذا كان هذا البورجوازي أكثر الغاضبين، فقد قضى ليلة كاملة أمام عتبة السجن حتى وصل إلى الصف الأول وهو يدفع البعض ويصدم البعض الآخر من الجمهور، وعندما نقل الجلاد متهمه إلى المشنقة صعد البورجوازي على حافة نبع الماء كي يتمكن من الرؤية بشكل أفضل ولكي يُرى هو بشكل جيد. وأشار إلى الجلاد إشارة تعني: - لقد اتفقنا! أليس كذلك؟ ورد الجلاد إليه إشارة تعني: - كن مطمئناً .. فمن هو ذلك

البورجوازي؟ الذي يبدو صديقاً للجلاد؟ وماذا تعني هذه الإشارات المتبادلة؟

من الطبيعي جداً.. أن يكون هذا البورجوازي هو السيد "إيزاك بوكسل" وهو كما نعرف "عاد إلى لاهاي" منذ أن توقف "فان بيرل" آملاً أن يحصل على فصوص الزنبقة السوداء الثلاثة. أراد "بوكسل" في بادئ الأمر أن يشرك "غريغوس" في اهتماماته، ولكن هذا الأخير كان قد تعلم من كلبه الأقطم معنى الوفاء والحذر وضربات الأنياب ــ لذلك فقد رفض أسلوب حقد "بوكسل" وضغينته. فاستبعد "بوكسل" عن الحقيقة وراح يسأله عن أشياء عادية مؤكداً أن سيستفيد منها في معرفة أسلوب ما يتخلص به من السجين.

كان أول عرض قدمه "بوكسل" إلى "غريغوس" أن يختلس له الفصوص الثلاثة التي يخبئها في صدره أو على الأقل في إحدى زوايا غرفة السجن. أما "غريغوس" فقد رد عليه بالطرد مع بعض المداعبات من كلب الدرج.. لكن "بوكسل" لم ييأس وقد تمزق بنطاله وبقيت قطعة منه في فم الكلب بل عاد إلى المهمة متحمساً ليجد "غريغوس" طريح الفراش مصاباً بالحمى ومكسور الذراع فلم يوافق

على العرض وعلى مقدمه. فغيَّر "بوكسل" اتجاهه والتفت نحو "روزا" وهو يعرض على الشابة تاجاً مرصعاً بالذهب الخالص مقابل الفصوص الثلاثة. لهذا ورغم أن هذه البنت النبيلة لم تعرف القيمة الحقيقية لهذه السرقة التي يعرضون عليها القيام بها، ولا ذلك العرض المثير والثمن المرتفع أرجعت الأمر إلى الجلاد فهو عدا أنه القاضي الأخير فهو الوريث الوحيد للمحكوم. وخلق هذا الرفض فكرة جديدة في نفس "بوكسل" إذ أن الحكم قد نطق به حاسماً وعجولاً. فتوقفت الفكرة التي أوحت له "روزا" بها. وانطلق إلى الجلاد. كان "بوكسل" متأكداً أن "كورنيليوس" لن يموت وفصوصه فوق قلبه، لكن هناك شيئان غابا عن فكر "بوكسل":

"روزا" أو بمعنى آخر الحب. والثاني غليوم .. والعفو.. ولولا هذا الشيئان لكانت حسابات هذا الحسود صحيحة. لتقل إذن أن "بوكسل" راح يتعامل مع الجلاد على أساس أنه صديق حميم للمحكوم، فهناك حلي من ذهب وفضة تركها للجلاد واشترى "بوكسل" كافة ثياب المتوفى مستقبلاً بسعر مرتفع نسبياً وهو مئة فلوران، لكن.. ما قيمة مئة فلوران بالنسبة لمبلغ سيحصل عليه من جمعية

"هارلم"؟ إنه يقرض هذه الدراهم بفائدة واحد بالألف مما يؤمن له مبلغاً محترماً للاستثمار. ولم يكن على الجلاد أن يقوم بشيء لكي يكسب مئة فلوران سوى أن يسمح للسيد "بوكسل" بعد انتهاء التنفيذ أن يصعد للمشنقة مع الخدم لكي يستلم بقايا صديقه الثابتة. وكان هذا الأمر كثيراً ما يحدث مع الأوفياء إذا مات أحد أصحابهم على مشنقة بيتانهوف، ومن السهولة بمكان أن يعثر "كورنيليوس" على رجل متدين مثله يدفع مئة فلوران ليحصل على بقاياه وهكذا قبل الجلاد العرض ولم يضع إلا شرطاً واحداً هو الدفع سلفاً. ولم يكون "بوكسل" مسروراً بهذا الشرط. مثل كل الرجال الذين يدخلون حوانيت المعارض فيكونون غير مسرورين ويدفعون الدراهم وهم خارجون. لذا فقد قبل أن يدفع المبلغ سلفاً وبقي ينتظر! لنحكم إذن على "بوكسل" كم كان ثائراً ومنفعلاً عندما كان يراقب الحرس وكاتب المحكمة ومنفذ الحكم والحركات التي كان "فان بيرل" يقوم بها. فكان يقلقه أن يراه كيف سيقف على البلاط وكيف سيسقط وهل ستتكسر الفصوص الثمينة أثناء سقوطه، وهل اهتم بأن يضعها في علبة من الذهب؟ فالذهب هو

أقسى المعادن وأصلبها، ونحن لا نقبل أن نصف الأثر الذي حدث لدى هذا القاتل الوقور بسبب قرار منع تنفيذ الحكم.!! لماذا يضيع الجلاد وقته حاملاً سيفه يدور به فوق رأس "كورنيليوس" بدلاً من أن يقطعه به؟! لكنه، وقد رأى كاتب المحكمة يأخذ بيد المحكوم ويرفعه ويخرج من جيبه نصاً مكتوباً ويقرأ النص عن العفو الذي منحه الحاكم للمحكوم!.

لم يعد "بوكسل" إنساناً .. كان غضب النمر والأفعى والضبع يبرق في عينيه!! وفي صياحه وفي حركاته.. ولو كان "فان بيرل" تحت قدمه في ذلك الوقت لانقض عليه وقتله! وهكذا كتبت الحياة من جديد "لفان بيرل" ولكن في "لوفستان" وهناك في "لوفستان" سيأخذ معه الفصوص الثلاثة فقد يجد هناك حديقة يمكن أن يستنبت فيها الزنبقة السوداء.

"ومن المؤسف أن ريشة أي كاتب مسكين لا تستطيع أن تصف ما حدث بل سنترك الأمر لخيال القاري لسهولة هذا العمل"

سقط "بوكسل" من طوله مغشياً عليه فوق بعض الأورانجيين الغاضبين مثله من انقلاب الوضع بهذا الشكل. وظن البعض أن هذا الصراخ الذي أطلقه "بوكسل" كان صياح الفرح فأخذوا يلكمونه بقبضات أيديهم وقبضات الفريق الآخر، تلك اللكمات لن تضيف شيئاً إلى الألم النفسي الذي يشعر به "بوكسل" وأراد عندها أن يعدو خلف العربة التي تقل "كورنيليوس" وفصوصه، ولكن لشدة اضطرابه تعثر بحجر لم يره في الطريق وفقد توازنه وتدحرج على بعد عشر خطوات فنهض متعثراً ومجرحاً وسارت جماهير "لاهاي" السيئة فوق ظهره. وغدا "بوكسل" في ظروف سيئة جداً وسط البؤس والشقاء، ثيابه مخزقة، وظهره محطم، ويداه وارمتان. "وإذا ظننا أن هذا يكفي مما أصاب "بوكسل" فنحن مخطئون، فقد عاد ليقف على قدميه وأخذ يشد شعر رأسه ليقتلعه ويرميه في محرقة تلك القوة الوحشية التي تخلو من الإحساس والتي تدعى (الحسد) فهي هدية لطيفة بدون شك إلى تلك الإلاهة التي تزين رأسها بالأفاعي كما تقول الأساطير!!

الفصل الرابع عشر

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

حمائم "دوردريخت"

وكانت سعادة "كورنيليوس" كبيرة إذ قدمت له نفس الغرفة التي كان فيها العالم الكبير السيد "غرانيوس" ليسكن فيها. وعندما وصل إلى السجن استقبله رجل أكبر منه وكان ينتظره وصدفت أن كانت الغرفة التي سكنها "بارنفلت" الشهير فارغة في "لوفستان" عندما أرسلت رحمة "غليوم دورانج" إليها زارع الزنبق "فان بيرل".. كان لهذه الغرفة سمعة سيئة في القصر منذ أن اختبأ "غرانيوس" في صندوق الكتب وقد نسوا أن يزوروه حسب ما اعتقدت زوجته وأوحى لها خيالها وأوهامها.

ومن جهة أخرى بدا للغرفة فألاً حسناً بالنسبة "لفان بيرل" إذ أن هذه الغرفة التي قدمت ليسكن بها فهو في

النهاية يفكر شخصياً لا يسمح لحمامة ثانية أن تسكن في القفص الذي طارت منه الحمامة الأولى.. فالغرفة تاريخية.. ولن نتعب أنفسنا بذكر تفاصيلها إلا غرفة المنامة تلك التي استعملتها السيدة "غروتيوس" فهي إحدى غرف السجن كبقية الغرف إلا أنها أكثر ارتفاعاً نوعاً ما وتمتاز بنافذة محددة تطل على مشهد رائع والهدف من قصتنا ليس في وضعها من الداخل فقط فالحياة بالنسبة "لفان بيرل" ليست جهاز تنفس فقط. فالسجين المسكين يحب خلاف جهازه الرئوي شيئين آخرين: إذ من الآن فصاعداً سوف يسمح لنفسه الرحالة الطليقة أن تؤمن له منابع الإبداع ـ وهذا الشيئان هما ـ امرأة وزهرة، لا يضيع أي واحدة منهما. لكن "فان بيرل" كان مخطئاً فاللّه الذي ألقى عليه وهو يصعد المشنقة نظرة أب حنون، ادخر له وسط سجنه وفي غرفة السيد "غروتيوس" وجوداً مغامراً لم يحظ أي زارع زنبق بجزء منه. وفي صباح أحد الأيام وهو يتنشق نسيم الصباح العليل القادم من نهري "الوال والموز" ويتأمل في الأفق البعيد وخلف غابة من مداخن البيوت وطواحين الهواء في "دوردريخت" وطنه رأى سراباً من الحمائم في هذه النقطة من الأفق يجثم وهو يرتجف على

شجرة صنوبر باسقة في "لوفستان" فقال في نفسه: إن هذه الحمائم قدمت من "دوردريخت" وتستطيع العودة إليها حتماً، فلو استطاع أحدهم أن يعلق كلمة في جناح أحدها قد يساعده الحظ في إيصال أخباره إلى هناك حيث لا يزالون يبكونه. وبعد فترة تأمل صاح "فان بيرل": إن هذا "الأحدهم" هو أنا. وعلى المرء أن يكون صبوراً عندما يكون له من العمر ثمان وعشرون عاماً محكوماً بالسجن المؤبد. مما يعني أن ذلك يعادل اثنين وعشرين أو ثلاثٍ وعشرين ألفاً من الأيام في السجن. وبينما كان "فان بيرل" يفكر في فصوصه الثلاثة ذلك الفكر الذي لا يزال ينبض في صدره ومن خلا تفكيره هذا صنع شركاً للحمام، وأغرى هؤلاء الطيور بكل مصادر غذائه وهو (ثمانية عشر قرشاً في هولندا وخمسة عشر قرشاً في فرنسا).

وبعد ما يقرب من الشهر في محاولات غير مجدية ـ أمسك حمامة أنثى ـ وبعد شهرين آخرين أمسك ذكراً. ووضعهما مع بعضهما. وفي أوائل عام ١٦٧٥ حصل على بيوض للحمائم. فأطلق "فان بيرل" سراح الأنثى فطارت وقد أمنت أن يحضن زوجها البيوض بدلاً منها. وانطلقت بكل

الفرح نحو "دورردريخت" تحمل رسالة تحت جناحها، وظلت البطاقة تغدو وتروح معها خمسة عشر يوماً وقد سيطرت الخيبة على "فان بيرل" ثم استولى عليه اليأس، وفي اليوم السادس عشر عادت الحمامة لا تحمل البطاقة. وكان "فان بيرل" قد وجه البطاقة إلى مربيته العجوز وتمنى على النفوس الخيرة والكبيرة أن من يعثر عليها يوصلها إليها بأسرع وقت ممكن. ومع هذه الرسالة إلى مربيته وضع بطاقة صغيرة إلى "روزا".

إن الله الذي أرسل مع نفحاته الطيبة بضعة حبات من نبات "فجل الجبل" وجعلها تزهر على جدران القصور القديمة ببضع قطرات من المطر، هو الذي أتاح للمربية أن تحصل على الرسالة، وغليكم كيف كان ذلك:

عندما غادر السيد "بوكسل" إلى "لاهاي" ومن "لاهاي" إلى "كوريكوم" ترك .. ليس بيته فقط ولا خادمه فقط ولا مرقبه، ولا منظاره، لكن حمائمه أيضاً. وبدأ الخادم وقد تركه صاحبه بدون دخل ولم يتعهد له بشيء يأكل من الحمائم. عندها أخذت الحمائم تهاجر من سطح "بوكسل" إلى سطح "فان بيرل" وكانت المربية طيبة القلب وتحتاج دائماً إلى شيء تحبه فتصادفت مع الحمائم

التي جاءت إليها تطلب حسن الضيافة. وعندما طالب الخادم بالحمامات بعد أن أكل منها اثني عشر واحدة أراد أن يأكل الباقين عندها عرضت عليه أن تشتريها بستة قروش للطير الواحد. وهو مبلغ يساوي ضعف ثمن الطير في السوق. لذا قَبِل الخادم العرض بفرح وسرور. وغدت المربية الصاحبة الشرعية لحمائم الحسود "بوكسل" وكانت هذه الحمائم هي التي تتجول فتزور "لاهاي" و"لوفستان" "وروتردام" باحثة عن نوع آخر من القمح ونبات الشادق بطعم مختلف..

هو اللّه .. الذي نراه في قلب كل شيء، هو اللّه الذي جعل "كورنيليوس" يأخذ واحدة من هذه الحمائم. والخلاصة أن هذا الحسود لو لم يغادر "دوردريخت" ليلحق بخصمه إلى "لاهاي" ثم إلى "كوريكوم" وإلى "لوفستان" ولو لم يكن المكانان متباعدين ويفصل بينهما مصب نهر "الوال" في نهر "الموز" لوقعت الرسالة بين يديه وليس بين يدي المربية تلك الرسالة التي كتبها السجين ولكان مثل غراب ذلك الحذاء الروماني.. ولضاع جهده ووقته بدون جدوى، وبدلاً من أن نكتب الأحداث الملونة التي ستجري مثل سجادة بألف لون ولون والتي ستجري تحت قلمنا

لكـان علينـا أن نُعـد مجموعـة مـن أيـام شـاحبة وحزينـة كرداء الليل الأسود. إذن، فالبطاقة وقعت بين يدي المربية. وفي الأيام الأولى من شهر شباط عندما تهبط من السماء، ساعات المساء مخلفة وراءها تلك النجوم الوليدة، سمع "كورنيليوس" على درجات البرج صوتاً جعله ينتفض من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، ويضع يده على قلبه وأصغى. كان ذلك صوت "روزا" الموسيقي العذب. ولنعترف أن "فان بيرل" لم يضطرب من المفاجأة.. فلقد كان أكثر دهشة وفرحاً بقصة الحمامة إذ أعادت له الأمل تحت جنحها الفارغ ومع رسالتها الأمل.. فكان ينتظر كل يوم لو عادت البطاقة إليه.. أخباراً عن حبه وعن فصوصه.

ونهض وهو يصغي وانحنى باتجاه مصدر الصوت.. نعم كانت اللهجة نفسها والنغمة نفسها التي أثارته بكل عذوبتها في "لاهاي". ولكن "روزا" وقد قامت برحلة من "لاهاي" إلى "لوفستان" لم يعرف كيف نجحت في الدخول إلى السجن، فهل ستتوصل إلى الدخول إلى السجين..؟

وبينما كان "كورنيليوس" يربط فكرة بفكرة في هذا المجال برغبة وقلق فتحت الطاقة الموجودة في باب غرفته الضيقة وبدت "روزا" متألقة من الفرح. وقد زانها

شحوب وجهها وقد امتقع من الهم والقلق منذ خمسة شهور. فألصقت وجهها على حديد النافذة وقالت:

آه يا "كورنيليوس"! يا سيدي! ها أنذا! وبسط "كورنيليوس" ذراعيه وتطلع إلى السماء وأطلق صيحة فرح وقال: ـ "روزا" يا "روزا" آه

فقالت الفتاة:

ـ لنتكلم بصوت منخفض فإن والدي يتبعني..

أبوك؟.. إنه هناك في الباحة، في أسفل السلم.. لقد أخذ أمره من الحكومة وسوف يصعد..

ـ أوامر من الحكومة؟؟

أصغ إلي، سأحاول أن أطلعك على كل شيء بكلمتين. إن للحاكم مزرعة تبعد ميلاً واحداً عن "لييد" مزرعة ألبان ليس إلا. ومربيته هي عمتي تقوم بتربية كل الحيوانات الموجودة هناك ومنذ أن استلمت رسالتك التي لم أستطع أن أقرأها وقرأتها لي مربيتك.. أسرعت إلى عمتي وبقيت عندها إلى أن جاء الأمير إلى المزرعة وطلبت منه عندها أن يبدل عمل والدي من حامل مفاتيح إلى

سجان في قلعة "لوفستان" ولم يشك في غرضي من ذلك فوافق.. ولو عرفه لرفض.

- ولهذا أنت هنا أمامي

- كما ترى!!

- ولهذا سأراك كل يوم.

- في أغلب الأحيان قدر ما استطيع. فقال "كورنيليوس"

آه يا "روزا" يا سيدتي، هل تحبينني قليلاً؟ فصاحت:

- قليلاً؟! أنت قنوع جداً يا سيدي!

ومد "كورنيليوس" يده بكل الشوق الذي يختزنه والتصقت أصابعهما بين الحديد.

وقالت الفتاة:

- ها هو أبي.

وغادرت "روزا" مسرعة وانطلقت نحو العجوز "غريغوس" الذي ظهر في أعلى السلم.

الفصل الخامس عشر

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

النافذة

كان الكلب يسير خلف "غريغوس" يقوم معه بدورة على المساجين ليعرفهم عند الضرورة وقالت "روزا" ـ يا أبي هذه غرفة "غرانيوس" التي هرب منها.

- نعم نعم هذا المدلل "غرانيوس" صديق الحاكم "برانغلت" الذي حضرت عملية إعدامه عندما كنت صغيراً ـ آه "غروتيوس" هرب من هذا الغرفة لكن لن يهرب منها أحد من بعده. وفي الظلام بدأ يلقي المحاضرة للسجين ـ أما الكلب فراح يشمشم ربلة ساق السجين وكأنه يسأله: كيف حدث ولم تمت؟ وبأي أمر كان ذلك؟ وقد رآه يخرج من السجن بين كاتب المحكمة والجلاد!!

لكـــن "روزا" الجميلـــة نادتـــه فأســـرع إليهـــا. وقـــال "غريغوس" وهو يرفع مصباحه للأعلى ليوسع دائـرة الضـوء حوله. وقال:

ـ إنـني سـجانك الجديـد فأنـا الـرئيس حامـل المفـاتيح وجميـع الغـرف تحـت إشـرافي ومـراقبتي.. أنـا لسـت شـريراً لكني صـارم في مجـال تطبيـق النظـام. فقـال السـجين وقـد وقــع في دائــرة الضــوء: ـــ لكــني أعرفــك جيــداً ســيد "غريغوس"

ـ هـذا صـحيح.. يـا اللّه.. أنـت "فـان بيـرل" كـم يتلاقـى الإنسان!!

فقال السجين:

ـ يلتقـي بك بكـل سـرور سـيد "غريغـوس" العزيـز، أرى أن يدك رائعـة وأنـت تحمـل بهـا المصـباح بشـكل جيـد ورف "غريغوس" بعينيه وقال:

ـ هـذا مـا حـدث! كـثيراً مـا يخطـئ العـاملون بالسياسـة ـ لقد منحك فخامته الحياة ولو كنت مكانه لما فعلت ذلـك وصاح "كورنيليوس":

ـ ولماذا إذن؟

لأنـك رجـل قـد تتـآمر عليـه مـن جديـد وأنـتم العلمـاء تتعاملون مع الشيطان. وقال "كورنيليوس" وهو يضحك:

هكـذا إذن سـيد "غريغـوس" ألم تكـن مسـروراً مـن إعـادة يـدك إلى وضعها الطبيعـي ومـن الـثمن الـذي طلبتـه منك؟ وصاح "غريغوس" متذمراً.

ـ آه.. لا.. لقد أعدتها بشكل جيد جداً كما لـو كـان في ذلـك شـيء مـن السـحر! وقـد اسـتعملتها مـن جديـد بعـد سـتة أسـابيع فقـط كمـا لـو لم يحـدث لهـا طـارئ. وهنـاك بعض الأطباء.. هناك طبيب ماهر أراد أن يكسرها لي مـن جديد كـي يعيدها إلى قواعدها. وقال لـي أنـني لـن أعـود إلى استعمالها إلا بعد ثلاثة أشهر..

ـ ورفضت أنت ذلك..

ـ لقد قلت لـه لا.. فطالما أسـتطيع أن أرسـم بهـا علامـة الصليب فأنا أسخر من الشيطان

أنـت علـى حـق يـا "غريغـوس" هـل عليـك أن تسـخر مـن العلماء من بعد اليوم؟!

وقال "غريغوس" دون أن يحاول الرد على السؤال:

- العلمـاء .. آه العلمـاء! كـم أفضـل أن أقـوم بحراسـة عشرة جنـود على عـالم واحـد! فـالجنود يشـربون، يـدخنون ويسـكرون فيصبحون وديعـين كـالأغنـام عنـدما يقـدم لهم الخمر أو أي مسـكر آخـر. أمـا العـالم فهـو يـدخن ويشـرب حقـاً لـكنـه صـابر ويتحمـل فـلا ينفـق شـيئاً ويبقـى رأسـه صاحياً لـكي يستطيع أن يتآمر.. وأقول لـك.. إن هـذا الأمـر لـن يكـون سـهلاً عليـك فـلا كتـب ولا أوراق، ولا كتـب سـحر.. لأن السـيد "غرانيـوس" تمكـن مـن الهـرب بسـبب الكتب.

فقال "كورنيليوس" "

أطمئنـك يـا سـيد "غريغـوس" أن أي فكـرة عـن الهـرب لم تخطر لي بل ولم تراودني. فقال "غريغوس":

ـ حسناً حسناً حافظ على نفسك وسأحرص عليك ولـو أن فخامته قد ارتكب خطأ كبيراً

ــ بأنـه لم يسـمح بقطـع رأسـي يـا سـيد "غريغـوس" شكراً لك، شكراً لك.

ـــ بـدون شـك. ألا تـرى أن السـيدين "دوويـت" قـد استراحوا؟!

وقال "فان بيرل" وقد أدار وجهه ليداري تقززه من هذا الحديث!

ـ إن ما تقوله رهيب يا سيد "غريغوس" هل نسيت أن أحدهما صديقي والآخر بمثابة أب لي؟

ـ أعرف ذلك واعرف أنهما كانا متآمرين ومن ثم فأنا أقول ذلك من باب الإنسانية..

ـ آه..أحقاً ما تقول؟ اشرح لي ذلك فأنا لم أفهم..

ـ نعم.. إنك لو بقيت فوق بلاط المشنقة أمام السيد "هاربروك"

ـ وماذا؟

ـ ماذا؟ لا تتعذب طويلاً.. بينما فأنا لا أخفيك أنني سأجعل حياتك جحيماً لا يطاق.

أشكر لك هذا الوعد سيد "غريغوس" وبينما كان السجين يبتسم للسجان بسخرية كانت "روزا" ترد عليه بابتسامة من خلف الباب، ابتسامة تحمل فيضاً من مواساة ملائكية.. ومشى "غريغوس" نحو النافذة. كان الوقت لا يزال نهاراً يكفي لرؤية أفق واسع يضيع وسط ضباب رمادي. وسأل السجان:

ماذا يمكن أن يكون المشهد من هنا؟ ورد "كورنيليوس" وهو ينظر إلى "روزا"

مشهد رائع الجمال.

نعم نعم فهنا العديد من المشاهد.. وفي هذا الوقت أثار منظر السجان الغريب وصوته الأجش الرعب في قلب الحمامتين فخرجتا من العش وانطلقتا فزعتين وغابا بالضباب. وسأل السجان:

ـ ما هذا؟

ورد "كورنيليوس":

ـ إنها حمائمي.

وقال السجان:

حمائمي، حمائمي! هل يمتلك السجين شيئاً خاصاً له.

ورد "كورنيليوس":

إنها إذن الحمائم التي أعارني الله إياها. ورد "غريغوس":

ما هذا الهراء أيها الشاب؟ إني أحذرك! سوف أطهو هذه الحمائم في قدري وليس أبعد من الغد. فقال "فان بيرل":

ـ عليك أولاً أن تقبض عليها وإن لم ترد أن تكون لي فهي ليست لك أيضاً. وأقسم لك أنها ليست لي. وتذمر "غريغوس"

لا ينتهي شيء إذا تأجل. وليس أبعد من غد فسأقصف رقابها. وبينما كان "غريغوس" يُعد الوعد المشؤوم انحنى نحو الخارج ليعاين مقاطع العش مما أتاح لـ"كورنيليوس" أنه ينطلق إلى الباب ويشد على يد "روزا" التي قالت له:

إلى اللقاء مساء غدٍ الساعة التاسعة. ولم ير "غريغوس" شيئاً ولم يسمع شيئاً ، إذ كان مهتماً بأن يأخذ الحمائم صباح اليوم الثاني. ومن ثم أغلق النافذة ودفع المزلاج وأدار القفل مرتين ثم خرج ليطلق وعوداً مشابهة لسجناء آخرين.

ولم يكد "غريغوس" يخرج حتى اقترب "كورنيليوس" من الباب يصغي إلى خطاه التي تبتعد.. وعندما غاب الصوت أسرع إلى النافذة وخرب عش الحمام من أساسه. كان يفضل أن يطردها من أمامه إلى الأبد على أن

يعرضها للخطر هذه الرسل اللطيفة التي يدين لها برؤية "روزا" من جديد. ولم يستطع "كورنيليوس" أن ينسَ أن "روزا" إلى جانبه رغم زيارة السجان هذه وتهديداته الوحشية وآفاق مراقبته فوجود "روزا" إلى جانبه أنعش قلبه من جديد وأخذ ينتظر دقات ساعة "لوفستان" بفارغ الصبر إذ أن "روزا" قالت:

- انتظرني عند التاسعة

كانت آخر دقة من الساعة البرونزية لا تزال تموج بالهواء عندما سمع "كورنيليوس" صوت خطوات "روزا" الخفيفة الحلوة الجميلة وحفيف ثوبها المتماوج.

وبعد قليل أضيء حاجز الباب وقد علق "كورنيليوس" عينيه عليه بشوق. وفتحت النافذة نحو الخارج وقالت "روزا" وهي لا تزال تلهث من صعودها الدرج:

- ها أنا ذا!!

- آه يا روزا الطيبة!

- هل أنت مسرور لرؤيتي؟

أتسأليني؟ قولي كيف تمكنت من الوصول إلي؟ قولي!

أصغ إلـي ـ إن والـدي ينـام كـل يـوم بعـد أن يتنـاول عشاءه ويشعر بالدوار قليلاً بسبب خمرة العرعر.. فأرقده ـ لا تذكر ذلك لأحد. إذ بفضل نومه هذا أستطيع أن أحضر إليك لأتحدث ساعة معك!

آه شكراً لك ـ شكراً يا "روزا" العزيزة .. قال هذا وهو يدنو بوجهه من النافذة التي أبعدت "روزا" وجهها عنها وقالت:

لقد أحضرت لك فصوص الزنبقة السوداء الثلاثة. وقفز قلب "كورنيليوس" في صدره فهو لم يجرؤ بعد أن يسأل "روزا" عما فعلته بالكنز الثمين الذي أودعه عندها.

ـ آه لقد حافظت عليها!!

ـ ألم تعطنيها على أساس أنها غالية عليك جداً؟!

ـ نعم.. لكن طالما أعطيتها لك.. فقد غدوت تملكينها!

كانت ستصبح لي بعد موتك.. وطالما أنت حي.. ويا لسعادتي! طالما باركت فخامته وتمنيت أن يمنح الله "غليوم دورانج" كل البركات التي تمنيتها له، وان يصبح أسعد رجل ليس في مملكته فقط وإنما أسعد رجل على

وجه الأرض. وأقول أنت حي!! والحمد لله. عندما كنت أنظر إلى ورقة التوراة لأبيك "كورنيل" قررت أن أعيد إليك فصوصك الثلاثة لم أكن أدر ماذا سأفعل! قررت أن أذهب إلى الحكومة لأطلب أن تضع والدي مكان السجان في "كوريكوم" بعد أن وصلت إلي رسالتك مع مربيتك.. كم بكينا معاً وطال بنا البكاء وأكدت رسالتك قراري فذهبت إلى "لييد" وأنت تعلم الباقي. فقال "كورنيليوس":

"روزا" الغالية. كيف كنت تفكرين بلقائي قبل أن تصلك رسالتي!؟

وتخلت "روزا" عن حذرها وقال: كنت أفكر بذلك دائماً؟ ولا أفكر إلا بهذا الموضوع وغدت "روزا" رائعة الجمال وهي تتفوه بكلمات الحب هذه، وأرخى "كورنيليوس" جبينه وفمه يتدليان فوق قضبان الحديد.. مما يعني الشكر الكبير "لروزا" وتراجعت "روزا" عن النافذة كالسابق وقالت:

في الحقيقة أنني أسفت.. وطالما أسفت لأنني لا أعرف القراءة ولكن لم آسف أبداً مثل ذلك اليوم الذي جلبت

مربيتك لي رسالتك الغالية.. فكانت رسالة تتحدث مع الآخرين لكنها بكماء معي لسوء الحظ! قال "كورنيليوس":

تقولين أنك طالما أسفت لعدم معرفتك القراءة.. ففي أي المناسبات كان ذلك؟!

فقال الفتاة وهي تضحك: ـ أسفت لرسائل حب كانت تردني.

ـ إذن كانت تصلك رسائل يا "روزا"؟

ـ نعم.. وبالمئات

ـ من كان يكتب لك؟

من يكتبها؟ كان الطلاب في أول الأمر ثم الذين يأتون إلى "بيتانهوف" والمواطنون الذين يأتون إلى الساحة والمتهمين وحتى الباعة الذين يرونني من نافذتي الصغيرة.

وماذا كنت تفعلين بهذه البطاقات؟ وردت "روزا":

في بادئ الأمر كنت أستقرئها لبعض الصديقات وكان ذلك يسرني كثيراً. ولكن منذ بعض الوقت فكرت بأن هذا مضيعة للوقت وانه حماقات. وقال "كورنيليوس" وأفكاره تضطرب حباً وفرحاً، واحمر وجه

"روزا" وغضت بصرها فلم تر شفتي "كورنيليوس" يلتقيان بحديد النافذة ويرسلا رغم الحاجز أنفاساً حارة إلى شفتي الفتاة كقبلة لا حدود لشوقها.

وعلى وهج هذا اللهب الذي أحرق شفتيها شحب لونها شحوباً لم يشهد مثله حتى في "بيتانهوف" وأرسلت تنهيدة حارة.. وأغمضت عينيها ثم انطلقت تعدو محاولة أن تمنع بيدها هذا الخفقان الشديد في قلبها.

وعندما غدا "كورنيليوس" وحيداً عاد ليسترجع ويتنشق الرائحة العطرة لشعر "روزا" قد عالقة بين أوراق الدالية القريبة!

لكن "روزا" التي انطلقت بسرعة كبيرة نسيت أن تعطي "كورنيليوس" الفصوص الثلاثة للزنبقة السوداء.

الفصل السادس عشر

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الأستاذ والتلميذ

كان ذلك الرجل "غريغوس" وقد رأيناه ـ بعيداً كل البعد عن مشاركته ابنته بالنوايا الطيبة بالنسبة لربيب "كورنيل دوويت" فلم يكن عند إلا خمسة سجناء لمراقبتهم في "لوفستان" لذا لم تكن مهمته صعبة، فلم يكن السجان إلا كوظيفة بلا عمل منحت له بسبب هرمه. ولكنه كسجان ماهر وضخم قام بتلك الوظيفة بكل طاقة مخيلته. أما "كورنيليوس" فقد نال النصيب الأوفى من مجرم من الدرجة الأولى، لذا غدا "كورنيليوس" أخطر سجين عنده. فكان يراقب حركاته وسكناته ويأتي إليه بوجه مشحون بالغضب، ويحمله تبعة العصيان لهذا الرئيس الرحيم، فيدخل غرفته ثلاث مرات في اليوم متوقعاً أن يجده مرتكباً ذنباً. فكان "فان بيرل"

لا يتصل به فالاتصال هو من رغبة السجان. ويفضل لهذا السجين أنه لو نال حريته كاملة وأتيح له أن يذهب حيث شاء، أن يكون في السجن مع فصوصه ومع "روزا" على أي مكان آخر ليس فيه فصوص ولا "روزا" وبالفعل، في تمام الساعة التاسعة وكما وعدت "روزا" أن تحضر لتتحدث مع الحبيب وقد لاحظنا من المساء الأول أنها كانت عند كلامها. وفي اليوم التالي صعدت "روزا" كالأمس بنفس سحرها وحذرها لكنها قررت أن تدنو أكثر من الحاجز كي تنهمك بجدية بحديثها مع "فان بيرل" ومدت له من خلال الحاجز فصوصه الثلاثة المغلفة دائماً بنفس الورقة. ولدهشة "روزا" دفع "فان بيرل" يدها بطرف أصابعه ليبقي الفصوص في يدها وفكر الشاب وقال:

أصغ إلي: إننا نتعرض لكثير من المخاطر كما أظن، وعلينا أن لا نضع ثروتنا في كيس واحد. فكري! أن الأمر الذي لا يزال يُظن أنه مستحيل، وهو أن نجعل الزنبقة السوداء تزهر، لنأخذ كل حيطتنا حتى إذا فشلنا لا نلوم أنفسنا على شيء وإليك ما فكرت به بغية الحصول على أملنا المنشود. وأعارت "روزا" كل انتباهها إلى ما سيقوله السجين، ليس من أجل الأهمية التي يعلقها زارع الزنبق

المسكين ولكن من اجل أهمية أخرى ترتبط بها شخصياً. وتابع "كورنيليوس" إليك ما فكرت به من أجل تعاوننا في هذا العمل الهام. وقالت:

- كلي آذان صاغية

- هل يوجد عندك في هذه القلعة حديقة صغيرة أو مساحة من أرض مهما تكن أو أي قطعة أرض.. فقالت:

- عندنا هنا، حديقة رائعة تمتد على طول مجرى نهر "وال" ملأى بأشجار معمرة.

- هل يمكنك يا "روزا" الغالية أن تحضري لي بعضاً من تربة هذه الحديقة لأفحصها؟

- من الغد!

- تأخذين قليلاً منها في الظل، وقليلاً منها في الشمس لأعرف منهما شروط الجفاف والرطوبة

- كن مطمئناً

سأختار التربة المناسبة وأعدلُها إذا لزم الأمر. لأجعل منها ثلاث حصص لثلاثة فصوص، فتأخذين واحداً منها تقومين بزرعه في يوم أحدده لك وتربة أختارها. وستزهر حتماً إذا تعهدتها بالرعاية طبقاً لتعليمات أعطيكها..

ـ لن ابتعد عنها دقيقة واحدة

وتعطيني فصاً آخر أزرعه هنا في غرفتي مما يساعدني على قضاء أيام طويلة لا أراك فيها. واعترف لك أن هذا شر لكنه تضحية من أجلي ستزورني الشمس أحياناً وسأستغل كل شيء حتى من رماد سيجاري وحرارته، وأخيراً ومن باب الحيطة تحتفظين بالفص الثالث كأمل أخير. لو فقدنا الفص الأول والثاني. وبهذه الطريقة يا عزيزتي لا يمكن إلا أن نحصل على جائزة مئة ألف فلوران، مهرنا. لنؤمن لنا السعادة القصوى من نجاح عملنا. وقالت "روزا":

ـ نعم ـ لقد فهمت. سأجلب بك في الغد ما طلبته لتختار لي ولك منه وسأحتاج لذلك عدة رحلات لأنني لا أستطيع أن أحفر في كل مرة إلا كمية قليلة

ـ آه يا "روزا" العزيزة لسنا على عجلة من أمرنا وعلينا أن لا نقوم بزرعها قبل شهر على الأقل أتلاحظين؟ لدينا الوقت الكافي ومن أجل أن تزرعي فصك عليك أن تتبعي تعليماتي بدقة.

نعم أعدك بهذا! وبعد أن تزرعيها تعلميني عن كل ظروف تلميذتنا التي نربيها، مثلاً التغيرات الجوية، علامات المحراث، علامات المساكب، تصغين في الليل إذا جاء أحد القطط لزيارتها، ومن قبْلُ خرّب لي اثنان منها كل مساكبي في "دوردريخت"

ـ أنا مصغية إليك ..

ـ هل عندك مناظر في الليالي المقمرة تطلين منها على الحديقة؟

ـ إن غرفة نومي تطل عليها!

حسناً، راقبي إذاً إذا خرج من ثقوب الجدران بعض الجرذان، فالجرذان قوارض رهيبة جداً. وقد تعرفت على زارع زنبق أنحى باللائمة على سيدنا "نوح" لأنه حمل في سفينته زوجاً منها

ـ سأراقب فيما إذا كان هناك قطط أو جرذان

وتابع "كورنيليوس" وقد غزا الشك قلبه منذ أن كان في السجن

ـ هناك عدو آخر أشد خطراً من أي حيوان آخر

ـ ما هو هذا الحيوان؟

إنه الإنسان يا "روزا" أتدركين يا عزيزتي أنه إذا رأى "فلوران" واحد يعرض نفسه للسجن والأشغال الشاقة من أجل هذا الموضوع التافه، فكيف إذا سرق فصوص زنبقة تساوي مئة ألف "فلوران"؟

- لن يدخل أحد إلى الحديقة سواي؟

- هل تعديني بذلك؟

- أقسم لك عليه..

حسناً "روزا" وشكراً يا "روزا" الغالية إن كل الخير لا يأتيني إلا من قبلك!

واقتربت شفتا "فان بيرل" من الحاجز وقد دنت ساعة الرحيل فأبعدت "روزا" رأسها ومدت يدها التي اهتمت بها بشكل خاص، ففي هذه اليد الجميلة هناك فص الزنبقة السوداء، وقبّل "فان بيرل" أطراف أصابع هذه اليد بشوق كبير.

فهل كان ذلك لأن هذه اليد تحمل فص الزنبقة السوداء العظيمة أم لأنها كانت يد "روزا"؟! هذا ما سنترك معرفته لأناس أكثر فهماً منا. وانسحبت "روزا" وهي تحمل الفصين الآخرين وتضمهما إلى صدرها. فهل ضمتها لأنها

فصـــوص الزنبقـــة الســـوداء أم لأنهـــا جاءتهـــا مـــن "كورنيليوس"؟ هذه النقطة هي الأصح ويمكـن تأكيـدها أكثر من السؤال السابق. ومهما يكـن مـن أمـر فإنـه ومنـذ هذا الوقت غدت حياة "كورنيليوس" غنية وأكثر عذوبـة، وأعطته "روزا" واحداً من الفصوص الثلاثة.

وصـارت "روزا" تنقـل إليـه كـل يـوم قبضـة وراء قبضـة مـن تـراب الحديقـة الـتي وجـدها الأفضـل. وبالفعـل كـانـت تربـة رائعـة.. كـان في غرفتـه جـرة عريضـة القعـر قـام بكسـرها بدقـة ومهـارة وجعـل منهـا عمقـاً مناسـباً مـلأه بـالتراب حتـى منتصفه بعـد أن قـام بخلطـه بشـيء مـن وحل النهر بعد أن جففه وجعل منه تربة قاسية مناسبة. ونقول أن "كورنيليـوس" اسـتغل كـل اهتماماتـه واعتنائـه ومهارتـه ليخفي عن "غريغوس" فرحه بأعماله. ولكنه لم يستطع أن يضـيف إلى الـزمن سـاعة واحـدة هـي قـرن طويـل مـن الأحاسيس والأفكار بالنسبة لسجين فيلسوف. ولم يكـن يمضـي يـوم واحـد دون أن تحضـر "روزا" للتحـدث مـع "كورنيليـوس" مهمـا تكـن أهميـة المواضيع الأخـرى فلـم يسـتطيعا أن يتعرضـا لحـديث آخـر. كـانـا يتحـدثان عـن أشياء أخرى غير الزنبق ودهش عندما لاحظ اتساع دائـرة

الحديث! فقد اعتادت "روزا" أن تبعد وجهها بضعة أصابع عن حديد النافذة فالفتاة الجميلة غدت حذرة بدون شك منذ أن شعرت ومن خلال الحديد بأنفاس السجين الملتهبة التي يمكن أن تحرق قلب كل فتاة شابة. وفي نفس الوقت فإن زارع الزنبق قلقاً على فصوصه إذ ما إن تفكيره يعود إليها بلا انقطاع، وتلك العلاقة التي كانت بين "روزا" وأبيها. "فان بيرل" الطبيب، العالم، الفنان، الرسام، المثير للإعجاب، المتميز والأول وكانت لديه كل الإمكانات لأن يكتشف سر النموذج الأعلى للخلق كما يدعونها، وكان هذا سابق لأوانه إذ أنهم وقفوا عند تسميتها "روزا برلنيس" مسبقاً.

هناك حياة تفضل حياة ـ إذ أن سعادة هذا الرجل ترتبط بأبسط رغبة من رجل آخر ذو نفسية دنيا ومن طبقة تافهة، كان سجاناً سيئاً أقل ذكاء من القفل الذي يغلقه والمزلاج الذي يشده، هو نوع من صوت العاصفة، والحلقة المفقودة بين الإنسان والبهائم. كانت سعادة "فان بيرل" ترتبط بهذا الإنسان، الذي قد يضجر ذات يوم في "لوفستان" ويجد فيه مناخاً سيئاً أو أن خمر العرعر الذي يشربه لم يعد يروق له فيترك القلعة ويأخذ معه ابنته

"روزا". فالله الذي تعب من كثرة ما أحسن لمخلوقاته يجعلهما لا يلتقيان أبداً.

وقال "كورنيليوس" لفتاته:

ـ ما فائدة الحمائم المسافرة يا "روزا" إذا كنت لا تحسنين القراءة؟ فلا تعرفين ما سأكتبه لك أو تكتبين إلي ما فيه تفكرين! وردت "روزا" وهي تخشى الفراق بقدر ما يخشاه:

ـ إن لدينا كل مساء ساعة من الوقت، فلنحسن استخدامها.

وقال "كورنيليوس":

ـ نحن لا نستخدمها بشكل سيء. فقالت "روزا" وهي تبتسم:

ـ لنستخدمها بشكل أفضل، علمني القراءة والكتابة وسوف أستفيد من دروسك ولن نفترق بعدها أبداً إلا بإرادتنا. وصاح "كورنيليوس"

أمامنا الخلود إذن يا "روزا" العزيزة! ابتسمت "روزا" وهزت كتفيها برفق وسألت: هل ستبقى في السجن إلى الأبد؟ بعد أن منحك فخامته الحياة فهل سيمنحك الحرية؟

هـل سـتعود إلى أملاكـك وتغـدو أكثـر ثـراءً. وتـأنف إن مـررت علـى حصـانك أو في عربتـك أن تنظـر إلى "روزا" الصغيرة ابنة السجان، وتقريباً ابنة الجلاد؟

أراد "كورنيليوس" أن يعترض! وحتماً سيقوم بذلك من كل قلبه المفعم بالحب وقاطعته "روزا" وهي تبتسم:

ـ كيـف حـال زنبقتـك؟ والحـديث عـن الزنبقـة كـان وسيلة "روزا" لتتسيه كل شيء حتى "روزا" نفسها فقال:

لا بـأس بهـا ـ إن قشـرتها تسـود وبـدأت عمليـة التخمـر وأوردة الفص تدفأ وتكبر وخلال ثمانية أيام حتى قبل ذلك علينا أن نشاهد نتوءات البراعم.

ـ وكيف زنبقك أنت؟

لقـد قمـت بـأمور عظيمـة حسـب تعليماتـك وقـال "كورنيليوس" بعينين ثاقبتين!

ـ هيا يا "روزا" قولي ماذا صنعت. كانت أنفاسه تتردد كالليلـة السـابقة حيـث ألهبـت عينـاه وجـه "روزا" كمـا أشعلت أنفاسه قلبها!

وقالت الفتاة وهي تبتسم ولا تستطيع أن تمنع نفسها من التفكير بهذا الحب المزدوج في قلب هذا السجن.. حبه لها وللزنبقة السوداء.

لقد قمت بأشياء كثيرة ـ هيأت مربعاً فارغاً رطباً أكثر منه جاف، ليس فيه أي قطعة من حجر أو حصاة وأعددت المسكبة كما وصفتها لي.

أحسنت يا "روزا" أحسنت!

إن الأرض وقد سويتها بهذا الشكل لا تنتظر سوى قرارك في يوم جميل تأمرني فيه أن أزرع الفص الذي معي. وأنت تعلم أنه علي أن أتأخر عنك في زراعته فعندي كل إمكانات الريح الطيبة والشمس وغزارة النسغ الأرضي. وصاح "كورنيليوس" وهو يضم يديه إلى بعضهما.

صحيح أنك طالبة مجدة، ستحصلين على مئة ألف فلوران. وقالت "روزا" وهي تضحك.

لا تنسى أن طالبتك ـ وقد دعوتني هكذا.. عليها أن تتعلم أشياء أخرى غير زراعة الزنبق.

ـ نعم نعم ـ أنا مهتم مثلك بهذا الأمر وأريدك أن تتعلمي القراءة والكتابة.

ـ متى نبدأ؟

ـ الآن

ـ لا في الغد!

ـ ولماذا في الغد؟

ـ لأن ساعتنا اليوم قد انقضت وعلى أن أغادر!

باكراً! ولكن بأي كتاب سنقرأ؟

ـ آه.. لدي كتاب.. كتاب آمل أن يجلب لك السعادة.

ـ إذن.. إلى اللقاء غداً

ــ وفي الغد ــ عادت "روزا" ومعها كتاب "التوراة" "لكورنيل دوويت"

الفصل السابع عشر

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الفص الأول

وعادت "روزا" مساءً كما ذكرنا ومعها "توراة" "كورنيل دوويت" وبدأت عندها بين المعلم والتلميذ تلك المشاهد الرائعة.. تلك المشاهد التي تفرح الكاتب ويشعر بالسعادة وهي تجري تحت قلمه. وكانت النافذة تلك الكوة الوحيدة التي تشكل التواصل الوحيد بين الحبيبين. وكانت من الارتفاع بحيث تكفي الواحد أن يقرأ في وجه الآخر كل ما يريد أن يقوله له. ويستطيعان القراءة بسهولة في كتاب أحضرته "روزا" معها والخلاصة أن الفتاة كانت تستند إلى النافذة ورأسها محني والكتاب على مستوى نور القنديل الذي تحمله بيدها اليمنى. وارتأى "كورنيليوس" أن يربط القنديل إلى شبك الحديد كي ترتاح يدها قليلاً وبعدها.. استطاعت "روزا"

أن تتـــابع بأصـــابعها الأحـــرف والمقـــاطع علـــى الكتـــاب المقدس، فكان "كورنيليوس" يهجيها لها ممسكاً بقطعة من القش. كمؤشر يشير به من خلال الحديد إلى الأحـرف لطالبتـه المنتبهـة. كـان ضـوء القنـديل يـنير ألـوان "روزا" الغنية، مقلتين زرقاوين وجدائل شقراء، قبعة من الذهب الأسمر، وهي كما ذكرنا زينة الشابة الجميلة، الواجدة. كانـت أصـابعها ترتفـع في الهـواء فيلـوح فيهـا لـون الـدم الأحمـر لتأخـذ ذلـك اللـون الشـاحب الزهـري، فيتـألق مـع الضـوء معلنـاً عـن تلـك الحيـاة العجيبـة الـتي لا تـزال تتجـول تحت جمودنا.

وكـان ذكـاء "روزا" العجيـب يتطـور بشـكل سـريع باحتكاكه المباشر مع فكـر "كورنيليـوس" فـإذا صـادفا أي صعوبة تلتقي عيونهما مع بعضها فتزهـر تلـك الرمـوش، وينـتج مـن احتكـاكهـا شـرارات كهربائيـة قـادرة علـى أن تضيء عتمة الغباء. فإذا عادت لغرفتها تسترجع في فكـرها ولوحـدهـا درس القـراءة وفي روحهـا دروس الحـب المكتـوم. وفي إحدى الأمسيات تأخرت نصف ساعة عن موعدها مما كان خطـراً كـبيراً بالنسـبة "لكورنيليـوس" فهو لا يعـرف ما الذي أخرها. وبادرته الفتاة قائلة.

أرجو أن لا تعنفني، لم يكن الأمر بيدي، لقد تعرف أبي في "لوفستان" على رجل كان يحضر لعنده في "لاهاي" ويطلب منه أن يريه السجين. إنه شيطان، صديق القارورة يروي قصصاً مرحة ويدفع عن سعة فلا يتأخر في دفع ما يجب عليه. وسألها "كورنيليوس" بدهشة: هل تعرفينه من قبل؟

لا أبداً.. منذ خمسة عشر يوماً فوجئ والدي بالزائر الجديد الذي يصر على مقابلته وصاح "كورنيليوس" وهو يهز رأسه بقلق: إذ أن كل حدث جديد يوحي له بكارثة مثل أولئك الجواسيس الذين يرسلهم الحكام إلى القلاع ليراقبوا السجناء وحراسهم. وقالت "روزا" وهي تبتسم:

ـ لا أظن ذلك! إن هذا الشخص يرصد شيئاً آخر غير والدي.

ـ من هو هذا الشخص يا ترى؟

قد يكون "أنا". وقال "كورنيليوس":

أنت؟ وقالت؟ روزا" وهي تبتسم:

لم لا؟ فقال "كورنيليوس" وهو يتنهد:

ـ حقاً.. أليس هناك من يطلبك يا "روزا"؟ قد يغدو هذا الرجل زوجاً لك!.

ـ لا أقول لا

ـ وعلى أي أساس تؤكدين هذا الفرح؟

بل بالأحرى هذا الخوف!

شكراً "روزا" لهذه الخشية!

ـ أساسها هذا..

تابعي يا "روزا" أنا مصغ إليك!

لقد جاء هذا الرجل عدة مرات إلى "بيتانهوف" في "لاهاي" منذ أن سجنت فيه تماماً، يخرج إذا خرجت ويعود إذا عدت. كان يدعي أنه يريد أن يراك.

ـ رؤيتي أنا؟

نعم إنها حجته حتماً، واليوم يستطيع أن يتذرع بنفس الحجة، طالما أنك غدوت تحت مراقبة أبي السجان. فقد عاد أبي ليصبح سجان من جديد. إنه لم يتعرض لك أبداً وقد سمعته أمس يقول لأبي أنه لا يعرفك

ـ تابعي يا "روزا" لكي أستطيع أن أحدس من هـو هـذا الشخص، وماذا يريد!

هل أنت واثق يا سيد "كونيليوس" أن ليس هناك من يهتم بك من أصدقائك؟

ـ ليس لي أصدقاء أصلاً.. وليس لي إلا مربيتي وأنت تعرفينها وتعرفك، فلو كانت هي فلن تحتال لذلك ولأتت مباشرة للتوسل إليك أو لأبيك:

وتقول سيدي العزيز أو آنستي العزيزة إن ولدي عندكم هنا ـ كم أنا بائسة دعيني آراه ساعة واحدة فقط وسأدعو الله طيلة حياتي. وتابع "كورنيليوس" ليس لي أصدقاء سوى مربيتي ـ لا أصدقاء لي.

لنعد إلى ما كنت أفكر فيه، فالبارحة عند غروب الشمس كنت أرتب المسكبة التي أنوي أن أزرع الفص فيها، فرأيت ظلاً من الباب الوارب ينزلق خلف أشجار البيلسان والجوز.. لم أتظاهر بأنني رأيته.. كان رجلنا ـ واختبأ وقد رآني أحرك التربة. لقد كان يتبعني لقد كنت أنا من يرصده. توقفت عن ضرب الأرض بالمشاط، ولم

أمسك قبضة من التراب كي لا أثير انتباهه. فقال "كورنيليوس":

إنه حتماً أحد محبيك هل هو شاب وجميل؟ وألقى نظرة على "روزا" منتظراً ردها بفارغ الصبر. وقالت "روزا" وهي تنفجر بالضحك:

ـ إنه عجوز قبيح المنظر محني الظهر يتجاوز الخمسين من عمره ولا يجرؤ أن ينظر إلي أو يحدثني.

ـ وما هو اسمه؟

ـ اسمه: جاكوب سيزيل

ـ أنا لا أعرف شخصاً بهذا الاسم

ـ أرأيت؟ إنه لم يحضر إلى هنا من أجلك.

على كل حال ـ لو كان يحبك ـ كما هو ممكن ـ إذ أن كل من يراك لا بد أن يحبك. وأنت ألا تحبينه؟

ـ حتماً .. لا

ـ هل تريدين أن تطمأنيني؟

ـ أتعهـد إليـك بـذلك.. إذن والآن وقـد بـدأت تـتعلمين القراءة ستقرئين كل ما أكتبه لك عن عذاب الغيرة وآلام الفراق أليس كذلك؟

سوف أقرأ إن كتبت لي بأحرف كبيرة.. وعندما تغير نمط الحديث بدأ القلق يستولي على "روزا" وقالت:

بالمناسبة! كيف حال زنبقتك أنت؟

"روزا" تخيلي فرحتي ـ لقد أخذت صباح اليوم أتأملها على ضوء الشمس فأزحت عنها بلطف طبقة التراب التي تغطي الفص ورأيت رأس النبتة الأولى آه يا "روزا" لقد ذاب قلبي فرحاً بهذا البرعم الذي لا يكاد يُرى والذي يجرحه جناح ذبابة لو مر فوقه.. إنه احتمال للخلق ـ يكشف عن نفسه بإشارة لا تدرك! مما جعلني أضطرب وأتأثر كما الأمر الذي أصدره فخامته والذي جعلني أعود للحياة، عندما أوقف فأس الجلاد على مشنقة "بيتانهوف" وسألته "روزا" وهي تبتسم:

ـ هل تحلم وعندك أمل!

ـ نعم عندي أمل كبير.

ـ سأكون كذلك عندما أزرع زنبقتي

سأقول لك أن تزرعيها في اليوم المناسب، المهم أن لا تدعي أحداً يساعدك، ولا تعطي سرك لأحد.. حبيبك مثلاً.. إذ أنه إذا راقب هذا الفص يصبح قادراً أن يدرك قيمته الحقيقية. واحرصي جيداً على الفص الثالث الذي بقي عندك.

إنه لا يزال في الورقة التي وضعته فيها وكما أعطيتنيه، سيد "كورنيليوس" مختبئاً في أعماق خزانتي وتحت ما أزين به رأسي وزلازلي ليبقى جافاً .. وداعاً أيها السجين المسكين

- لا يزال الوقت مبكراً..

- يجب علي أن أذهب

- أتيت متأخرة وتغادرين مبكرة!

قد ينفذ صبر والدي إن لم أعد.. وظن العاشق أن هناك منافس له! وأصاغت "روزا" السمع فسألها "فان بيرل": ماذا هناك؟

- يبدو أنني سمعت..

- ماذا سمعت؟

ـ سمعت صوت خطى تصعد فوق بلاط الدرج.. فقال السجين:

حقاً.. هناك صوت. صوت آخر غير صوت والدك. فصوته يُسمع من بعيد.

ـ نعم.. إنه ليس أبي.. أنا واثقة من ذلك. ولكن.. قد يكون السيد "جاكوب" وانطلقت "روزا" مسرعة نحو الدرج ويُسمع صوت باب يغلق قبل أن تصل "روزا" إلى العشر درجات الأخيرة من الدرج، وبقي "كورنيليوس" وقد استولى عليه القلق.

كان الحادث بالنسبة له مقدمة لما سيخطط له القدر من عمل سيء، فمن النادر أن لا يحذر القدر ضحيته من باب الإحسان، كما يقوم المبارز بإعلام خصمه عن المبارزة ويعطيه فرصة ليكون على أهبة الاستعداد. وبشكل دائم ينتج عن غريزة الإنسان أو عن تعقيدات النفس اللاشعورية أشياء غبية مبهمة، تنطلق في الفضاء ثم تعود لتنصب على رأس من كانت مهيئة لإنذاره.. فكان عليه أن يحتاط بعد أن حذرناه. ومضى اليوم الثاني دون حادث، منذ قام "غريغوس" بثلاث زيارات للسجين لكنه

لم يعثر على شيء وكان "كورنيليوس" يسمع صوت خطى السجان عندما يحضر لعله يجد سراً عند سجينه فكان يغير أوقات حضوره فلا يوجد في نفس الساعة. وابتكر "كورنيليوس" طريقة لجرته تشبه ما كانوا يستعملونه سابقاً عند إنزال أكياس القمح في المزارع. فكان ينزلها من تحت كتل القرميد أولاً ثم من تحت الأحجار المكدسة فوق نافذته. أما الخيط الذي استعمله لهذا الغرض فقد نجح بتغطيته بنوع من الطحالب التي تنو على سطح القرميد أو بين الأحجار فلم يستطع "غريغوس" أن يكتشف شيئاً. وبقي هذا الوضع ثمانية أيام.

وفي صباح أحد الأيام وكان "كورنيليوس" مستغرقاً في تأملاته ينظر إلى فصه الذي برزت منه نقطة الإنبات فلم يسمع صوت خطى العجوز "غريغوس" إذ كانت الريح قوية وكل شيء يصطك بالبرج. وفتح الباب فجأة ودخل "غريغوس" وفاجأ "كورنيليوس" والجرة في حضنه، وعندما شاهد معه شيئاً غريباً ـ وهذا ممنوع في السجن ـ انقض "غريغوس" على هذا الشيء الغريب بأسرع من بازي ينقض على فريسته .. كانت الصدفة، ولنقل أن ذلك الذكاء المشؤوم الذي تمنحه النفوس السيئة إلى الأشرار،

جعلت يده الضخمة المعقدة تنغرز وسط الجرة تماماً على منطقة التراب الذي ترقد فيه البصلة الثمينة، تلك اليد الذي كُسرت ذات يوم والتي أعادها "فان بيرل" إلى مكانها بأقصى سرعة ممكنة وصاح به:

ماذا يوجد لديك هنا؟ لقد ضبطتك، وغرس يده في التراب وصاح "كورنيليوس" وهو يرتجف: أنا .. أبداً.. لا شيء هنا..

لقد ضبطتك: جرة، تراب، هناك سر مجرم بداخلها. وتوسل "كورنيليوس" توسل حجلة جاء الصياد يقبض على فراخها:

يا عزيزي "غريغوس"

وبدأ "غريغوس" يحفر التراب بأصابعه المعقوفة، وصاح "كورنيليوس" وقد شحب وجهه

- احذر.. احذر يا سيدي

- أحذر! ماذا أحذر؟

إنك ستقتلها.. وبحركة اختطف الجرة من يد السجان وخبأها بين ذراعيه كما لو كانت كنزاً.. لكن "غريغوس" العنيد وصلب الرأس كأي عجوز ازداد اقتناعه

بأنـه اكتشـف مـؤامرة ضـد الأمـير "أورانـج" أسـرع خلـف سجينه وقد رفع عصاه عندما رأى السجين يحاول حماية زهرته. وقد شعر أنه خشي على الزهرة أكثر من خشيته على رأسه. عندما حاول أن ينتزعها منه بالقوة. وصاح به بغضب شديد:

ـ إنك تريد أن تؤجج ثورة.. وصاح "كورنيليوس"

ـ أرجوك دع لي زنبقتي! وصاح العجوز:

ـ زنبقة! زنبقة! أنا أعرف حيل السجينين "دوويت"

ولكن.. أقسم لك.. وتابع "غريغوس" وهو يدق الأرض بقدميه: دعها.. دعها.. أو أنادي الحرس!

نادي من شئت فلن تأخذها إلا مع روحي! وفرغ صبر "غريغوس" فغرس يده ثابتة في التراب وسحب هذه المرة البصلة السوداء. واعتقد "فان بيرل" أنه نجا بجرته لم يخطر له أن "غريغوس" أخذ محتواها وقذف بالفص الغض بعنف شديد فارتطم على البلاط ثم هرسه حذاء السجان الضخم. وشاهد "كورنيليوس" المذبحة ورأى بقاياه الرطبة، وأحس بذلك الفرح المفترس للسجان ـ فأطلق صيحة يأس قوية أشعلت الرحمة في قلب السجان القاتل.

وخطرت له فكرة قتل هذا الرجل الشرير كالبرق في رأس السجين زارع الزنبق وصعد الدم والنار إلى وجنتيه فرفع الجرة الثقيلة بين يديه بما فيها من تراب، غدا عديم الفائدة وقبل أن يتركها تسقط على رأس السجان الخالي من الشعر، أوقفته صرخة أخرى، صرخة تفيض بالدمع والقلق، صرخة أطلقتها "روزا" الشاحبة من خلف الحاجز، كانت ترتجف وقد رفعت يديها إلى السماء، وتقف بين يدي والدها وصديقه، وتخلى "كورنيليوس" عن جرته وتركها تسقط على الأرض وتحطمت إلى آلاف القطع محدثة صوتاً مرعباً. عندها أدرك "غريغوس" الخطر الذي يتهدده وأضمر نوايا تهديدات سيئة "لفان بيرل" الذي قال له: أنت رجل جبان وفظ كي تحرم سجيناً مسكيناً من تسليته الوحيدة "بصلة زنبق"

- وأيضاً إنها جريمة ارتكبتها يا أبي.

وصاح "غريغوس" وهو يلتفت نحو ابنته يغلي غضباً وثورة.

ـ أهذا أنت يا بلهاء؟ اهتمي بما يخصك فقط وانزلي من هنا بأسرع وقت. وقال "كورنيليوس" يا للتعاسة! وأضاف "غريغوس" وهو يشعر بالخجل!

بعد كل شيء إنها ليس سوى زنبقة! نعطيك قدر ما تريد من الزنابق. فلدي منها ثلاثمائة في حظيرتي. وصاح "كورنيليوس": لتذهب زنابقك إلى الشيطان! إنك تستحقها وهي تستحقك. لو كان لدي مئة مليار واحدة لأعطيها مقابل الزنبقة التي حطمتها. وصاح "غريغوس" وقد شعر بنشوة الظفر ـ هكذا ـ أنت ترى أن التعامل إذن ليس بالزنبق. فزنبقتك فيها نوع من السحر للتواصل مع أعداء فخامته الذي طالتك رحمته.. وأعود لأقول: لقد أخطأ إذ لم يقطع رأسك! وصاحت "روزا" ــ آه يا أبي! صاح "غريغوس" مضطرباً:

حسناً حسناً.. كان علي أن أخربها، لقد فعلت! وسأكرر ذلك مئة مرة آه يا صديقي العزيز.. لقد أنذرتك أنني سأجعل حياتك هنا جحيماً لا يطاق وصاح "كورنيليوس" يائساً وهو يجمع بأصابع مرتجفة بقايا الفص الذي كان سبب الأمل والفرح. وقالت "روزا" بصوت منخفض وقد أدركت مدى الألم الذي أصابه فقالت هذه

الكلمات العذبة بنفس طيبة وقعت كقطرة من بلسم على جرح "كورنيليوس" الدامي:

ـ سوف نزرع الفص الثاني غداً!.

الفصل الثامن عشر

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

عاشق "روزا"

لم تكد "روزا" تتفوه بكلمات العزاء هذه حتى سمع صوت على الدرج يتساءل عما حدث.

فقالت "روزا" ـ هل تسمع يا أبي؟

ماذا؟

السيد "جاكوب" يناديك ـ إنه قلق، فقال "غريغوس" :

لقد أحدثنا الكثير من الصخب.. قد يُظن أن هذا العالم قتلني ـ كم يلاقي الإنسان من العذاب مع العلماء. وأشار "لروزا" على الدرج وصاح بها.

هيا، سيري أمامي! وأغلق الباب على السجين وقال:

أنا قادم إليك سيد "جاكوب" وذهب "غريغوس" ومعه "روزا" وخلّفا "كورنيليوس" المسكين مع آلامه المرة ــ

وغمغم: أنت من قتلني أيها الجلاد.. لن أعيش بعد الآن وبالفعل فقد مرض السجين.. ولا معين له إلا العناية الإلهية التي وضعت في طريق حياته بنت تدعى "روزا". وعادت إليه في المساء: وكانت الكلمات الأولى له هي أن والدها لا يمانع في ان يزرع الأزهار فقال لها بلهجة غير الواثق:

- وكيف عرفت ذلك؟

- عرفته لأنه قال لي..

- قد يريد أن يخدعني..!

- لا إنه نادم على ما بدر منه.

- نادم؟ نعم لكن بعد فوات الأوان.

- وهذا الندم ليس من نفسه

- كيف جاءه إذن؟

- أنت لا تعرف كم عنّفه وأنّبه صاحبه

ـ آه.. السيد "جاكوب" إنه لا يفارقك أبداً هذا "الجاكوب"

إنه يتركنا أقل فترة ممكنة. وابتسمت له ابتسامة جعلت سحابة الغيرة التي غشيت وجهه تتلاشى وسألها السجين:

ـ حسناً وكيف حدث ذلك؟

سأله صاحبه، فحكى له والدي على العشاء قصة الزنبقة، وما حدث عندما قام بهرسها. وتنهد "كورنيليوس" تنهدة كالأنين وتابعت "روزا":

آه لو رأيته في ذلك الوقت، ظننت أن سيشعل النار في القلعة غدت عيناه قنديلين متأججين، وتجعد شعر رأسه وتشنجت قبضته لحظة حسبت فيها أنه سيقوم بخنق والدي وهو يقول:

ـ هل فعلت ذلك؟ هل حطمت الفص؟ ورد والدي:

ـ بلا شك، وتابع "جاكوب"

هذا عمل شائن ـ هذا معيب، لقد ارتكبت جريمة. وذهل والدي وسأله:

ـ هل أنت مجنون أيضاً؟ وغمغم "كورنيليوس" يا له من رجل طيب هذا "الجاكوب" إن له قلب شريف وروح متميزة. وأضافت "روزا"

ـ فعلاً ـ مستحيل أن يعامل رجل بأقسى مما عامل به والدي. كان يائساً بشكل كبير ويردد بدون انقطاع:

ــ لقد هُرس الفص، لقد تحطم الفص، يا إلهي. لقد تحطم.. ثم التفت نحوي وسأل:

ـ هل كان الفص الوحيد الذي يمتلكه؟ فقال والدي:

أعتقد أنه ليس الوحيد.. حسناً وسنبحث عن الآخرين! وأمسك السيد "جاكوب" برقبة أبي وقال له: ابحث عن الآخرين.. ثم تركه فقد أمرتني أن لا أبوح بشيء عن الفصوص وأهميتها وأنقذني أبي من هذه الورطة فقال له:

ـ ماذا قال له؟

أخذ يرغي ويزيد.. وقاطعته قائلة:

كيف لا يغضب وكنت قاسياً عليه وظالماً له. وصاح والدي بغضب:

هكذا إذن؟ أنت مجنونة هل هي مأساة أن يهرس بصلة زنبق وهناك المئات منها "بفلوران" واحد في سوق "كوريكوم" فقلت له وأنا آسفة لذلك:

ـ إنها ليست ثمينة مثل هذه! وسأل "كورنيليوس":

ـ وماذا فعل عندما سمع ذلك؟

علـي أن أقـول أنـه لمـا سمـع هـذا برقـت عينـاه بشـكل غريب. وقال "كورنيليوس":

هذا ليس كل شيء! هل قال شيئاً آخر؟

قال لي بصوت لا يخلو من حلاوة

هكذا يا "روزا" الجميلة: هل تتخيلين أنها بصلة ثمينة حقاً؟ فأدركت أنني ارتكبت خطأ وأجبته بلا مبالاة: أنا لا افهم في الزنابق ولكن ومع الأسف طالما أننا نعيش مع السجناء - وقد حكم علينا بذلك - عرفت أنه ثمين بالنسبة لهذا السجين بالذات، كان يفكر به طيلة أوقات فراغه، هذا السيد "فان بيرل"كان يتسلى به، لذاك أقول أنه من القسوة بمكان أن نحرمه من هذه المتعة. وقال أبي:

ولكن.. أولاً كيف استطاع الحصول على البصلة، من المفيد أن نعرف ذلك، وأدرت وجهي لأتحاشى نظرات أبي ولكن التقت عيناي بعيني "جاكوب" فكان يبدو كأنه يريد أن يقرأ أفكاري حتى أعماق قلبي. إذ غالباً ما تغني حركة لا شعورية عن جواب - هززت أكتافي وأدرت ظهري وأنا أتقدم نحو الباب فاستوقفتني كلمة سمعتها رغم الصوت المنخفض.. "جاكوب" يقول لأبي:

ـ هذا ممكن ـ ليس ذلك بالشيء الصعب!

ـ نفتشه فإذا كان هناك أبصال أخرى فسنجدها. نعم، من المفروض أن يكون لديه ثلاث بصلات. وقال "كورنيليوس" ثلاث بصلات؟ هل قال ذلك؟

أنت تعلم، لقد شدتني الكلمة مثلك. والتفت لأرى الاثنين منهمكين فلم يريا حركتي: وقال والدي: يبدو أن الأبصال ليست معه! اطلب منه أن ينزل تحت أي ذريعة وفي هذا الوقت يمكن أن نفتش غرفته. وصاح "كورنيليوس"

يبدو أن "جاكوب" هذا من السلطة. فقالت "روزا" لقد خِفتُ منه وتابع "كورنيليوس" وهو يفكر ـ قولي يا "روزا"!

ـ ماذا؟

ـ ألم تذكري لي، يوم أن رتبت مساكبك ـ أنه كان يتبعك

ـ نعم

ـ وأنه انزلق كالشبح خلف الأشجار!

لم تفته واحدة! وقال "كورنيليوس" وقد شحب وجهه:

ـ ولا واحدة!

ـ ماذا؟

ـ ألم يكن يتبعك أنتِ؟

ـ من يتبع إذن؟

ـ هل يحبك الرجل؟

ـ من سيحب غيري إذن؟

ـ إنه يعشق زنبقتي! وصاحت "روزا" :

ـ هذا يمكن أن يحدث!

ـ هل تريدين أن تتأكدي؟

ـ وكيف ذلك؟

ـ هذا سهل جداً

ـ قل لي

اذهبي غداً إلى الحديقة وحاولي كالمرة السابقة أن يعرف "جاكوب" أنك ذاهبة إلى هناك ـ حاولي أن يتبعك، وتظاهري بأنك تزرعين البصلة ثم اخرجي من الحديقة وراقبي من خلف الباب ماذا سيفعل!

ـ حسناً وماذا بعد؟

ـ سنتعرف بعد أن نراه يتصرف. وتنهدت "روزا" ، وقالت:

آه إنك تحب بصلتك (زنبقتك) كثيراً وقال السجين وهو يتنهد أيضاً:

ـ فعلاً منذ أن هرس أبوك الفص المسكين، أحسست أن جزءاً من كياني قد شُلّ. وقالت "روزا":

ـ أتريد أن نجرب شيئاً آخر؟

ـ ماذا مثلاً؟

ـ هل تقبل بعرض والدي؟

ـ أي عرض هذا؟

ـ أن يقدم لك بصلات زنبق بالمئات.

ـ حتماً

اقبل مئتي أو ثلاث عندها يمكنك أن تزرع الفص الثالث. وقال "كورنيليوس":

لو كان أبوك وحده لكان هذا ممكناً، ولكن هذا "الجاكوب"؟ إنه يتجسس علينا.

حتماً.. ولكن ألا تفكر أنك تحرم نفسك من تسلية كبيرة: قالت ذلك بابتسامة لم تخلُ من بعض السخرية.

وفعلاً فكر "كورنيليوس" برهة فشعر أنه يقاوم رغبة كبيرة لديه.. ورد بقوة:

لا.. لن يكون هذا ضعفاً، سيكون جنوناً، فمن الجبن أن نترك الفص الأخير لدينا عرضة لقدر سيء أو حسدٍ أو غضب، سيكون ذنباً لا يغتفر.. لا يا "روزا" لا سوف نتخذ غداً قرار بشأن بصلتك، وستراعيها كما أعلمتك! أما بالنسبة للفص الثالث، وتنهد بعمق: خبئيه في خزانتك، حافظي عليه كما يحافظ البخيل على أول وآخر دينار يملكه، كما تحافظ الأم على وليدها، كما يحرص الجريح على قطرة الدم من أوردته. حافظي عليه يا "روزا" هناك شيء يقول لي أن فيه سلامتنا، أنه فيه ثروتنا، حافظي عليه، ولو هبت النار من السماء وسقطت على "لوفستان". أقسمي لي يا "روزا" أن تعتبري فص زنبقتي السوداء مثل خواتمك ومجوهراتك وتاجك الذهبي الذي يحيط بوجهك الجميل. أقسمي لي أنك ستحمين ذلك الفص الأخير لزنبقتي السوداء. قالت "روزا" بمزيج من الحزن والكبرياء:

كـن مطمئنـاً سـيد "كورنيليـوس" كـن مطمئنـاً. إن طلباتك أوامر بالنسبة لي. وتابع "كورنيليوس" الشاب وهو يزداد انفعالاً.

ومع ذلك.. إذا لحظت أن أحداً يتبعك أو أنك مراقبة أو أن حديثك يثير شكوك أبيك أو هذا "الجاكوب" الذي أمقته، عندها ضحي بي يا "روزا" أنا من لا يعيش إلا من أجلك وليس له إلاك في هذا العالم، لا تحاولي أن تريني! وأحست "روزا" بانقباض في قلبها وطفرت الدموع من مآقيها فقالت:

ـ ما أشد أسفي.. وسألها:

ـ ماذا هناك؟

ـ أرى شيئاً ما!

ـ ماذا ترين؟ فقالت الفتاة وهي تنفجر باكية:

أرى أنك تحب زنابقه حباً جماً لا يدع لقلبك مكاناً لأي حب آخر.

وقضى "كورنيليوس" هذا المساء بعد أن غادرته "روزا" ليلة من أسوأ الليالي التي مرت عليه فقد كانت "روزا" غاضبة منه ـ وهي على حق ـ فلم يعد لديه أخبار عن "روزا"

أو عن الزنابق والآن كيف نفسر هذه الصفة الغريبة لزارع الزنبق المثالي الذي قل أن يوجد مثله في هذا العالم؟ نحن نعترف بطيبة بطلنا ، ولكن يستطيع أن يزرع وينمي ويجمع بين هذين العشقين؟! إذ نشعر الآن أنه منحاز في حبه وللأسف أكثر من حبه "لروزا" ونام في الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي محطماً من التعب يمزقه الخوف ويقلقه الأسف. فكانت الزنبقة السوداء في المكان الأول من أحلامه مع المقلتين الزرقاوين العذبتين للجميلة الشقراء!!

الفصل التاسع عشر

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

امرأة ... وزهرة

واعتكفت "روزا" في غرفتها، فلم تكن تدري لا بمن تفكر ولا بماذا تفكر مما جعلها تظن أنه يحلم بزنبقته أكثر مما يحلم بها.. ولكن "روزا" كانت على خطأ.. ولا شيء يؤكد لها ما فكرت به، فكلمات "كورنيليوس" المرتجلة نزلت على قلبها كالسم، فلم يعد يحق لها أن تحلم، وبالفعل فإن "روزا" هي مخلوقة سامية، نبيلة الروح ذات أحاسيس نبيلة وعميقة، لذا أرادت أن تحكم بينها وبينه بالعدل من حيث صفاتها الجسدية والأخلاقية ومن حيث وضعها الاجتماعي بينما فهو "كورنيليوس" العالم الثري (على الأقل قبل أن يحجزوا على أمواله) الذي كان من البورجوازيين التجار، يفتخر كثيراً برايات أهله المخطوطة التي كانت تشكل شرفاً كبيراً له في يوم من

الأيام، كذلك شرف أصالة عرقه الموجود في "شعار النبل" الذي ورثه.

ففي مثل هذه الأبعاد، قد يجد "روزا" غرضاً للتسلية. ولكن بضربة الواثق إذا تعلق الأمر بالارتباط القلبي فالزنبقة هي الأولى ! فهي أكثر الأزهار نبلاً ليرتبط بها أكثر من "روزا" ابنه السجان البسيطة.. إذن "فروزا" تدرك تلك الأفضلية التي أعطاها "كورنيليوس" لزنبقته السوداء عليها، لذا فقد ازدادت يأساً عندما أدركت ذلك لذا فمنذ تلك الليلة المشؤومة ليلة الأرق. قضتها ساهرة واتخذت قراراً بعدم العودة إلى النافذة. ولكنها.. كانت تعرف رغبة "كورنيليوس" الشديدة في معرفة أخبار زنبقته ولم ترد أن تظهر نفسها أمامه أنها عادت لرؤية رجل ازدادت شفقتها عليه، شفقة تجاوزت الصداقة وتسير بخطى سريعة نحو الحب. فلا تريد أن يستولي عليه اليأس. لقد قررت أن تتابع لوحدها دروس القراءة والكتابة التي بدأتها، ولحسن الحظ أنها بلغت في تعلمها ذلك الحد الذي لم يعد فيه للمعلم دوراً أساسياً، سيما إن كان هذا المعلم يدعى "كورنيليوس" وهكذا أخذت "روزا" تتعلم القراءة في "توراة" "كورنيل دوويت" المسكين بدءاً من الورقة

الثانية لأن الأولى انتزعت منه وكتب عليها "كورنيليوس" وصيته وأخذت تقرأ الوصية لكنها لم تفهمها إذ ترقرقت في عينيها لآلئ الحب وسالت على وجهها الشاحب وتمتمت: لقد ظننت للحظة ما أنه يحبني!!

ولكن مع الأسف، كانت "روزا" المسكينة مخطئة إذ أن حب السجين لها لم يكن واقعياً وحقيقياً إلا عندما بلغ الوقت الذي عرفناه فيه لأننا ذكرنا ذلك مع بعض الحرج في الصراع بين الزنبقة السوداء و"روزا" وفي حينه كانت الزنبقة السوداء قد فشلت. ولكن "روزا" كانت تجهل فشل الزنبقة السوداء. وحصلت "روزا" على تقدم سريع في القراءة وعندما تنتهي منها تمسك الريشة وتبدأ تدريباتها على الكلمات بكثير من الشغف ذلك العمل الصعب الذي يختلف عن القراءة.

والآن غدت "روزا" قادرة على أن تكتب بشكل مقروء.

وفي ذلك اليوم الذي ترك السجين قلبه يتحدث بلا حذر، كانت تحاول أن تحصل على تقدم سريع لكي تقدم بعد ثمانية أيام على أبعد حد أخباراً عن الزنبقة إلى

السجين! فهي لم تنسى كلمة واحدة من التعليمات التي أعطاها إياها ولا أيضاً كلمة واحدة قالها لها مما لا يدخل في مجال التوصيات.

أما هو، فقد استيقظ عاشقاً لأبع حد، فالزنبقة لا تزال حية تتلألأ في ذهنه فلا يراها، فهي كنز يستحق كل التضحيات. وحتى "روزا" هي زهرة ثمينة، تركيبة عجيبة من الطيبة والفن وهبها اللّه له. وبقي القلق يلاحقه طيلة النهار، فهو من هؤلاء الرجال ذوو النفس القوية، ينسون خطراً داهماً يتهددهم في المساء أو الغد فيمارسون حياتهم بشكل طبيعي، ولكن من حين لآخر يعود هذا الخطر المنسي ليلدغ قلوبهم بأسنانه الحادة فيثورون ويتساءلون ـ لماذا حدث ذلك. أو يتذكروا ما كانوا قد نسوه ويقولون:

نعم هذا هو السبب! ومن ثم يتنهدون!

والسبب هنا، هو خشية "كورنيليوس" أن لا تحضر "روزا" كعادتها هذا المساء. وكلما تقدم الليل كان قلقه أكبر وأكثر حضوراً حتى يستولي عليه كلياً فيعيش معه. أتت ضربات قلبه ترحب بالظلام.. فكلما تقدم الليل

وتعمق بظلام ازدادت الكلمات التي قالها "لروزا" مساء الأمس حضوراً أقوى في نفسه، تلك الكلمات التي أخافت الفتاة المسكينة، وتساءل: كيف استطاع أن يقول لمن واسته في محنته، أن تضحي به من أجل الزنبقة؟ أو بالأحرى أن تعدل عن رؤيته إذا لزم الأمر؟ بينما في الواقع إن رؤية "روزا" كل يوم غدت إحدى ضروريات حياته. ومن غرفة "كورنيليوس" كانت تسمع دقات ساعة القلعة معلنة السابعة ثم الثامنة ثم التاسعة.

ولم يُسمع أبداً نعمة دقات "البرونز" تهتز بعمق في قلب إنسان كما فعلت المطرقة البرونزية في قلب "كورنيليوس" عندما دقت الضربة الأخيرة معلنة الساعة التاسعة. إذ عاد الهدوء يسيطر على كل شيء.. وضغط "كورنيليوس" على قلبه ليخفي دقاته وأصغى كان صوت خطوات "روزا" وحفيف ثوبها منذ أن تصعد الدرجة الأولى فيقول:

آه .. ها هي "روزا" قادمة.. ولكن..

في هذا المساء لم يعكر هدوء الممر أي صوت، وأشارت الساعة التاسعة والربع ثم والنصف وثم الثلاثة أرباع، ثم أعلنت العاشرة، ليس لضيوف القلعة فقط وإنما

أيضاً لساكنيها في "لوفستان". كانت "روزا" تغادره عند العاشرة ودقت ساعة المغادرة ولم تحضر "روزا" بعد. هكذا إذن ــ إن أحاسيسه لم تخدعه "فروزا" غاضبة منه، معتكفة في غرفتها وقد تخلت عنه نهائياً. وقال "كورنيليوس":

- أنا أستحق كل ما يجري لي فهي لن تأتي وأحسنت فعلاً بعدم حضورها ولو كنت مكانها لفعلت ذلك ومع ذلك بقي "كورنيليوس" يصغي ويأمل، وانتظر حتى منصف الليل رغم أنه فاقد الأمل عندها ارتمى على سريره وهو بكامل ثيابه. كان ليلاً تعساً وطويلاً وبزغ الفجر لكن النهار لم يقدم له شيئاً جديداً.

وفتح باب غرفته في تمام الساعة الثامنة لكنه لم يلتفت ولم يُرد رأسه ناحية الباب لأنه سمع خطوات "غريغوس" الثقيلة في الممر وشعر أنه قادم وحده. ومع ذلك، أراد أن يستجوبه عن أخبار "روزا" وأوشك أن يلقي عليه سؤالاً يبدو بمنتهى الغرابة إذا وًجه لأبيها! وتمنى لو يرد عليه "غريغوس" بأنها مريضة ولكن "روزا" لم تكن تحضر إليه أثناء النهار إلا إذا حدث طارئ: لذلك لم يكون "كورنيليوس" ينتظرها في النهار. ومع ذلك فكان

لشــدة اضــطرابه ولأذنــه الممــدودة نحــو البــاب ولنظرتــه السـريعة الـتي تسـتجوب النافـذة نـرى عنـد السـجين أمـل كـاذب بـأن تخـالف "روزا" قاعـدتها وعادتهـا.. ففـي الزيـارة الثانية التي قام بها "غريغوس" خـالف السـجين كـل عاداتـه السـابقة وسـأل السـجان العجـوز بأعـذب صـوت يمكـن أن يقوله ـ أخباراً عن صحته. لكـن "غريغـوس" رد بإيجـاز أهـل أسـبارطة فحـدد جوابـه بـ: ـ لا بـأس وغيّـر "كورنيليـوس" أسلوب استجوابه في زيارة "غريغوس" الثالثة وسأله:

هل هناك احد مريض في "لوفستان"؟

ورد "غريغوس" بإيجاز المرة السابقة:

لا يوجد أحد. قال ذلك وأغلق البـاب في وجـه السـجين. ولم يعتـد "غريغـوس" علـى هـذا اللطـف مـن جانـب السـجين فرأى فيه من زاوية ما أنه يحاول رشوته.

وكـان "كورنيليوس" وحيداً والسـاعة السـابعة مسـاءً، وعـاوده قلـق الأمـس بشـكل أقـوى. وقـد حـاولنـا أن نصـفه، ومثـل ليلـة الأمـس، معنــى الليـل دون أن تجلـب لـه الرؤيـة المضيئة من خلال النافذة الـتي تنسـحب مخلفـة وراءهـا نـوراً يضــيء زنزانـة المسـكين طيلـة وقـت غيابهـا. وقضـى ليلـة

أخرى بمنتهى اليأس. وفي اليوم الثاني بدا له "غريغوس" أكثر قبحاً وقساوة وأكثر تشاؤماً من المعتاد إذ خطر له أنه هو من يمنع "روزا" من القدوم إليه وشعر برغبة قوية في أن يخنقه ولكنه.. إن فعل ذلك فإن جميع القوانين الإلهية والإنسانية تمنع "روزا" من القدوم إليه إلى الأبد. ونجا السجان من خطر لم يشعر به، خطر من أكبر الأخطار التي تعرض لها في حياته، وارتدت الطبيعة ثوب الظلام وفرش الليل أجنحته على الكون فتحول يأسه إلى كآبة رغماً عنه عندما تذكر الزنبقة المسكينة ذكرى تمتزج بالألم الذي يعتصر قلبه إلا أن شهر نيسان قادم وهو موعد الوقت الهام المحدد لزراعة الزنبق وقد قال "لروزا": سأدلك على اليوم الذي عليك أن تزرعي الفص بالتراب، سيكون غداً ذلك اليوم وسيحدد من الليلة السابقة فالجو مناسب رغم كونه لا يزال رطباً نوعاً ما، إذ أن شمس نيسان ستعدله، شمس نيسان الشاحبة التي ستقدم أولاً وستبدو لطيفة رغم شحوبها. فإذا سمحت "روزا" لزمن زراعة الزنبق أن يمر وللألم الذي يعانيه من عدم رؤيتها أن يجتمعا، وهما:

الأول: فقدان الأمل بفص الزنبقة إذا زرع متـأخراً جـداً أو لم يزرع أصلاً.

الثاني: ترك الطعام والشراب وهـذا مـا حـدث في اليـوم الرابع.

ومـن المثير للشفقة أن تـرى "كورنيليـوس" وقـد أخرسـه الألم وأمعنـه الجـوع فشـحب وجهـه محنيـاً نحـو النافـذة المحددة لا يسـتطيع نـزع رأسـه مـن بـين القضبـان محـاولاً أن يستطيع مـن الجهـة اليسـرى للحديقـة الصـغيرة الـتي حدثتـه عنها "روزا" والتي قالت له أن زاويتها تقترب من النهر، علـى أمـل أن يـرى في أول أشـعة شمـس نيسـان، الفتـاة أو الزنبقـة الحبيـبين الـذين تحطمـا. وفي المسـاء أحضـر "غريغـوس" الغداء والعشاء "لكورنيليوس" لكنه لم يمـد يـده أبـداً وفي اليـوم التـالي لم يقـترب أبـداً مـن الطعـام وبقـي راقـداً. أنـزل "غريغـوس" الطعـام المخصـص لوجبتـه سـالمين تمامـاً فهـو لم ينهض يومها طيلة النهار. وقال "غريغوس" وهـو ينـزل الـدرج بعد زيارته الأخيرة له:

ــ حسـناً ــ يبـدو أننـا سـنتخلص مـن هـذا العـالم! وانتفضت "روزا" وصاح "جاكوب":

ـ رباه.. وكيف ذلك؟ فقال "غريغوس":

إنه لا يأكل ولا يشرب ولا ينهض أبداً، تماماً مثل السيد "غروتيوس" الذي خرج من هنا صندوق، أما هذا فسيكون الصندوق، هو التابوت. وغدت "روزا" شاحبة كالأموات وغمغمت: أنا أعرف إنه قلق على زنبقته. نهضت على عجل وذهبت إلى غرفتها وتناولت ريشة وورقة، واستنفذت ليلة كاملة لتخط رسالة على عجل. وعندما نهض في اليوم التالي سحب نفسه إلى قرب النافذة فأبصر ورقة أدخلت من تحت الباب فاندفع نحوها تناولها وقرأ بخط وجد صعوبة ليعرف أنه خط "روزا" إذ أن كتابتها قد تطورت في الأيام الأخيرة.

كن مطمئناً زنبقتك بخير.

وهدأت هذه الكلمة الصغيرة من "روزا" بعضاً من آلامه هكذا إذن .. إن "روزا" ليست مريضة بل هي مجروحة لم تتغيب عنه مرغمة بل ابتعدت عنه بمحض إرادتها. "روزا" إذن هي حرة وقد وجدت في إرادتها تلك القوة فلم تحضر لترى ذلك الإنسان الذي يكاد يموت حزناً لأنه لم يرها: كان لديه قلم وورقة أحضرتها "روزا"

له وعرف أن الفتاة تنتظر منه الجواب ولن تأتي لتأخذ الرد إلا في الليل. وكتب الرد على ورقة شبيهة بالتي وصلت إليه: "إن قلقي ليس لسبب زنبقتي! إن ما جعلني مريضاً! قلقي الكبير هو لأني لا أراكِ" وبعد أن خرج "غريغوس" وساد الظلام: أدخل الورقة من تحت الباب وبقي يصغي.. ورغم التركيز الشديد في هذا الإصغاء فإنه لم يسمع صوت خطاها ولا حفيف ثوبها.

لم يسمع سوى صوتاً ضعيفاً كالهمس، ناعم كالمداعبة، ألقي عليه من خلال النافذة.. هاتين الكلمتين:

إلى الغد!

كان الغد.. هو اليوم الثامن ومضت ثمانية أيام، و"روزا وكورنيليوس" لم يلتقيا فيها أبداً.

الفصل العشرون

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

ماذا جرى في الأيام الثمانية

وفي اليوم التالي وفي الساعة المعتادة تماماً، سمع "فان بيرل" نقراً على نافذته، كما اعتادت "روزا" أن تفعل أيام الصداقة الطيبة، ويمكننا أن نعرف أن "كورنيليوس" كان قرب باب الحاجز الذي سيرى منه وجه "روزا" الساحرة من جديد والذي غاب عنه منذ زمن طويل. كانت "روزا" تنتقل والمصباح بيدها ولم تستطع أن تمنع نفسها من الاضطراب عندما شاهدت السجين حزيناً جداً وشاحباً جداً فسألته:

هل أنت مريض سيد "كورنيليوس"؟

نعم يا آنستي.. مريض النفس والجسد. وقالت "روزا":

رأيـت أنـك لم تأكـل ولم تشـرب. وقـال أبـي أنـك لا تنهض أبداً ، لذا كتبت لك لأطمئنك عن أثمن شيء يسبب قلقك. وقال "كورنيليوس" :

وأنا أجبتك! وأظن أنني وقد رأيتك الآن ـ أن رسالتي قد وصلتك.

طبعاً لقد وصلتني!

لن تعتذري بعد الآن بعدم معرفتك القراءة. فأنت الآن تقرئين بسهولة وقد تقدمت كثيراً في مجال الكتابة.

فعـلاً.. أنـني مـا جئـت لأقـول أنـني اسـتلمت بطاقتـك لكنني جئت لأرى فيمـا لـو أسـتطيع أن أرد لـك عافيتـك. وصاح "كورنيليوس"

تـردين عـافيتي؟ لا بـد أن لـديك أخبـاراً سـارة سـتنقليها إلي. وألقى "كورنيليوس" علـى "روزا" نظـرات تتـألق بالأمـل. وسـواءً أدركـت الشـابة معنـى هـذه النظـرات أم لم تـدرك فقد أجابت بجدية:

عندي ما أقوله لك عن زنبقتك ـ وهـي ـ كمـا أعـرف أثمن شيء لديك وكـل اهتمامـك. ونطقت بهذه الكلمـات بلهجـة بـاردة جعلـت الشـاب يرتجـف إذ أنـه لم يكـن ذلـك

الزارع الموهوب الذي يدري ما تكتمه الطفلة المسكينة تحت ستار اللامبالاة مأخوذة دائماً بمنافستها الزنبقة السوداء. وصاح "كورنيليوس":

آه يا "روزا" يا إلهي! ألم أقل لك أنني لا أفكر إلا بكِ وأنت الوحيدة التي آسف عليها وأنت الوحيدة التي أشتاق إليها وأنت الوحيدة التي إن غابت عني، غاب عني الهواء، وغاب عني النهار، وغاب الدفء وغاب النور وغابت الحياة. وابتسمت "روزا" بحزن. وقالت:

لقد نجت زنبقتك من خطر داهم. وانتفض "كورنيليوس" رعباً. وترك نفسه يقع في الفخ إن كان هناك فخ. وصاح وهو ينتفض:

خطر كبير.. يا إلهي.. ما هو ذلك الخطر؟

وألقت "روزا" عليه نظرة تفيض عطفاً وحناناً وشعرت أن ما تطلبه منه فوق طاقته وأن عليها أن تقبله كما هو، مع نقطة ضعفه هذه وقالت:

لقد كان حدسك صادقاً ـ فهذا العاشق "جاكوب" لم يأتِ من أجلي، وسأل "كورنيليوس" باضطراب:

من أجل من إذن يا "روزا"؟

جاء من أجل زنبقتك. واضطرب اضطراباً أشد من يوم قالت له أنه جاء من أجلها ولاحظت "روزا" الرعب الذي استولى عليه، ولاحظ "كورنيليوس" أنها تفكر بنفس فكرته التي جئنا على ذكرها. وقال:

سامحيني يا "روزا" أنا أعرفك وأعرف طيبك ونبل قلبك، لقد أعطاك الله فكراً ومحاكمة، وقوة وحركة لتدافعي عن نفسك، لكن زنبقتي المسكينة المهددة لم يمنحها الله شيئاً من هذا. ولم تجد جواباً عن هذا الاعتذار من السجين وتابعت:

منذ أن تبعني هذا الرجل إلى الحديقة وعرفت أنه "جاكوب" قلقتُ، وازداد قلقي عندما قمت بما أشرت علي به في صباح ذلك اليوم الذي رأيتني فيه لآخر مرة، والذي قلت لي فيه.. وقاطعها "كورنيليوس" قائلاً:

عفواً يا "روزا" إن ما قلته لك في حينه كان خطأ ولا أزال أطلب الصفح عنه، فهل سيكون طلبي بدون جدوى؟ وتابعت "روزا":

في صباح ذلك اليوم تذكرت ما أوصيتني به. وتذكرت الحيلة التي علي أن أقوم بها لأعرف هذا الرجل الدميم هل يتبعني أم يتبع الزنبقة؟ وقال:

إنه ذميم حقاً؟ أليس كذلك؟ هل تكرهينه كثيراً؟ وقالت "روزا"

نعم ـ أكرهه لأنه السبب في عذابي منذ ثمانية أيام.

هل تألمت أنتِ أيضاً يا "روزا"؟ شكراً لك على هذا الكلام الحلو.. وتابعت:

في صباح ذلك اليوم التعيس نزلت إلى الحديقة وتقدمت نحو المسكبة أتظاهر بأني أزرع الزنبقة وأنا أنظر خلفي كالمرة السابقة.. لقد كان يتبعني.. وسألها "كورنيليوس"

وبعد ذلك؟

انزلق ذلك الشبح بين الباب والجدار واختفى خلف شجر الدردار. وسألها "كورنيليوس" وهو يتذكر الوصية التي أوصاها بها.

وتظاهرت بأنك لا ترينه! أليس كذك؟

نعم، انحنيت فوق المسكبة وأنا أحفرها بالمنكاش وتظاهرت كأني أزرع الفص.

وماذا كان يعمل في ذلك الوقت؟

رأيت عينيه تقدحان شراراً من خلال الأشجار وكأنه نمر. وقال "كورنيليوس"

ـ أرأيت يا "روزا" أرأيت؟

ومن ثم تظاهرت أن عملي قد انتهى وانسحبت

ـ انسحبت من خلال باب الحديقة.. أليس كذلك؟ بشكل تستطيعين معه من خلال النافذة أو من ثقب قفل الباب أن تري ماذا يفعل بعد مغادرتك.

انتظر بعض الوقت كي يتأكد أني لن أعود، فخرج من مخبئه يمشي بخطى ذئب حذر. واقترب من المسكبة بعد أن دار حولها دورة طويلة، وعندما وصل إلى هدفه أي المكان الذي كان التراب فيه رطباً ومفككاً، أخذ ينظر حواليه بعين اللامبالاة، ودقق في كل زوايا الحديقة، وكل نوافذ البيوت المجاورة، دقق في الأرض والسماء والهواء، وعندما وثق أنه وحيد تماماً ومنعزلاً تماماً، بعيداً عن عيون كل الناس، اندفع نحو المسكبة

وغرز يديه الاثنتين في التراب المبلل وامسك كتلة كسرها بيده بلطف ليرى فيما إذا كان الفص فيها. وأجرى هذه العملية ثلاثاً، فكان يزداد حماسه في كل مرة حتى بدأ يدرك في النهاية أنه قد خدع وأنه كان ضحية حيلة. وهدأ الاضطراب الذي استولى عليه، وأمسك المشط وسوّى الأرض ليجعلها كما كانت قبل أن يفلحها بيديه، وسار نحو الباب متألماً وخجلاً متظاهراً بالبراءة كأي متنزه عادي. وتمتم "كورنيليوس" وهو يمسح حبات العرق وقد تلألأت على جبينه..

- يا للشقي.. لقد أدركت ذلك.. ولكن الفص! ماذا فعلت بالفص؟ يا "روزا" لقد تأخرنا في زراعته مع الأسف!

ــ الفص؟ أنه في التراب منذ ستة أيام.. وصاح "كورنيليوس":

- أين ذلك؟ وكيف؟ يا الله.. ما هذا الطيش؟ أين هو؟ في أي أرض؟ هل وضعه سيء أم جيد؟ هي يتعرض لأن يسرقه منا هذا الجاكوب الرهيب؟

لــــن يتعـــرض للســـرقة، اللـــهم إذا اســـتطاع هـــذا "الجـاكـوب" أن يغتصب بـاب غـرفتي! وقـال "كـورنيليـوس" وقد اطمأن قليلاً:

ـ آه.. أهو عندك؟ في غرفتك؟ ولكن في أي أرض؟ وفي أي وعـاء؟ لـن تدعينـه يـبرعم في المـاء كمـا تفعـل النسـاء في "هـارلم" وفي "دوردريخـت" فهـن يعتقـدن أن المـاء يمكـن أن يحـل محـل الـتراب، كمـا لـو أن المـاء الـذي سـيكون مـن ثلاث وثلاثين جزءاً من الأكسجين وست وستين جـزءاً مـن الهيدروجين يمكـن أن يحل محلّه.. ولكن ماذا أقول هنا يـا "روزا"؟ وردت "روزا" وهي تبتسم:

ــ نعـم. إن هـذا موضـوع علمـي بالنسـبة لـي لكـني أكتفي بأن أجيبك أن الفص ليس في الماء كي أطمئنك..

ـ آه لقد بدأت أتنفس..

ـ إنـه في وعـاء مـن الفخـار علـى نفس مسـاحة جرتـك، هنـاك طمـرت فصـك في تربـة مركبـة مـن ثـلاث أربـاع مـن تـراب عـادي مـأخوذ مـن مكـان مـا مـن الحديقـة وربـع مـن تراب الطرق، فقد سمعتهم يقولـون لـك وللسـيد "جـاكـوب"

المشؤوم في أي أرض يجب أن يزرع الزنبق وبأنني أتقن ذلك كالبستاني الأول في "هارلم".. والآن يبقى وضعه!

- وكيف وضعته يا "روزا"؟

- إنه في الشمس طيلة النهار - في الأيام المشمسة.. أما عندما يبزغ من التراب عندما تكون الشمس شديدة الحرارة، أقوم بما قمت به أنت يا عزيزي "كورنيليوس" سأضعه في نافذتي من جهة الشرق صباحاً من الثامنة حتى الحادية عشر إلى جهة الغرب منذ الساعة الثالثة بعد الظهر حتى الساعة الخامسة. وصاح "كورنيليوس"

هذا هو التصرف الصحيح - أنت بستانية ماهرة يا روزتي الجميلة. لكن أظن أن زراعة الزنبق ستأخذ كل وقتك

نعم.. هذا صحيح - فسأخصص لزنبقتك الوقت الذي أخصصه لطفلي.. فزنبقتك هي ابنتي لو كنت أماً - ولا بد أن أصبح أمها كي لا تبقى منافستي!! وتمتم "كورنيليوس" وهو يلقي على الفتاة نظرة فيها من حبها ما يفوق حبه للزراعة مما واسى "روزا" قليلاً.

حبيـبتي "روزا" الطيبـة، وبعـد فـترة صـمت، بحـث "كورنيليوس" من خلال فتحة الحاجز عن يد "روزا" الهاربة وتابع..

ـ هكذا إذن.. الفص في التراب منذ ستة أيام. وردت الشابة:

ـ نعم، سيد "كورنيليوس" منذ ستة أيام..

ـ ألم يظهر البرعم بعد؟

ـ لا.. لم يظهر.. أعتقد أنه سيظهر يوم غد.

ـ ليكن غداً.. انقلـي لـي أخبـاره وأخبـارك أيضـاً. سأكون قلقاً على ابنتي كما دعوتيها الآن ولكن قلقي الأكبر هو على الأم!

قالـت "روزا" وهـي تلقـي علـى "كورنيليـوس" نظـرة جانبية:

ـ لا أدري إذا كنـت أسـتطيع غـداً أن.. وسـألها "كورنيليوس":

ـ أما أنا فليس علي إلا عمل واجد. وأجابت "روزا":

ـ عليك أن تحب زنبقتك!

وأن أحبك يا "روزا"! وهزت "روزا" رأسها وساد الصمت من جديد. وأخيراً قطع "كورنيليوس" الصمت وتابع:

إن كل شيء يتغير في هذا الكون، فبعد أزهار الربيع تتفتح أزهار أخرى. فترى النحلات وهي تداعب أزهار البنفسج والقرنفل وتتوضع بكل الحب على زهر العسل والورد والياسمين والأقحوان وإبرة الداعي. وقالت "روزا":

ـ وماذا يعني هذا؟ أولاً: إنكِ أحببت أن تعرفي قصة فرحي وهمي، وأحسست بزهرة شبابنا المتبادلة .. لكن زهرتي قد ذبلت في الظل إذ أن حديقة الأمل بالنسبة للسجين ليس لها إلا فصل واحد. فهي ليست مثل بقية الحدائق التي تنعم بالهواء والشمس فبعد حصاد أيار وجني المحصول تأتي الفراشات التي تشبهك، ذوات الثوب الناعم والملامس الذهبية والأجنحة الشفافة، تمر من بين القضبان فتهجر الوحدة والشقاء لتبحث عن العبير والأنفاس الدافئة في الخارج.. لتجد السعادة..

كان يتأمل السماء فلم ير نظرة ألقتها عليه "روزا" وتابع وهو يتنهد:

أنت تركتني يا "روزا" لأن عندك فصول السعادة الأربعة، وقد أحسنت صنعاً، فأنا لا أشكو من ذلك، فبأي حق أطالبك بالوفاء والإخلاص؟ وصاحت "روزا" والدمع يترقرق في عينيها دون أن تحاول أن تخفيها، تلك اللآلئ التي تتدحرج على وجنتيها

ـ الإخلاص؟ إخلاصي أنا؟ ألم أكن وفيه لك؟ وصاح "كورنيليوس":

ـ هل من الإخلاص أن تتركيني أموت هنا؟

ـ سيد "كورنيليوس"! ألم أقم بكل ما أستطيع أن أقوم به لأسعدك، ألم أهتم بزنبقتك؟

ـ من المؤلم يا "روزا" أن تحرميني من الفرح الوحيد الذي حصلت عليه في هذه الحياة؟

ـ أنا لا ألومك على شيء إلا ما شعرت به من حزن شديد أحسسته في ذلك اليوم جاؤوا فيه ليقولوا لي أنه حكم عليك بالموت

ـ هل يزعجك يا "روزا"؟ هل يزعجك أن تريني أحب الأزهار؟

ـ أنا لا أتضايق من حبك لها سيد "كورنيليوس" إن ما يحزنني هو أنك حبك لها يفوق حبك لي وصاح "كورنيليوس"

ــ آه يا حبيبتي! حبيبتي الغالية، انظري إلى يدي المرتجفتين، انظري إلى جبيني الشاحب اسمعي دقات قلبي، ليس ذلك لأن زنبقتي تناديني وتبتسم لي! فأنت التي تبتسم لي وتميلي بجبينك نحوي هذا لأن يديك وهما تغادران يطمحان إلى يدي وأشعر بحرارة خديك من خلف قضبان الحديد الباردة ـ لا أدري إن كان هذا صحيحاً ـ "روزا" يا حبي حطمي فص الزنبقة السوداء واقطعي الأمل بهذه الزهرة، وأطفئي النور اللطيف لهذا الحلم الساحر والطاهر الذي اعتدت أن أحلم به كل يوم.. وليكن، بلا هذه الأزهار ذات الثياب الثمينة والأناقة المحببة، والأحلام الإلهية، انزعي كل هذا أيتها الزهرة الغيورة، لكن لا تحرميني من صوت حركتك وصوت خطواتك على الدرج الكبير لا تحرميني من نار عينيك في الممر المعتم لا تحرميني من حبك الأكيد الذي يداعب قلبي باستمرار.. أحبيني يا "روزا" أحبيني فأنا أشعر أنني لا أحب سواك. وتنهدت وقالت:

ـ ولكن بعد الزنبقة السوداء!

وقبلت وسمحت يداها الدافئتان الناعمتان أن تمرا من خلال الحاجز والقضبان الحديدية لتقعا بين شفتي "كورنيليوس" وقال:

ـ لا يا "روزا" بل حبك قبل كل شيء.

ـ هل عليّ أن أصدقك؟

ـ كما تؤمنين بالله.

ـ لكن.ز أن تحبني! ألا يكلفك هذا الكثير؟

ـ بل القليل يا "روزا"

إن الكثير يلزمك أنتِ! وسألت "روزا":

ـ يلزمني أنا؟

يلزمك أن لا تتزوجي.. وابتسمت وقالت:

ـ آه.. هذا هو أنت؟ أنتم الظالمون! أنت تحب جميلةً! لا تفكر إلا بها، ولا تحلم إلا بها لقد حكم عليك بالإعدام، وخصصت لها تهيداتك الأخيرة! ثم تطلب مني أنا الفتاة المسكينة أن تضحي بأحلامها وطموحاتها. وقال "كورنيليوس" وهو يبتسم:

عن أي جميلة تتحدثين يا "روزا"؟ وراح يبحث في ذاكرته بدون جدوى عن امرأة جميلة استطاعت "روزا" أن تلمح بها!

ـ إنها السيدة السوداء يا سيدي! السيدة الجميلة السوداء ذات الخصر الملون والأقدام الناعمة والرأس الذي امتلأ نبلاً. أتحدث وأقصد زهرتك.. وابتسم "كورنيليوس"

يا له من خيال رائع يا "روزا" أما أنت ولا أذكر حبيبك "جاكوب" أنت محاطة بالشباب الأنيق الذي يشكل مجلسك.. هل تذكرين ما قلته لي: طلاب، موظفون محكومون، هناك في "لاهاي" أما هنا في "لوفستان" ألا يوجد محكومون وموظفون وطلاب؟ وقالت "روزا"

ـ نعم ـ وعددهم كبير!

ـ هل يكتبون لك؟

ـ نعم يكتبون

الآن غدوت تحسنين القراءة.. وتنهد "كورنيليوس" وهو يفكر أنها بفضله تعلمت القراءة لتلك البطاقات اللطيفة التي تتلقاها. وقالت "روزا":

يبدو لي يا سيد "كورنيليوس" وأنا أقرأ البطاقات التي تردني، أنني أتفحص الشاب الذي سيتقدم إلي فلا أتبع سوى تعليماتك. وقال "كورنيليوس":

ـ تعليماتي؟ وكيف ذلك؟ وتابعت "روزا" وهي تتنهد بدورها:

نعم.. هل نسيت وصيتك التي كتبتها على ورقة توراة "كورنيل دوويت" فبعد أن تعلمت القراءة صرت أقرؤها مرتين كل يوم. وهي في هذه الوصية أن أحب وأتزوج شاباً له ست وعشرون أو سبع وعشرون سنة، وأنا الآن أبحث عن هذا الشاب وطالما خصصت طيلة يومي لزنبقتك وأرجو أن تترك لي الأماسي لأبحث عنه!

ـ آه يا "روزا" إن وصيتي كانت على أساس أنني سأموت ولكني الآن لا أزال أعيش والحمد لله.

ـ إذن.. سأتخلى عن الشاب ذي الست والعشرين عاماً وأحضر لأراك.

ـ آه يا "روزا".. نعم.. تعالي..

ـ هناك شرط لحضوري.

ـ شرطك مقبول سلفاً

ـ أن لا تتحدث عن الزنبقة السوداء ثلاثة أيام متتالية.

لن نتحدث عنها أبداً إن كنت تريدين ذلك يا "روزا"! وقالت الصبية:

آه.. علينا أن نطلب المستحيل.. ودنا وجهها صدفة قريباً جداً من الحاجز بحيث استطاع "كورنيليوس" أن يلمسه بشفتيه. وأطلقت "روزا" صيحة خافتة تطفح بالحب ـ وانطلقت مسرعة.

الفصل الواحد والعشرون

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الفصل الثاني

كانت ليلة جميلة وكان الصباح أجمل ... ولكن في الأيام التي تلت عدا السجن ثقيلاً معتماً، عميقاً ناء بكل ثقله على السجين المسكين، جدرانه سوداء، وهواؤه بارد وقضبانه متقاربة تكاد تمرر بصعوبة بعض الضوء. وعندما بزغ فجر اليوم التالي وألقى الشرق ذهبه فغطى رؤوس الأشجار وأسطحة المنازل، استيقظ "كورنيليوس" على شعاع كان يلهو من خلال قضبان النافذة وعلى صوت بعض الحمائم تشق الهواء بأجنحتها المنبسطة وقد هوى

العض الآخر بحب فوق سطح الجوار قرب نافذة لا تزال مغلقة.

وأسرع "كورنيليوس" إلى هذه النافذة وفتحها وبدا له أن الحياة، والفرح والحرية قد دخلت مع هذا الشعاع إلى غرفته المعتمة، فالحب يجعل كل شيء يزهر حوله، الحب زهرة اللّه المتألقة والأكثر عطراً من كل أزهار الأرض، فعندما دخل "غريغوس" إلى غرفة السجين وجده يترنم بلحن "أوبرالي" لطيف بدلاً من أن يجده تعيساً كئيباً، مستلقياً على سريره كما وجده في اليوم السابق. نظر إليه "غريغوس" خفية وسأله:

ـ إيه .. يا أنت!

ـ كيف حالك هذا الصباح؟ فأرسل إليه "غريغوس" نفس النظرة:

ـ كيف حال الكلب؟ وحال السيد "جاكوب" و"روزا" الجميلة! كيف حالكم جميعاً؟ وصرّ "غريغوس على أسنانه وقال:

ـ إليك طعام الإفطار.

شـكراً يـا صـديقي "غريغـوس" لقـد جـاء في الوقـت المناسب فأنا جائع جداً. وسأله "غريغوس"

ـ أنت جائع؟ هل هذا صحيح؟ وسأله "فان بيرل":

ـ ولماذا لا أكون؟ وقال "غريغوس":

ـ يبـدو أن مؤامرتـك تسـير بشـكل جيـد.. وسـأله "فـان بيرل" :

ـ أية مؤامرة؟

حسناً.. نحن ندرك ما نقول! سنراقبك سيدي العالم، كن مطمئناً. وسوف ترى! فقال "فان بيرل"

سـيد "غريغـوس" تفضـل يـا صـديقي فأنـا ومـؤامرتي تحت تصرفك. فقال "غريغوس":

ستعرف هذا عند الظهر.. وخرج وردد "فان بيرل":

ــ عنـد الظهـر! مـاذا يريـد بهـذا؟ فلـيكن.. لننتظـر الظهر.. وفتح الباب ودخل منه "غريغوس" ومعه ثلاث رجال: أغلق البـاب خلفهـم.. الآن، لنبحـث ونفتش. وقـاموا بتفتـيش "كـورنيليـوس" في جيوبـه وبـين ردائـه وصـدارته، وبـين صـدارته وقميصـه وبـين قميصـه وجلـده فلـم يجـدوا شـيئاً. وهنـأ "كـورنيليـوس" نفسـه إذ لم يأخـذ الفـص الثلـث فلـو

وجـده "غريغـوس" في هـذه الحملـة لعمـل فيـه كمـا عمـل بالفص الأول. وعلى كل حال، فلم يكن أي سجين صافي الوجه، نقي السرير مثل "كورنيليوس" خلال هـذه الحملـة في غرفتـه.. وانسـحب "غريغـوس" حـاملاً معـه قلمـاً وبعـض الأوراق جلبتها له "روزا" الغنيمة الوحيدة التي ربحها في هذه الحملة. وعاد "غريغوس" وحده في الساعة السادسة، وأراد "كورنيليوس" أن يهدئ من ثائرته، لكن "غريغوس" زمجر وأبـرز لـه نابـاً مـن زاويـة فمـه وخـرج متراجعـاً إلى الخلـف.. وضج "كورنيليوس" بالضحك ونـاداه "غريغـوس" مـن خـلال القضبان ـ وهو يعرف بعض الشعر ـ :

ـ حسـناً حسـناً اضـحك مـن يضـحك كـثيراً هـو مـن يضحك أخيراً.

والواقـع أن مـن يضـحك أخـيراً هـذه الليلـة هـو "كورنيليوس" إذ أنه ينتظر "روزا".

ففـي تمـام السـاعة التاسـعة حضـرت "روزا" بـدون مصباح، فقد غدت تعرف القراءة، ومن ثم فالمصباح يشي بها سيما وهي مراقبة بشدة من قبل "جاكوب" وأن الضوء يكشف عن وجهها عندما يصعد إليه الاحمرار ـ بماذا

سيتحدث الشابان هذا المساء؟ سيتحدثان عن أشياء يقولها العشاق على عتبة الباب في فرنسا أو على جانبي مشرقتين في إسبانيا، أو من الأعلى إلى الأسفل كما يحدث في الشرق. سيتحدثان عن أشياء تجعل لأقدام الساعات أجنحة وتضيف ريشاً جديداً لأجنحة الزمان، تحدثا عن كل شيء عن الزنبقة السوداء، ثم افترقا كالعادة في تمام الساعة العاشرة. وكان "كورنيليوس" سعيداً، سعيداً جداً كما يمكن أن يكون زارع الزنبق لم يتحدث له أحد عن زنبقته، ووجد "روزا" رائعة جداً ـ مثل كل المحبين على وجه الأرض ـ وجدها طيبة، ساحرة، ولكن لماذا ترفض الكلام عن الزنبقة؟ ذلك عيب كبير فيها ـ وفكر "كورنيليوس" وهو يتنهد لأن المرأة لا يمكن أن تكون كاملة". وبقي بعضاً من ليلة يفكر في هذه النقيصة مما يعني أنه يفكر فيها في صحوه ويحلم بها في منامه.. ولكن "روزا" في الحلم هي غيرها في الحقيقة فهي كاملة لا عيب فيها، ليس لأنها تتحدث عن الزنبقة، لكنها أيضاً تحمل إليه زنبقته السوداء متفتحة في إناء صيني.. واستيقظ "كورنيليوس" مضطرباً فرحاً وهو يصيح: "روزا" "روزا" أنا أحبك. ففي فجر اليوم التالي لم يفكر أن يعود للنوم

وبعدها استيقظ بقي طيلة يومه لا يفكر إلا بالحلم الذي خطر له وهو نائم.

ـ آه لا تتحدث "روزا" عن الزنابق لو كانت تتحدث لفضلتها عن الملكة "سميراميس" وعن الملكة "كليوباترة" وعن الملكة "إليزابيت" وعن الملكة "آن دوتريش" مما يعني أنه يفضلها عن أعظم وأجمل ملكات العالم. ولكن ؟روزا" منعت الكلام عن الزنبق ثلاثة أيام مهددة له بعدم العودة إليه. كانت المهلة اثنان وسبعون ساعة لكنها اثنان وسبعون ساعة حذفت من حياة زارع الزنبق. حقاً، لقد فات منها ست وثلاثون ساعة وستمضي الست وثلاثون الباقية سريعاً. ثمانية عشر ساعة تنتظرها وثمانية عشر نتذكرها. وعادت "روزا" إليه في نفس الوقت. وتحمّل "كورنيليوس" عقوبته بصبر إذ كان من أنصار العالم "فيثاغورس" وتميز في ذلك!

فقد سمح له أن يسأل عن زنبقته مرة واحد في اليوم وهو الذي ـ حسب رواية من ذكر القصة ـ أنه لم يفكر بشيء آخر خلال خمس سنوات مضت. وبقي أن تعرف أن زائرته تدرك أنها عندما تأمر وتطاع في جانب فعليها أن تطيع من جانب آخر، لذلك سمحت "روزا" "لكورنيليوس"

أن يسحب أناملها من النافذة ويقبل شعرها من خلال الحاجز. فيا للطفلة المسكينة فهذا التساهل الغرامي أخطر من الحديث عن الزنبقة.. وفكرت بذلك وهي فر طريق عودتها وقلبها يكاد يقفز من مكانه وخدودها تلتهب، شفاهها جافة ومبللة المآقي. وفي اليوم التالي بعد تبادل الكلمات المعتادة وتبادل المداعبات اللطيفة، ألقت على "كورنيليوس" نظرة، يشعر بها المرء عندما لا يرى في عتمة الليل، وقالت:

- حسناً.. لقد كبُرت! وسألها "كورنيليوس":

لقد كبرت؟ من هي؟ وهو لا يكاد يصدق أن "روزا" قد اختصرت تجربته في زراعة الزنبق ولخصتها.. فقالت:

- الزنبقة!! وصاح "كورنيليوس":

كيف؟ هل تسمحين إذن أن نتحدث عنها؟ وردت "روزا" بصوت أم رؤوم تسمح لابنها بالفرح. وقال "كورنيليوس" وهو يمد فمه من خلال الحاجز آملاً أن يمس أحد خديها، أو يديها، أو جبينها أو أي شيء منها. وأفضل من كل هذا مس شفتيها المنفرجتين قليلاً، فأطلقت "روزا" صيحة خفيفة، وأدرك "كورنيليوس" أن

هـذا التمـاس غـير المقصـود قـد أفـزع "روزا" فأسـرع لمتابعـة الحوار.. وقالت "روزا"

- نعم .. لقد غدت كالمغزل..

- هل هـي طويلة؟

- بقدر أصبعين على الأقل!

- آه - اعتني بها يا "روزا" وسترين كيف تنمو بسرعة.

- هل أستطيع أن لا أهتم بها - وأنا بدوري لا أفكـر إلا بها.

- إلا بها؟ احذري يا "روزا" فأنا أيضاً بدأت أغار..

أنت تعرف أنني عندما أفكر بها فأنا أفكر فيك، لا أبعـد نظـري عنهـا، أراهـا وأنـا في سـريري، أراهـا عنـدما أستيقظ هـي أول شيء تقع عيني عليـه، وآخـر شـيء أتأملـه عندما أنام في النهار أشتغل وأعمل بقربهـا، ومنـذ أن غـدت في غرفتي لا أغادر هذه الغرفة.

أنت على حق يا "روزا" هل تذكرين أنها مهرك

نعـم وبفضـلها أسـتطيع أن أتـزوج شـاباً ذو عشـرين أو ثمان وعشرين عاماً وأحبه

هيـا.. اصـمتي يـا مـاكـرة! وتمكـن "كـورنيليـوس" أن يطول أصابع الفتاة مما غير اتجاه الحديث.. وتلا الصمت هذا الحوار.

هذا المساء كان "كورنيليوس" أسعد رجل في العالم، فقد تركت "روزا" له يدها وتحدث عن الزنبق كما يحلو له. وبعد ذلك..؟ كان كل يوم يحمل جديداً في تطور الزنبقة وفي حب هذين الشابين، ففي يوم تتفتح الأوراق وفي آخر تزهر الزهرة وتبرعم ـ وسر "كورنيليوس" كثيراً لهذه الأخبار وتسارعت أسئلته عنها نظراً لأهميتها

فهل عقدت.. هل أعقدت وكررت "روزا"

نعم قد تبرعمت وكاد "كورنيليوس" يطير فرحاً وترنح فأمسك بالنافذة وصاح:

آه.. يا رب.. ثم عاد إلى "روزا"

هل ظهر المعيّن بشكل منتظم وهل الأسطوانة ملأى؟ وهل لم تظهر الرؤوس بعد؟

ــ المُعيّن بقدر أصبع ويبزغ الإبرة وتتفتح جدران الأسطوانة

والرؤوس تكاد تنفتح. ونام "كورنيليوس" قليلاً هذه الليلة فإن تفتح الرؤوس هو موقف رائع..

وبعد يومين، أعلنت "روزا" أن الرؤوس قد تفتحت.. وصاح "كورنيليوس"

تفتحت يا "روزا"؟ هل تفتحت الشعيرات حولها؟ هل يمكن أن نراها الآن؟ وتوقف السجين وهو يلهث.. وردت "روزا":

نعم يمكننا أن نلاحظ خيطاً رفيع كالشعرة عن لون مغاير. وسأل "كورنيليوس":

ـ ما لونه؟

ـ إنه قاتم جداً

ـ رمادي؟

ـ بل أكثر قتامة

ـ أكثر قتامة يا "روزا"؟ شكراً لك.. قاتم كالأبنوس؟

قاتم كالحبر الذي كتبت لك فيه. وأطلق "كورنيليوس" صرخة فرح ثم توقف، تشابكت يداه وقال ـ أعتقد أنه لا يوجد في السماء ملاك يمكن أن يقارن بك.

وابتسمت "روزا" لهذه الملاحظة وقالت:

ـ أحقاً تقول؟

ـ "روزا"! لقد قمت بالكثير من أجلي، لقد تعبت كثيراً، زنبقتي، ستزهر سوداء "روزا" أنت أكمل خلق الله على وجه الأرض..

ـ ومع ذلك بعد الزنبقة السوداء!

اصمتي ـ يا لك من سيئة، اصمتي رحمة بي، لا تشوهي فرحتي، وهل ستزهر الزنبقة خلال يومين أو ثلاثة أيام على الأبعد؟

ـ سوف تزهر غداً أو بعد غد.. وصاح "كورنيليوس" وهو يتراجع إلى الخلف!

آه.. ألا أستطيع أن أراها؟ ألن أقبلها كمعجزة إلهية يجب أن نعبدها كما أقبل يديك يا "روزا"؟ كما أقبل شعرك، كما أقبل وجنتيك عندما تكون قريبة من نافذتي ودفعت "روزا" بوجنتيها قرب النافذة قريباً من شفتي الشاب ـ ليس مصادفة هذه المرة ـ لكن بكامل إرادتها فالتصقت بهما بشغف. وقالت "روزا":

سأقطفها إن أردت ذلك!

آه.. لا.. لا يا "روزا" ليس قبل أن تتفتح، ضعيها في الظل يا "روزا" وأرسلي إلى "هارلم" من يخبر رئيس الجمعية الزراعية أن الزنبقة السوداء قد تفتحت.. هارلم، مكان بعيد لكن بالمال يمكنك أن تجدي رسولاً.. هل لديك دراهم؟ وقالت "روزا":

نعم.. معي ثلاثمائة فلوران!

إن كنت تملكين حقاً ثلاثمائة فلوران فلن تحتاجي إلى رسول، أنت نفسك، عليك أن تذهبي إلى "هارلم"

ـ والوردة في ذلك الوقت؟

ـ سوف تحمليها معك ـ أتفهمين؟ عليك ألا تفارقيها ولو لحظة واحدة. وقال "روزا" بأسى:

ـ إذا لم أرد مفارقتها فعلي أن أفارقك أنت

ـ هذا صحيح ـ يا عذبتي "روزا".. آه يا إلهي ماذا فعلت حتى يحرمونني من حريتي! ما أكفر الناس ـ أنت على حق يا "روزا" فأنا لن أستطيع الحياة بدونك.. إذن أرسلي أحدهم إلى "هارلم" إن المعجزة كبيرة وتستحق أن يحضر رئيس الجمعية بنفسه إلى "لوفستان" بحثاً عنها سوف يحضر بنفسه إلى هنا. وتوقف فجأة وقال بصوت مرتجف:

ولكن.. يا "روزا" ماذا لو لم تكن سوداء؟

ستعرف ذلك، غداً أو بعد غد!

هل أنتظر للمساء حتى أعرف ذلك؟ سأموت من فراغ الصبر. ألا نستطيع أن نقرر ذلك بإشارة ما؟

ـ سأبذل جهدي.

ـ ماذا ستفعلين؟

إذا تفتحت بالليل.. سأحضر بنفسي لأخبرك أما إذا تفتحت بالنهار سأمر أمام غرفتك وأضع لك بطاقة من تحت الباب أو من النافذة بين زيارة أبي الأولى والثانية

ـ آه يا "روزا" كلمة منك تنقل إلي الخبر تجعل سعادتي مزدوجة.

ـ ها هي الساعة العاشرة وعلي أن أتركك وقال "كورنيليوس":

ـ نعم.. نعم.. اذهبي يا "روزا" اذهبي..

انسحبت "روزا" وهي تكاد تكون حزينة وكأنه قد أبعدها عنه.. لكن في الحقيقة أنه من أجل أن تسهر على الزنبقة السوداء..

الفصل الثاني والعشرون

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

التفتّح

ومضى الليل هادئاً ولكن "كورنيليوس" كان منفعلاً إذ يبدو له في كل لحظة أنه يسمع صوت "روزا" العذب تناديه فينهض مذعوراً ويسير نحو الباب، ويدنو بوجهه من النافذة فيرى النافذة خالية والممر خاوي.. و"روزا" من جهتها كانت ساهرة أيضاً، كنها كانت أسعد منه.. فهي تسهر على الزنبقة.. أمامها وتحت نظرها، تلك الزهرة النبيلة، عجيبة العجائب التي لا تزال مجهولة، وغير ممكنة أيضاً. فعندما سيعرف الناس أن الزنبقة السوداء قد وُجدت فعلاً، وهي كائنة الآن وأن السجين "كورنيليوس" هو الذي وجدها، وقد رفض مرة عرض رجل عليه حريته مقابل الزنبقة.. وطلع الفجر دون جديد فالزنبقة السوداء لم

تزهـر بعـد.. ومضـى ليـل آخـر وغـدت "روزا" فرحـة خفيفـة رشيقة كالعصفور وسألها "كورنيليوس"..

حسناً... ماذا..؟

حسناً كل شيء يسير بشكل جيد ستزهر زنبقتك هذه الليلة حتماً..

هل ستزهر سوداء؟

سوداء كالأبنوس

ـ دون أي بقعة من لون آخر

ـ دون أي بقعة.

ـ بفضـل اللّه يـا "روزا" بفضـل اللّه قضـيت لـيلتي وأنـا أحلم بك أولاً..

وقامت "روزا" بإشارة تدل على عدم التصديق.. ومـن ثم ماذا علينا ان نعمل؟

ـ ماذا؟

ـ إليـك مـا قـررت القيـام بـه الزنبقـة تفتحـت عنـدما أتأكد من أنها سوداء تماماً عليك أن تجدي موفداً.

ـ إذا لم يكن هذا الأمر فأنا عندي رسول.. رسول أمين؟!

رسول هو واحد من أحبائي..

ـ آمل أن لا يكون "جاكوب؟

لا كن مطمئناً.. إنه ربان "لوفستان" شاب خفيف الحركة له من العمر ست وعشرون سنة

ـ يا للشيطان!

كم مطمئناً، لم يبلغ بعد العمر الذي حددته ست وعشرون

أخيراً.. هل يمكنك أن تثقي به تماماً؟

كما أثق بنفسي، هو مستعد لأن يلقي بنفسه في نهر "الوال والموز" إذا طلبت إليه ذلك.

حسناَ يا "روزا" أيستطيع هذا الشاب أن يكون في "هارلم" خلال عشر ساعات، أعطني قلماً وورقة وأفضل ريشة وحبراً ـ سأكتب أو بالأحرى أنتِ ستكتبين لرئيس الجمعية الزراعية وأنا واثق أن الرئيس يحضر إلى هنا؟

ولكن.. ماذا لو تأخر؟ لنفرض أنه تأخر يوماً أو يومين

ـ ولكن هذا لن يحدث ـ فهو عاشق زنبق لن يتأخر ساعة

واحدة ولا دقيقة ولا ثانية. وستبقى الزنبقة بكامل روعتها. فإذا ما رأى الرئيس الزنبقة يرفع تقريراً يقول فيه كل شيء. تحتفظين بنسختين من التقرير يا "روزا" وتسلميه الزنبقة ـ آه لو نستطيع أن نحملها له بنفسنا فلا أنتزعها من يدي إلا لأضعها بين يديكِ.. ذلك حلم علينا أن نفكر به.. ثم تابع وهو يتنهد:

قد يحلم البعض بأن يراها تذبل! آه لا تدعي أحداً يراها قبل أن يراها الرئيس يا إلهي.. لو رآها أحد.. هذه الزنبقة السوداء لسرقها.. آه.. ألم تذكري لي بنفسك خشيتك من السيد "جاكوب" إن من يسرق "فلوران" يسرق مئة ألف منها!

ـ هيا سأسهر على ذلك.. كن مطمئناً!

ـ ماذا لو تفتحت وأنت هنا؟ وقالت "روزا":

ـ هذه الخبيثة! قد تعملها!

ـ ماذا لو رأيتها متفتحة عندما تعودين؟

ـ ماذا؟

تذكري يا "روزا" ما إن تتفتح عليك أن لا تضيعي وقتاً وتخبري الرئيس، وتنهدت بمرارة.

ـ وأخبرك أنت أيضاً.. أنا أعرف هذا!

وتنهدت "روزا" ولكن بدون حرارة هذه المرة. فقد عرفت مواطن الضعف عنده وقررت أن تعتاد عليها. وقالت:

سيد "كورنيليوس" لا أدري بمن أقارنك؟ أنت معجزة من السماء أم من الأرض؟

ـ آه يا "روزا" سأعود إلى جانب الزنبقة وأخبرك عندما تتفتح. وعندما أخبرك أكون قد أرسلت الرسالة

ـ قارنني مع الزنبقة السوداء ـ واتسم لك سأعتز بذلك! والآن إلى اللقاء!

ـ إذن.. قولي إلى اللقاء يا صديقي! وقالت "روزا" وقد شعرت ببعض العزاء!

ـ إلى اللقاء يا صديقي.

ـ أرجوك يا "روزا" قولي حبيبي ـ يا حبيبي الغالي ـ أليس كذلك يا "روزا". قالت "روزا" وقد انتشت فرحاً:

ـ نعم يا حبيبي الغالي، يا حبيبي العزيز..

الآن وقد قلت يا حبيبي الغالي، حبيبي السعيد جداً سعادة لم يعشها رجل من قبل، مبارك من السماء، لا ينقصه سوى شيء واحد يا "روزا"

ما هو؟

وجنتيك يا "روزا" وجنتك اللدنة المزهرة، وجنتك المخملية ـ أريدها برغبتك يا "روزا" وليس مصادفة ولا مفاجأة كالسابق ـ آه يا "روزا" وختم السجين ابتهالاته بتنهيدة حارة والتقى بشفتي الفتاة الشابة برغبة صادقة كما حدث تماماً بعد مئة من الأعوام عندما التقت شفتا "سان برو" بشفتي "جولي" وركضت "روزا" وبقيت روح "كورنيليوس" معلقة بشفتيه ووجهه ملتصق بالنافذة.

كان "كورنيليوس" يكاد يختنق غبطة وسعادة، فتح النافذة وراح يتأمل سماءً صافية لا سحاب فيها والقمر يغسل النهر بأمواج فضية تسيل خلف الهضاب، وملأ رئتيه بتلك الأنسام السمحة النقية، وفاضت نفسه بأعذب الأفكار وروحه بالعرفان والحب الإلهي، وقال وقد طفح قلبه سروراً تتجه عيناه نحو السماء.

سامحني يا رب.. اغفر لي شكي بك في هذه الأيام الأخيرة.. لقد اختبأت خلف هذه السحب لوقت ما..لم أعد أراك فيه.. آه يا ربي أنت هناك، دائماً في الأعالي أيها الرب الطيب، أيها الرب الرحيم.. اليوم. في هذا المساء

سأراك، في هذه الليلة سأراك كاملاً في مرآة سمائك، سيما في مرآة قلبي.. لقد شفي "كورنيليوس" المريض وغدا وكأنه كان حراً خارج السجن. وبقي بعضاً من الليل متعلقاً بحديد النافذة يصيح السمع. وجمع كل حواسه في حاستين فقط: ينظر .. ويصغي. ينظر إلى السماء ويصغي إلى الأرض. يوجه نظره أحياناً إلى الممر. ويفكر:

في الأسفل .. هناك "روزا" ساهرة مثلي تنتظر من دقيقة لأخرى. هناك في الأسفل، تحيى الزهرة القريبة تحت أنظار "روزا". وتتفتح الآن في الأسفل ـ "روزا" تمسك بيدها الرقيقة الدافئة ساق الزنبقة بلطف، ترى هل تمس كؤوس الزهرة بشفتيها، تمسها بلطف وحذر؟

"روزا" "روزا" إن شفتيك تحرقان.. وقد تلامس الآن حبيبتاي تحت نظر الإله..

في هذا الوقت برقت نجمة في السماء من جهة الجنوب وتجاوزت الفضاء بين الأفق والقلعة وجاءت لترتمي على "لوفستان" واضطرب "كورنيليوس"

إن الله يرسل روحاً إلى زنبقتي! وكما لو كان تنبؤه صحيحاً فقد سمع في الوقت نفسه صوتاً في الممر ـ خطىً

رشـيقة كمـا لـو كانـت خطـة سِلفة (وهـي أنثـى حيـوان خرافي) وحفيف ثوب كأنـه رفيـف جنـاحين وصـوتاً مألوفـاً يقول:

"كورنيليـوس".. يـا صـديقي، صـديقي الحبيـب، صديقي السعيد، تعال، تعال سريعاً..

وبقفزة واحدة صار قرب النافذة والتقت شفتاه بشفتي "روزا" وهي تتمتم له خلال القبلة:

لقـد تفتحـت! هـي سـوداء تمامـاً ـ إليكهـا.. وانتـزع شفتيه من شفتيها وهو يقول:

أصحيح!

ـ نعـم، نعـم، علـى المـرء أن يتعـرض لخطـر قليـل ليكسب فرحاً كبيراً ـ ها هي ـ خذها.

ورفعت يـدها بالقنـديل علـى مسـتوى النافـذة، ورفعـت باليد الأخرى الزنبقة المعجزة ـ وأطلق "كورنيليوس" صيحة عالية وشعر كأنه سيغيب عن الوعي.

ـ آه يا رب ـ يا إلهي ـ إنك تثيبني على براءتي وأسري فانبت هاتين الزهرتين على نافذة سجني. وقالت "روزا":

قبّلها يا "كورنيليوس" لقد قبّلتها الآن.

والتقط أنفاسه ولامس بطرف شفتيه تويج الزهرة.. ولا توجد أي قبلة على شفتي امرأة ـ حتى ولو كانت "روزا" تدخل إلى قلبه بهذا العمق. كانت الزنبقة رائعة وسامية يزيد طولها عن ثمانية عشر إصبعاً، تنطلق من أربعة أوراق خضراء صقيلة مستقيمة مثل حديد الرمح سوداء تماماً تتألق كالأبنوس. وقال "كورنيليوس" خافق القلب.

"روزا".. "روزا" علينا أن لا نضيع وقتاً، علينا أن نكتب الرسالة. وقالت "روزا":

ـ لقد كتبتها يا حبيبي

ـ أحقاً كتبتيها

كنت أكتب بينما كانت الزنبقة تتفتح إذ لم أرد أن أضيع الوقت. اقرأ الرسالة وقل لي.. هل هي جيدة؟ وامسك "كورنيليوس" الرسالة وقرأها ولاحظ أن خطها قد تحسن كثيراً بعد تلك الكلمة القصيرة التي كتبتها له.

" إن الزنبقة السوداء ستتفتح خلال عشرة دقائق، عندها سأرسل لك موفداً يرجوك أن تحضر لتراها شخصياً في قلعة "لوفستان" أنا ابنة السجان "غريغوس" سجينة في سجن أبي لذا لا أستطيع أن أحمل لك هذه

المعجزة. فأرجو أن تحضر لتأخذها بنفسك. آمل أن تطلق عليها اسم "روزا برلنيس" ـ لقد تفتحت ـ هي سوداء تماماً، احضر يا سيدي، تعالَ ولي الشرف أن أكون خادمتك المتواضعة."

"روزا غريغوس"

هذا هو المطلوب يا "روزا"! تلك رسالة رائعة، لو كنت أنا لما كتبتها بهذه السهولة، هناك في الجمعية ستقدمين لهم كل المعلومات التي يطلبونها سوف يعرفون كيف تكونت الزنبقة وكم كلفتنا من جهد واهتمام وسهر وخوف.. ولكن الآن علينا أن لا نضيع وقتاً.

ما هو اسم رئيس الجمعية؟

هاتيها ـ لأكتب لك العنوان: السيد "فان سيستين" مختار "هارلم" أعطني الرسالة يا "روزا" أعطنيها. وكتب "كورنيليوس" على الرسالة بيد مرتجفة:

إلى السيد "بيتر فان سيستين" رئيس الجمعية الزراعية في "هارلم" وقال "كورنيليوس"

اذهبي الآن يا "روزا" ولنتوكل على اللّه الذي حمانا وحفظنا حتى الآن.

الفصل الثالث والعشرون

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الحسود

كان هذان الشابان الآن أحوج ما يكونان إلى حماية إلهية إذ لم يكونا في أي وقت من الأوقات أقرب لليأس كما هما الآن، فهنا يعتقدان أنهما واثقين من السعادة.

لكننا لا نشك بنباهة قارئنا إذ يتأكد أن السيد "جاكوب" ليس إلا صديقنا القديم، أو عدونا القديم "إيزاك بوكسل" وقارئنا يعرف أنه جاء إلى "بيتانهوف" ثم عاد إلى "لوفستان" متتبعاً موضوع حبه وموضوع بغضه، موضوع حبه للزنبقة السوداء وموضوع بغضه "كورنيليوس فان بيرل". ولا يمكن لزارع زنبق حسود مثل هذا إلا أن يعرف وجود الفصوص ويعرف طموح السجين. فالحسد هو الذي جعله يعرف هذا أو يتنبأ به على الأقل. كما رأيناه

سعيداً جداً باسمه "جاكوب" أكثر منه اسم "اسحق" ليتبادل الصداقة مع "غريغوس" الذي منحه العرفان بالجميل وحسن الضيافة لعدة أشهر إذ يقدم له أفضل مشروب صنع من "تيكسيل إلى آنفير" فهجعت شكوكه وحذره ـ لأن "غريغوس" كما رأينا كثير الشك والارتياب ـ فإذا زالت هذه الشكوك بدا بغريه بالارتباط مع "روزا".

وداعب غريزته كسجان عندما ساير غروره كأب! فرسم له أبشع صورة عن العالم السجين الذي يمسك به "غريغوس" تحت مزلاجيه- والذي كما قال عنه "جاكوب" الكاذب: أنه تعاقد مع الشيطان ليسبب الأذى لفخامة الأمير "أورانج" وقد نال، في بادئ الأمر حظوة عند "روزا" فهو لم يحادثها عن مشاعر ودية لأنها ـ ومنذ البدء ـ لم تحب هذا "الجاكوب" بل تكلم عن الزواج وعن العشق المجنون مما قلل كل ذرة شك قد تتكون لديها. ورأينا عدم تبصره عندما تبع "روزا" إلى الحديقة مما زرع الشك في عيون الفتاة وزرع الخوف الغريزي لدى "كورنيليوس" مما جعل الشابين يأخذان حذرهما منه.

ومما زرع القلق في نفس السجين ـ وليذكر القارئ ذلك ـ ذلك الغضب الشديد الذي استولى على "جاكوب"

مـن "غريغـوس" عنـدما علـم بقصـة الفـص الـذي هرسـه. وفي هـذا الموقـف رغـم غضـبه الشـديد فقـد شـك بـأن لـدى "كورنيليـوس" فضـاً آخـر لكنـه مجـرد شـك.. ولم يكـن متأكداً من ذلك، مما جعلـه يتجسـس علـى "روزا" لـيس في الحديقـة فقـط بـل في آخـر الممـرات.. وتبعهـا مـرة في الليـل حافي القدمين فلم يره أو يسمعه أحد، لكـن في هـذه المـرة ظنت "روزا" أنها رأت شيئاً يمر كالشبح.

ولكـن.. جاء ذلك متـأخراً، فقـد سمـع "بوكسـل" ومـن فـم السـجين نفسـه أن لديـه فصـاً آخـر وخـدع بالحيلـة الـتي قامت بها "روزا" وتظاهرت بأنهـا تطمـره في تـراب المسـكبة وعرف أن هذه المهزلة التي قاما بها لكي يكشفوه، لذلك ضاعف احتياطاته واستعمل كل أساليب الدهاء ليتلصص على الآخرين دون أن يراقبوه بدورهم.

ورأى ذات يـوم "روزا" وهـي تحمـل إنـاءً كـبيراً مـن الخزف من مطبخ والدها إلى غرفتها كما شـاهدها تغسـل يـديها بمـاء غـدير مـن الـتراب الـذي مزجتـه مـن أجـل تهيئـة أفضـل سـرير للزنبقـة.. واسـتأجر أخـيراً غرفـة صـغيرة في سـقيفة مقابـل غرفـة "روزا" تمامـاً بحيـث لا يمكـن أن يـرى منهـا شـيء بـالعين المجـردة ولكنهـا مـن القـرب بحيـث

يستطيع "بوكسل" بمنظاره أن يرى ما يجري فيها وكل ما يحدث في "لوفستان" كما تابع ذلك في "دوردريخت" سابقاً كل ما كان يجري في غرفة تجفيف "كورنيليوس" حيث بقي ثلاثة أيام في غرفته وحيث لم يبق لديه أي شك.

فعندما تسطع شمس الصباح يكون الوعاء الخزفي على النافذة فيرى "روزا" تحيط بوجهها أوراق الدوالي الأولى الخضراء والعذراء ونبات زهر العسل شبيهة بتلك المرأة الساحرة في "ميريس وميتشو" فتلقي على الوعاء الخزفي تلك النظرة التي تشعر بأهمية الغرض الموجود فيه وقيمته. ما كان في الإناء، هو الفص الثاني .. الأمل الكبير للسجين – وفي الليل، عندما يهدد البرد تدخل "روزا" الإناء الخزفي إلى الغرفة. تتبع بدقة تعليمات "كورنيليوس" إذ كان يخشى أن يتجمد الفص من البرد لذلك كانت تدخل الفص عندما تشتد الحرارة من الساعة الحادية عشرة إلى الساعة الثانية بعد الظهر ويخشى أن يجف التراب حوله.

عندما يخرج البرعم من التراب يكون "بوكسل" متأكداً من ذلك. فالبرعم لا ينمو مقدار أصبع واحد إلا ويراه "بوكسل" بمنظاره ولم يعد لديه أي شك.

ولـدى "كـورنيليـوس" الآن فصـين أوكـل أحـدهمـا إلى حب "روزا" وعنايتها. ويمكننا القول أن حب هذين الشـابين لبعضـهما لم يخـف علـى "بوكسـل"! إذ أن هـذا هـو الفـص الثاني الذي علينا أن ننتزعه من حب "روزا" وعنايتهما وحـب "كورنيليـوس" ولنجـد طريقـة لانتزاعـه. ولـيس هـذا بـالأمر السـهل، "فـروزا" تسـهر علـى زنبقتهـا كمـا تسـهر الأم علـى طفلها والحمامة على بيوضها. ولا تغادر "روزا" غرفتها طيلـة النهار فلا تغادرها إلا في المساء، ولا غرابة في ذلك. بل بقـي "بوكسل" يتابع "روزا" سبعة أيام دون طائل عنـدما لا تخـرج مــن غرفتهــا أبــداً أيــام الاضــطراب الســيئة الــتي جعلــت "كورنيليوس" حزيناً وتعساً إذ لم تصله أخبار عـن "روزا" أو عن الزنبقة!

فهل ستبقى "روزا" مقاطعته ونائية عنه إلى الأبـد؟ فـإذا كان الأمر كذلك تغدو سرقة الزنبقة أكثـر صـعوبة ممـا تصـوره السـيد "اسـحق" ونقـول "سـرقة" لأن السـيد "اسـحق" قد نوقف عند هذا الموضوع وحزم أمره على سرقة الزنبقة.

وطالمــا أن الزنبقــة تنمــو في أعمــق الغرائــب ويخفــي الشــابان ســر وجودهــا عــن كــل النــاس لــذا فــإن النــاس ستصدقه لأنه هو زارع زنبق مشهور.. بينمـا "روزا" هـي بنـت

بعيدة كل البعد عن الزراعة والآخر سجين متهم بالخيانة العظمى يراقبوه بشكل جيد ويرصدون حركاته وسكناته ويمكن أن يقوموا باستجوابه وهو في أعماق زنزانته عندها يمتلك "بوكسل" الزنبقة كما يمتلك الأثاث والأشياء المنقولة، فالملكية هي التي تضع قوانين التملك، وسيحصل حتماً على الجائزة ويتوج بدلاً من "كورنيليوس" ويطلق على الزنبقة اسم الزنبقة السوداء البوكسلية بدلاً من اسم الزنبقة السوداء البرلنسية.. ولكن "اسمه" لم يحدد بعد الاسم الذي سيطلق على الزنبقة لأن الاسم لا يهم الآن.. المهم سرقة الزنبقة.

ولكي يتمكن من سرقة الزنبقة يجب أن تخرج "روزا" من غرفتها، لذلك فرح كثيراً عندما عرف مواعيد "روزا" المسائية وراح يستغل غيابها المسائي ليدرس باب غرفتها الباب مغلق جيداً بدورتي مفتاح وله مفتاح واحد مع "روزا" خطر له أن يسرق منها مفتاحها لكنه وجد هذا الأمر صعباً، فلو بحث في جيوبها وشعرت بفقده لعملت على تغيير القفل فلا تخرج من الغرفة قبل أن تبدله ويكون قد ارتكب جريمة بلا جدوى ـ إذن عليه أن يبحث عن وسيلة أخرى!!

جمع "بوكسل" كل المفاتيح التي استطاع أن يعثر عليها وعندما تكون "روزا" مع "كورنيليوس" في ساعة واحدة فجرب كل المفاتيح: دخل اثنان منهما بالقفل ودار أحدهما دورة واحدة وتوقف عند الثانية. فلم يبق عليه في هذه الحالة إلا القليل يفعله لهذا المفتاح فطلاه ببعض الشمع وأعاد المحاولة!

كانت العقبة أن المفتاح قد ترك بعضاً من الشمع على قفل الباب فما كان من "بوكسل" إلا أن نزعها بنصل له شفرة دقيقة كسكين حادة.

وبعد يومين من الجهد أصبح المفتاح جاهزاً تماماً وفتح باب غرفة الفتاة بدون صوت أو جهد ووجد "بوكسل" نفسه وحيداً في غرفة الفتاة مع الزنبقة..

كان أول عمل جرمي له في "دوردريخت" عندما اجتاز جداراً لكي ينزع زنبقة من التراب وثاني عمل أنه دخل غرفة تجفيف "كورنيليوس" من نافذة مفتوحة. والآن الثالثة.. دخل غرفة "روزا" بمفتاح مزيف. فالحسد هو الذي شجعه على السير بخطى سريعة نحو الجريمة.

إذن.. وجد "بوكسل" نفسه وحيداً مع الزنبقة.. ولو كان سارقاً لحل الإناء الخزفي وسار به، لكن "بوكسل" لم يكن لصاً عادياً بل أخذ يفكر وهو يتأمل الزنبقة على ضوء بطاريته.. ولم تكن متطورة بحيث تؤكد له إن كانت الزنبقة سوداء تماماً أم لا؟ رغم أن الظواهر تؤكد هذا الاحتمال. وفكر إن لم تزهر الزنبقة سوداء تماماً أو عليها بعض البقع تكون سرقته بلا فائدة وستنتشر قصة السرقة ويشككون في السارق كما جرى في حادث الحديقة، سيقومون بالأبحاث والتحقيقات وأينما خبأ الزنبقة فسوف يعثرون عليها ـ وفكر أيضاً أنه لو خبأ الزنبقة ولم يعثر عليها أحد فقد يحدث لها سوء من خلال نقلياتها.. وأخيراً رأى من الأفضل له ومعه المفتاح لغرفة "روزا" فيمكنه أن يدخلها متى شاء أن ينتظر حتى تتفتح تماماً فيأخذها قبل أن تزهر لساعة واحدة أو بعد أن تزهر مباشرة لينطلق بها سريعاً وفي الوقت المناسب تماماً إلى "هارلم" فتصل إلى حكام الجمعية قبل أن يبحثوا عنها: عندها من سيطالب بها ويتهم "بوكسل" بالسرقة؟!.

كان المخطط واضحاً وملائماً بكل بنوده.

إذن.. كـان "بوكسـل".. في كـل الأمسـيات اللطيفـة الـتي كـان الشـابان يقضـيانها أمـام نافـذة السـجن يـدخل غرفة الشابة لا لينتهك عذريتها ولكن ليتابع تقدم الزنبقـة السـوداء في فـترة تفتحهـا.. وفي مسـاء هـذا اليـوم حـاول أن يـدخل إلى غرفـة "روزا" مثـل كـل ليلـة لكـن الشـابين لم يتبادلا سوى بضعة كلمات وطلب "كورنيليوس" إلى "روزا" أن تعـود إلى غرفتهـا لتسـهر علـى الزنبقـة وعنـدما رأى "بوكسـل" "روزا" تعـود إلى غرفتهـا بعـد عشـرة دقـائق مـن خروجـه منهـا أدرك أن الزنبقـة السـوداء قـد تفتحـت أو أوشـكت أن تتفـتح.. إذن سـوف تـتم اللعبـة في هـذه الليلـة! فأحضـر "بوكسل" مؤونـة "غريغـوس" مـن الخمـر ضـعف مـا كـان يقدمـه لـه وهيـأ قـارورة في كـل جيـب وانتشـى "غريغوس" ونام، وغدا "بوكسل" سيد البيت كله تقريباً.. وفي تمـام السـاعة الحاديـة عشـر.. غـدا "غريغـوس" مخمـوراً حتى الموت. ففي الساعة الثانية صباحاً شاهد "روزا" خارجة من غرفتها تحمل شيئاً تحيطه بعناية فائقة هـذا الشـيء هـو حتمـاً الزنبقـة السـوداء وقـد تفتحـت.. ولكـن مـاذا تنـوي أن تفعل بها؟ هل ستذهب بها في مثل هذا الوقت إلى "هـارلم"؟

لا يمكن أن تغادر بيتها في مثل هذه الساعة من الليل وهـي وحيـدة في رحلـة كهـذه!! هـل ستريها إلى "كورنيليوس" فقط؟ .. وتبع "روزا" حافي القدمين يسير على أطـراف أصـابعه فرآهـا تقـترب مـن النافـذة وتنـادي "كورنيليوس". وعلى ضوء بطاريتها رأى الزنبقة متفتحة تماماً وسوداء كجنح الليل الذي تختبئ فيه واستمع إلى المشروع الذي وقفت "روزا" عنده بإرسال موفد إلى "هارلم" وشاهد الشابين وقد تلاقت شفاههما ورأى "كورنيليوس" يرسل "روزا" لتعود إلى غرفتها. وبعد ربع ساعة من هذا الوقت رآها تخرج من غرفتها من جديدي وتغلق الباب بدورتي مفتاح باعتناء شديد. ولماذا أغلقت الباب بكل هذا الاعتناء.. لأن خلفه الزنبقة السوداء! و"بوكسل" يشاهد كل هذا وهو قابع على مصطبة في الطابق العلوي فوق غرفة "روزا" فنزل من طابقه درجة واحدة ونزلت "روزا" من غرفتها مثلها وعندما وصلت إلى الدرجة الأخيرة كان "بوكسل" يلامس قفل باب غرفتها بيده التي تحمل المفتاح المزيف وقد فتح الباب كما يفتحه المفتاح الأصلي لا أكثر ولا أقل.. لذلك.. قلنا في مطلع هذا الفصل أن هذين الشابين المساكين بحاجة إلى حماية مباشرة من الله تعالى.

الفصل الرابع والعشرون

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

عندما غيرت الزنبقة السوداء صاحبها.. [الزنبقة السوداء تغير مالكها]

وبقي "كورنيليوس" في المكان الذي تركته فيه "روزا" باحثاً دون جدوى عن قوة إضافية ليتحمل عبء سعادته المزدوجة.. ومضت نصف ساعة وتسللت أوائل أشعة الشمس الزرقاء الندية من خلال قضبان النافذة إلى سجن "كورنيليوس" عندما ارتجف فجأة على صوت خطى تصعد الدرج وصياحاً يقترب منه.. وفي نفس الوقت التفت ليرى وجه "روزا" الشاحب والمفكك، وتراجع إلى الخلف وقد شحب وجهه لشدة اضطرابه وصاحت "روزا" وهي تلتقط أنفاسها:

"كورنيليوس" آه يا "كورنيليوس"! وسألها السجين بلهفة:

يا إلهي.. ماذا هناك.. قولي؟

"كورنيليوس" الزنبقة!

ماذا حصل لها.. قولي..!

يا إلهي - كيف أستطيع أن أخبرك؟

قولي.. قولي يا "روزا"!

لقد أخذوها - لقد سرقوها منا!

وقالت "روزا" وهي تستند إلى الحائط كي لا تقع!

نعم.. لقد سرقت.. لقد أُخذت! ورغماً عنها تراخت ساقاها فانزلقت وركعت على ركبتيها.. وقال "كورنيليوس":

- قولي! كيف حدث ذلك.. اشرحي لي!

ليس هذا ذنبي يا صديقي! ولم تجرؤ المسكينة أن تقول له يا حبيبي العزيز! وقال لها "كورنيليوس" بلهجة تدعو لرثاء!

- هل تركتها وحدها؟

وقتاً قليلاً جداً ذهبت فيه لأخبر رسولنا الذي يسكن على بعد أقل من خمسين خطوة من هنا على شاطئ نهر "الوال".

ورغم تعليماتي تركت المفتاح على الباب ـ يا للطفلة التعسة!

ـ لا ـ لا ـ أبداً. لم يفارقني المفتاح أبداً، أحمله بيدي باستمرار وأحافظ عليه وكأنني أخشى أن يهرب مني!

ـ إذن كيف حدث ذلك؟

أنا نفسي لا أعرف ـ أعطيت الرسالة للرسول وقد غادر أمامي، وعدت والباب مغلق وكل شيء في غرفتي في مكانه إلا الزنبقة اختفت. هناك شخص حصل على مفتاح آخر لغرفتي وصنع مفتاحاً مزيفاً لها. وقطعت كلامها إذ كادت أن تختنق بدموعها ـ وبقي "كورنيليوس" بلا حراك غائر الملامح يصغي ولا يفهم شيئاً وهو يهمهم:

لقد سرقت! لقد سرقت.. يا لضياعي ـ وصاحت "روزا"

رحماك يا "كورنيليوس" رحماك ـ أنا سأموت.. وعندما هددت "روزا" بذلك أمسك بحديد النافذة وهزه بعنف وصاح بغضب:

"روزا".. "روزا" لقد سرقوها لنا.. ولكن.. هل ندع أنفسنا نموت من أجل ذلك لا ـ إن المصيبة كبيرة، لكن علينا أن نتحملها، فنحن نعرف السارق!

ـ للأسف! كيف أستطيع أن أرد على ذلك بالإيجاب؟

ـ أنا أقول لك.. إنه السيد "جاكوب" الشرير.. هل ندعه يأخذ إلى "هارلم" خلاصة أتعابنا وثمرة جهدنا، نتاج سهرنا ووليد حبنا يا "روزا" يجب أن نتبعه يجب أن نعثر عليه!"

ـ وكيف يمكننا أن نقول ذلك لأبي ليعرف أننا متفاهمان! كيف تستطيع امرأة مثلي لا حرية كاملة لها، ولا مهارة جيدة، كيف أستطيع أن أبلغ هذا الهدف الذي لا يمكن أن تصل إليه نفسك!

ـ روزا.. روزا.. افتحي لي هذا الباب وسترين أنني سأصل إليه، سترين أني سأكشف السارق، سترين كيف سأجعله يعترف بجريمته، سترين كيف سأجعله يطلب الرحمة! وقالت "روزا" وهي تنخرط في البكاء..

ـ هل أستطيع أن أفتح لك الباب؟ هل توجد المفاتيح معي؟ لو كانت معي لكنت حراً منذ زمن طويل!

ـ إنها مع والدك الدنيء، ذلك الجلاد الذي هرس لي الفص الأول! يا للشقي وشريكه "جاكوب"!

ـ أخفض صوتك بحق السماء! وقال "كورنيليوس" وهو في ذروة غضبه.

ـ إن لم تفتحي لي يا "روزا" سأحطم هذا الحاجز وأقتل كل من في السجن..

ـ رحماك يا صديقي!

أقول لك يا "روزا" سأهدم الغرفة حجراً حجراً.. وبيدين ضاعف الغضب من قوتها أخذ "كورنيليوس" يهز الباب بعنف وبصخب كبير لا يبالي بصوته الرنان الذي انتشر في دوار البرج.. وارتاعت "روزا" وأخذت تحاول جهدها أن تهدئ هذه العاصفة المرعبة.. وجأر "فان بيرل" ـ أقول لك أنني سأقتل "غريغوس" الشرير وسأسيل دمه كما أسال دم زنبقتي السوداء. يا للمسكين ـ لقد بدأ يفقد صوابه.

وقالت "روزا" وهي شديدة الاضطراب:

حسناً.. حسناً.. سوف آخذ مفاتيحه، سأفتح لك الباب.. ولكن اهدأ يا "كورنيليوس":

ولم تكمل كلامها إذ سمعت صوت زئير قطع عليها الكلام فصاحت:

ـ إنه أبي.. وصاح "كورنيليوس"

ـ غريغوس.. ذلك الأثيم!

وسط هذا الصخب صعد "غريغوس" الدرج فلم يسمعه أحد فانتزع ابنته من يدها بقسوة وقال بصوت يكاد يختنق غضباً:

ـ أيه ستأخذين مفاتيحي ـ هذا الشرير! هذا الوحش! هذا الماكر المحكوم بالسجن! "كورنيليوس" تتفاهمين مع مجرمي الدولة! حسناً..!

وضربت يداً بيد ليأسها.. وتابع "غريغوس" وقد بدل لهجة الغضب بلهجة التهكم والسخرية

آه.. السيد زارع الزنبق، البريء، العالم، اللطيف. سوف تذبحني وتشرب من دمي.. حسناً ـ لا أفضل من هذا ـ وبمشاركة ابنتي، يا للمسيح.. أنا إذن في وكر عصابة في مغارة اللصوص.. سوف يعرف الحاكم كل هذا في الصباح ويطّلع الرئيس على كل شيء فنحن نعرف القانون! إن أي سجين يعلن العصيان في السجن: يحاكم

على المادة -٦- سوف نقدم لك نسخة ثانية من أحكام سجن بيتانهوف، أيها السيد العالم.. هي النسخة الأفضل هيا، بإمكانك أن تقرض أصابعك كأي دب ثائر.. وأنت يا جميلتي، يا حلوتي التهمي حبيبك بعينيك..

ـ أحذركم يا خرافي ـ لن تستطيعا التآمر علي.. لقد أنجبت ابنة غير طبيعية.. وأنت أيها العالم.. سوف نلتقي ـ فاستولى الخوف واليأس على "روزا" فأرسلت قبلة إلى صديقها وقد خطرت لها فكرة رائعة، فاندفعت تهبط الدرج، وهي تقول:

لم نفقد كل شيء بعد! اعتمد علي يا "كورنيليوس" وتبعها أبوها وهو يجأر أما المزارع المسكين فقد تخلى شيئاً فشيئاً عن النافذة التي كان يتعلق بها بأصابع ترتجف. وأحس بثقل في رأسه واشتعلت عيناه في محجريهما وارتمى ثقيلاً على بلاط الغرفة. وهم يهمهم: لقد أخذوها.. لقد سرقوها لي..!

في ذلك الوقت خرج "بوكسل" من الباب الذي تركته "روزا" مفتوحاً وقد غطى الزنبقة السوداء برداء واسع

وانطلـق في عربـة كانـت تنتظـره في "كوريكـوم" دون أن يعلم صديقه "غريغوس" بغيابه المفاجئ.

والآن.. وقـد رأينـاه في العربـة سـنقوم بتتبعـه، إن وافـق قارئنـا علـى ذلـك حتـى نهايـة الرحلـة كانـت العربـة تسـير ببطء فيجب أن لا تسرع في سيرها وفيها الزنبقة السوداء.. لكن "بوكسل" كان يخشى أن لا يصل بسرعة إلى مدينة "دلـف" كـي يصنـع هنـاك علبـة مزينـة وفيهـا عشـب طـري جميـل وبضـع فيهـا الزنبقـة السـوداء، فـارتكزت بلطـف محاطة من كل جوانبها حتى يأتيها الهواء من الأعلى ويتاح للعربـة أن تنطلـق بأقصـى سـرعة دون أي عـائق ممكـن.. فوصـل إلى "هـارلم" صـباح اليـوم التـالي تعبـاً لكنـه يشـعر بنشوة الظفر. وهناك بدّل الوعاء الذي يحوي الزنبقة إخفاءً لآثار السرقة – وكسر الإنـاء الخـزفي ورمـى قطعـة بإحـدى الترع، وكتب إلى رئيس الجمعية الزراعية يخبره أنـه وصـل إلى "هارلم" ومعه زنبقة سوداء تمامـاً... ونـزل في فنـدق فخـم مع زهرته السليمة الكاملة، وبقي هناك ينتظر!!

الفصل الخامس
والعشرون

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الرئيس "فان سيستين"

عندما تركت "روزا" "كورنيليوس" قررت أن تأخذ دورها: في أن إما أن تعيد له الزنبقة التي سرقها "جاكوب" أو لن تراه بعدها أبداً. واستولى اليأس القاتل على السجين المسكين، يأس مزدوج لا برء له. ومن جهة أخرى ففراق "روزا" غدا لا بد منه، بعد أن فاجأ "غريغوس" سر حبهما ولقاءاتها، وتحطمت آماله وطموحاته التي بقي يغذيها ويعمل لها سبع سنوات متتالية.

ولكن "روزا" ليست تلك المرأة التي تنهار بسهولة، عند الكوارث تغدو تفيض حيوية ونشاطاً إذ كانت تجد

في المصيبة أو الكارثة الفادحة حافزاً لكل نشاط كي تستطيع مقاومتها، ومصدراً لإمكان إصلاح هذه الكارثة. وعادت الفتاة إلى غرفتها فألقت عليها نظرة أخيرة باحثة عن الزنبقة.. لعلها تكون أخطأت ـ وإن الزنبقة مختفية في خفايا الغرفة فابتعدت عن نظرها.. وعبثاً بحثت.. فالزنبقة لا تزال غير موجودة ـ هي مسروقة حتماً وجمعت حزمة صغيرة من حوائج قد تلزمها وحملت وفرها وهو ثلاثمائة فلوران أي كل ثروتها وخبأت الفص الثالث في دانتيلات زينتها ووضعتها في صدرها، وأغلقت باب غرفتها دورتين، لكي تعيق وتأخر الزمن اللازم لفتحها عندما يُعرف هروبها ـ نزلت الدرج وخرجت من الباب الذي خرج منه "بوكسل" منذ حوالي ساعة. وانطلقت إلى مؤجر الخيول، وطلبت استئجار عربة. ولم يكن عنده سوى عربة واحدة قام باستئجارها "بوكسل" منذ أمس. وفيها انطلق على درب "دلف" ونحن نقول على طريق "دلف" لأن هناك مسافة كبيرة بين "لوفستان" و"هارلم" ورغم أنه كان كعصفور طائر فهو لم يصل بعد إلى نصف الطريق.

لا أحد يستطيع الطيران في "هولندا" إلا العصافير ـ تلك البلاد التي تقطعها الأنهار والجداول والسواقي والقنوات والبحيرات الموجودة في العالم. لذا اضطرت "روزا" إلى استئجار حصان سلمه المؤجر لها بسهولة لأنه بعرفها فهي ابنة حارس القلعة.

كانت "روزا" تأمل أن تلتقي بالموفد الذي أرسلته، وهو شاب طيب القلب شجاع، لتأخذه معها كشاهد ودليل ومساعد. وبالفعل فلم تكد تقطع ميلاً واحداً حتى رأته يسرع الخطى على طريق رائعة بجانب النهر. فسارعت خطوات الحصان حتى وصلت إليه. كان الشاب يجهل أهمية المهمة التي أوكلت إليه ومع ذلك كان يسير بأقصى سرعة ممكنة حتى قطع ميلاً ونصف في أقل من ساعة. أخذت منه البطاقة فقد غدت بلا فائدة وأفهمته ما تريده منه وغدا الربان مستعداً أن يسير بأقصى ما يستطيعه الحصان، وقد سمحت له "روزا" أن يضغط على ردفه أو على غاربه ليزيد من سرعته...

وها هما المسافران يغادران، فقطعوا أكثر من ثمانية أميال في خمس ساعات. وحتى هذه اللحظة لم يشك "غريغوس" أن ابنته غادرت القلعة، والسجان وهو رجل

شرير كان مسروراً لأنه أحدث كل هذا الرعب في نفس ابنته. ويهيئ نفسه ليروي "لجاكوب" حكاية رائعة بينما كان هذا الأخير في طريقه إلى "دلف".

كان "بوكسل" يتقدم "روزا" والربان بأربعة أميال على الأقل بسبب سرعة العربة وكان يتخيل "روزا" حردة ترتجف في غرفتها.. لكنها كانت تقطع الأراضي بسرعة كبيرة ولم يكن "غريغوس" يعرف أين يوجدون فهو لا يرى ابنته إلا قليلاً ـ منذ أن بدأت تهتم بالزنبق ـ عند الغداء فقط. وحسب غريزته اقتنع بأن ابنته حردة في غرفتها منذ وقت طويل.

ناداها بحمالات المفاتيح، ونزل يبحث عنها، وعبثاً ناداها، فقرر أن يبحث عنها شخصياً وبدأ بأن ذهب مباشرة إلى غرفتها، طرق الباب طويلاً.. ولم تجب "روزا".

نادى مصلح الأقفال في القلعة وفتح الباب، لم يجد "غريغوس" أثراً "لروزا" تماماً مثلها عندما دخلت الغرفة ولم تجد الزنبقة.. كانت "روزا" في ذلك الوقت قد وصلت إلى "روتردام" أما والدها فقد بحث عنها في المطبخ وفي غرفتها وفي الحديقة فلم يجد أثراً لها!

ولك الآن أن تحكم على غضب "غريغوس" بعد أن سأل الجوار وعرف أنها استأجرت حصاناً وأنها مثل "برادمنت أو كلوتين" انطلقت تبحث عن المغامرة دون أن تقول له أين ستذهب وصعد "غريغوس" ثائراً إلى "فان بيرل" فأطلق عليه سيلاً من الشتائم والسباب والتهديدات ونثر له أثاث الغرفة وهدده بالزنزانة وقعر الغرفة المنخفضة ووعده بالجوع والعصا.. ولم يصغ "كورنيليوس" إلى كلامه وتركه يسيء معاملته ويسبه ويشتمه، وبقي حزيناً منهاراً لا يشعر بأي انفعال ولا بأي خوف. وبعد أن بحث "غريغوس" عن "روزا" في كل مكان أخذ يبحث عن "جاكوب" فلما لم يجده لم يشك أن "جاكوب" قد اختطفها. في هذا الوقت كانت "روزا" قد قطعت ميلين وبلغت "روتردام" وتابعت طريقها وفي المساء نامت في "دلف" ووصلت إلى "هارلم" في صباح اليوم الثاني بعد أربع ساعات من وصول "بوكسل" إليها.. وذهبت إلى رئيس الجمعية "فان سيستين" فوجدت المواطن المحترم في مركزه ولا يحق لنا أن نهمل وصفه ونكون قد قصرنا بواجبنا تجاه التصوير للحدث والتاريخ.. كان الرئيس يكتب تقريراً إلى الهيئة الاجتماعية على ورقة كبيرة بأجمل خط يمكن أن

يكتبه. وعرفت "روزا" نفسها ببساطة فقالت: "روزا غريغوس" رغم أنه اسم رنان لكن الرئيس كان يجهله فرفض أن تدخل إليه. ومن الصعب في هولندا أن تقسر البواب على شيء.. في بلاد السدود والهويس والقنوات لكن "روزا" لم تيأس فقد وطدت نفسها على تنفيذ مهمة أقسمت بينها وبين نفسها أن لا تتخلى عنها لا بالرفض ولا العنف ولا الشتائم. وقالت:

أرجو أن تعلم السيد الرئيس أنني جئت لأتحدث معه عن الزنبقة السوداء.

كان لهذه الكلمات فعل السحر، تماماً مثل كلمة "افتح يا سمسم" في قصص ألف ليلة وليلة. وكانت جواز سفر لها ـ فبفضلها استطاعت أن تدخل غرفة الرئيس "فان سيستين" إذ وجدته في طريقه لملاقاتها بكامل أناقته ـ كان رجلاً طيباً، قصيراً له جسم لطيف كجذع الزنبقة يمثل رأسه كؤيسها وذراعاه يمثلان الورقتين المستطيلتين للزنبقة، وقد اعتاد على التأرجح ـ مما يكمل تشبهه بهذه الزهرة التي تتمايل عندما تحركها الرياح. فقال له:

لقد ذكرت يا آنسة أنك قادمة من قبل الزنبقة السوداء!

وبالنسبة له، الزنبقة السوداء هي في الدرجة الأولى، وهي قادرة جداً، وبصفتها ملكة الزهور يحق لها أن ترسل سفراء لها!

ـ نعم يا سيدي! أنا قادمة لأحدثك عنها. وسألها الرئيس وهو يبتسم:

ـ هل هي بخير؟ فقالت "روزا"

ـ للأسف أنا لا أعلم!

ـ ماذا حدث؟ هل حدث لها مكروه

ـ حدث مكروه كبير! ليس لها ولكن لي!

ـ ماذا حدث؟

ـ لقد سرقوها لي!

ـ سرقوا لك الزنبقة السوداء؟

ـ نعم يا سيدي!

ـ هل تعرفين من سرقها؟

ـ أشك ولكن لا أستطيع أن أتهم.

ـ لكن من السهل أن نتأكد!

ـ كيف؟

ـ منذ أن سرقت من عندك، السارق ليس بعيداً!

ـ لماذا لا يكون بعيداً؟

ـ لأنني رأيته من أقل من ساعتين!

وصاحت "روزا" وهي تندفع نحو الرئيس:

ـ هل رأيت الزنبقة السوداء؟

ـ كما أراك الآن يا آنسة

ـ ولكن أين ذلك؟

ـ عند سيدك؟

ـ عند سيدي؟؟

ـ نعم – ألست تخدمين عند السيد "إيزاك بوكسل"؟

ـ أنا؟

ـ نعم أنتِ!

ـ ولكن ماذا تحسبني يا سيدي؟

ـ وأنت من تحسبينني؟

ــ أحسبك وآمل أن يكون السيد "فان سيستين" المحترم رئيس الجمعية الزراعية في "هارلم"

ـ هل أتيت لتكلميني؟

ـ أتيت لأقول لك أن زنبقتي قد سرقت!

زنبقتك! هي نفسها إذن زنبقة السيد "إيزاك بوكسل" لقد شرحت لي الموقف خطأ يا طفلتي ـ إنها ليست لك وقد تكون سرقت للسيد "بوكسل"

أكرر لك يا سيدي أني لا أعرف السيد "بوكسل" هذا وهذه المرة الأولى التي أسمع فيها باسمه.

ـ أنت إذن لا تعرفين السيد "بوكسل" وعندك زنبقة سوداء

ـ هل هناك زنبقة أخرى؟

ـ نعم هناك زنبقة أخرى هي زنبقة السيد "بوكسل"

ـ وكيف هي؟

ـ إنها سوداء كلها!

ـ بدون أي بقعة عليها أو أي نقطة!

ـ هل تعرفينها؟

ـ هل هي موجودة هنا؟

ـ يجب أن تكون هنا لأنني أريد أن أضعها في معرض الجمعية قبل أن نقررها لأحد.

ـ سيدي! هل يدعي هذا السيد "بوكسل" أنه يملك الزنبقة السوداء؟

ـ إنه صاحبها فعلاً!

ـ أليس هو رجل نحيل؟

ـ نعم

ـ وأصلع؟

ـ نعم

ـ وله عين نائية؟

ـ أعتقد أن هذا صحيح.

ـ قلق، محني الظهر، مقوس الساقين!

ـ بالفعل، أنت تصفينه تماماً قطعة قطعة! وسألت "روزا"

هل توجد الزنبقة في إناء من الخزف أبيض مزين بأزهار صفراء تمثل سلة على الأوجه الثلاثة للإناء!

أما هـذا ، فلسـت متأكـد منـه ـ لقـد تأملـت الرجـل أكثر من الإناء!

ـ سيدي، إنها فعلاً زنبقتي التي سرقت مني ـ إنها ملكي، وجئت لأطلبها منك وأمامك. وصاح "فان سيستين"

آه ـ لقد جئت هنا تطلبين زنبقة السيد "بوكسل" حقاً إنك امرأة شجاعة.

وقالت "روزا" وقد اضطربت قليلاً لهذه الصفة:

ـ سيدي.. لم أحضر لأطالب بزنبقة السيد "بوكسل" بل لأطالب بزنبقتي!

ـ زنبقتك؟

نعم تلك التي زرعتها وربيتها بنفسي!

إذن، اذهبي وقابلي السيد "بوكسل في فندق "اللقلق الأبيض" تتفاهمين معه. أما أنا فأرى أن الدعوة يصعب الحكم فيها ـ كذلك الذي حضر أمام الملك سليمان ـ وأنا لا أدعي حكمته سأكتفي بأن أرفع تقريري ـ وأتأكد من وجود الزنبقة السوداء والأمر هو أن الجائزة هي للذي يكتشفها ـ الوداع يا لبنتي!

وألحت "روزا" قائلة: سيدي ـ سيدي..

وتابع "سيستين"- ما أجملك! يا لك من شابة.. أنت لم تخبري العالم بعد، اسمعي نصيحتي كوني حذره في هذه القضية، عندنا هنا سجن ومحكمة في "هارلم". بالإضافة إلى أننا هنا حساسين جداً فيما يتعلق بالزنابق ـ اذهبي يا طفلتي إلى "إيزاك" في فندق اللقلق الأبيض.

وأمسك "فان سيستين" بريشته الجميلة وتابع كتابة تقريره الذي انقطع عنه.

الفصل السادس والعشرون

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

عضو الجمعية الزراعية

وانطلقت "روزا" مضطربة تكاد تطير من الفرح والخوف. لأنها عرفت أن الزنبقة السوداء لا تزال. فهي تسير نحو فندق اللقلق الأبيض ـ يتبعها ربانها. صبي قوي من مدينة "الفريز" قادر وحده أن يفترس عشرة من أمثال "بوكسل" وفي الطريق نقلت إليه "روزا" ما حدث.. وهو لا يتأخر أبداً عن خوض معركة عندما تبدأ.. لكن الآن عليه أن يتدبر أمر الزنبقة. وعندما وصلا إلى سوق "كروت" توقفت فجأة، إذ خطرت لها فكرة جديدة ـ

تماماً كما فعلت "مينرفا هومير" عندما شدت "آخيل" من شعره – عندما استولى عليها الغضب!

- يا إلهي ـ لقد ارتكبت خطأ جسيماً فقد أخسر "كورنيليوس" والزنبقة وأخسر نفسي أيضاً. لقد حذّرت وأثرت الشكوك ـ فأنا لست سوى امرأة وسط هؤلاء الرجال الذين قد يتفقون ضدي.. فأضيع.. وإن ضعت أنا فلا بأس.. لكن "كورنيليوس" والزنبقة! وهدأت نفسها لبعض الوقت.. وفكرت:

إنني ذاهبة إلى هذا السيد "بوكسل" الذي لا أعرفه فإذا كان رجلاً آخر غير "جاكوب" وقد اكتشف الزنبقة السوداء أو أن الزنبقة سرقها رجل آخر غير الذي أشك فيه وإذا انتقلت من يد إلى يد لأشخاص لا أعرفهم! إنني لا أعرف الرجل بل أعرف الزنبقة ولكن كيف أستطيع أن أبرهن أنها زنبقتي.. وإذا عرفت أن "بوكسل" هذا هو "جاكوب" المزيف.. من يدري ماذا سيحدث؟ الأمر يتعلق بمصير هذا السجين المسكين وحياته قد يكون الآن يحتضر. وبعد أن انتهت من هذه الصلاة راحت تنتظر الإلهام الذي طلبته من السماء!

وفي هذا الوقت سمعت ضجة كبيرة وصخب شديد في نهاية سوق "كروت" كان الناس يركضون والأبواب تفتح.. "روزا" وحدها بقيت سادرة لا تبالي بما يحدث ولا تشعر به بتحركات هذا الشعب وغمغمت.. علي أن أعود إلى الرئيس! وقال ربانها:

هيا لنرجع!

وسلكا الدرب القصيرة التي تؤدي إلى بيت السيد ـ "فان سيستين" الذي كان يتابع كتابة تقريره بأجمل خط وأجمل ريشة يكتب بها. وفي الطريق كانت "روزا" تسمع الناس يتحدثون عن الزنبقة السوداء وعن جائزة المئة ألف فلوران فالخبر يعدو داخل المدينة ولم تجد "روزا" صعوبة كبرى في الدخول من جديد إلى مكتب "فا سيستين" الذي اضطرب كالمرة السابقة عندما سمع باسم الزنبقة السوداء تلك الكلمة السحرية.. ولكن عندما عرف "روزا" وقد كوّن عنها فكرة أنها بلا عقل، استولى عليه الغضب وأوشك أن يطردها.. ولكن "روزا" عقدت يديها على صدرها وبلهجة الحقيقة الجليلة التي تدخل مباشرة إلى القلب، قالت:

سيدي ـ لا تطردني بحق السماء. بل أرجو أن تستمع إلى ما سأقوله.. فإن كنت لا تستطيع أن تعيد لي حقي فسوف يعرض يوماً ما أمام اللّه أنك كنت شريكاً في عمل سيئ. وضرب "فان سيستين" الأرض بقدمه وقد نفذ صبره، فهذه المرة الثانية التي تزعجه فيها وهو يعد تقريراً يضع فيه كل اهتمامه الشخصي، بصفته بورجوازياً، ومن ثم عضواً في الجمعية الزراعية. وصاح بها...

ولكن.. ولكن تقريري عن الزنبقة السوداء؟ وتابعت "روزا" بكل ثقة ببراءتها وبالحقيقة

ولكن سيدي! إن تقريرك عن الزنبقة السوداء يرتكز أساساً على حدث جرمي أو على أعمال خاطئة إذا لم تصغِ إلي ـ أتوسل إليك يا سيدي أن تأمر بإحضار هذا السيد "بوكسل" ليمتثل أمامك وأمامي أنا فأنا أعتقد أنه السيد "جاكوب" وأقسم أمام اللّه أنني سأترك له الزنبقة إذا لم أكن أعرفه لتصبح ملكاً له. وقال "فان سيستين"

ـ يا لهذه المقدمة!

ـ ماذا تريد أن تقول؟

أسـألك؟ علـى أي شـيء يـدل لـو عرفتـه؟! وقالـت "روزا" يائسة:

أخيراً يا سيدي، أنت رجل شـريف، وسـتعطي الجـائزة للرجل لقاء عمل لم يقم به وعلى عمل مسروق أيضاً. ويبـدو أن لهجـة "روزا" زرعـت بعـض الثقـة في نفـس "فـان سيسـتين" فراح يحاول أن يحاور الطفلة بأسلوب أكثر لطفاً، عنـدها سمع لفظاً في الشارع وراح هذا الصخب الذي سمعتـه "روزا" في الطريق يزداد ويشتد. ولكنها لم تعره اهتمامـاً في سـوق "كـروت" إذ أنه لم يستطع أن يوقظها مـن ابتهالاتهـا التقيـة. وهزت هتافات قوية أرجاء البيت وأصغى "فان سيستين" إلى هـذه الهتافـات فهـي هتافـات عاديـة بالنسـبة "لـروزا" وصـاح الرئيس:

مـا هـذا؟ مـاذا يحـدث؟ هـل هـذا ممكـن؟ هـل سمعـت جيـداً؟ وانطلـق مسـرعاً إلى مكتبـه غـير آبـهٍ "بـروزا" الـتي تركهـا في غرفتـه. ولم يكـد.. "فـان سيسـتين" يصـل إلى مكتبه حتى أطلق صيحة كبيرة عندما شـاهد النـاس قد احتشـدوا فيـه حتـى الممـر، ويصـعد شـاب ببطء النـبلاء، يتبعه ويرافقه كل هذا الاضطراب، يرتـدي ببسـاطة ثيابـاً مـن المخمـل البنفسـجي وقـد طـرز عليـه بالفضـة، يصـعد

الدرج الحجري الأبيض الذي يتألق بياضاً ونظافة وقد سار خلفه جنديان ـ أحدهما من البحرية والآخر من الفرسان، ووسع "فان سيستين" لنفسه مكاناً بين الخدم المرتاعين وجاء لينحني أمام القادم الجديد الذي أحدث حضوره كل هذا الصخب. وصاح: مولاي ـ مولاي ـ فخامتكم عندي؟ شرف عظيم يتألق في منزلي إلى الأبد! وقال "غليوم دورانج" بصفاء يشبه الابتسام:

سيد "فان سيستين" العزيز، أنا رجل هولندي حقيقي، أحب الماء والبيرة والأزهار، وأحب أحياناً الأجبان التي يقدر الفرنسيون نكهتها، وأفضل الزنابق بين كل الأزهار ـ وسمعت أنهم في "هارلم" قد اكتشفوا الزنبقة السوداء أخيراً.. وبعد أن تأكدت أن الخبر صحيح رغم أنه لا يصدق جئت أطلب الأخبار عن ذلك من رئيس الجمعية الزراعية. وصاح "فان سيستين"

يا لفخر الجمعية واعتزازها إذا كنت تتقبل أعمالها فتنال إعجابك. وقال الأمير وقد ندم على أنه تكلم كثيراً..

ـ هل الزنبقة عندك؟

ـ للأسف سيدي إنها ليست هنا!

ـ أين هي؟

ـ عند صاحبها!

ـ من هو مالكها؟

ـ إنه زارع زنبق من "دوردريخت"

ـ من "دوردريخت"؟

ـ نعم!

ـ وما اسمه؟

ـ اسمه "إيزاك بوكسل"

ـ أين يسكن؟

في فندق "اللقلق الأبيض" وسأطلب حضوره إذا كانت فخامتكم ترغب في ذلك، وريثما يحضر أرجو أن تتفضل إلى مكتبي وتشرفه بحضورك وإذا عرف أن فخامتكم هنا فسوف يتعجل بالحضور!

حسناً ـ أرسل في طلبه.

نعم.. ولكن.. فقط..

ـ ماذا هناك؟

ـ لا شيء مهم.

ـ كل شيء هام في هذا العالم يا "فان سيستين"

ـ ستكون هناك بعض الصعوبات!

ـ ما هي؟

ـ هناك بعض المغتصبين يطالبون بها. سيما أنها تساوي مئة ألف فلوران.

ـ هل تساوي حقاً هذا المبلغ؟

ـ نعم يا سيدي! فهناك مغتصبين ومزيفين.

ـ هي جريمة إذن يا سيد "سيستين"؟

ـ نعم يا سيدي.

ـ هل تعرف أصحاب الجريمة؟

ـ لا يا مولاي.. إن المجرمة..

ـ المجرمة؟

ـ أريد أن أقول أن التي تطالب بالزنبقة هي في الغرفة المجاورة.

ـ هي هنا؟

ـ كيف تفكر بهذه الطريقة سيد "سيستين"؟

ـ أريد أن أقول أن "الطعم" وهو مئة ألف فلوران قد أغراها.

ـ هي تطالب بالزنبقة؟

ـ نعم يا سيدي.

ـ ماذا تقول كدليل على ملكيتها؟

كنت على وشك أن أستجوبها عندما دخلت يا مولاي!

لنستمع إلى ما تقوله سيد "سيستين" فأنا أول رئيس لهذه البلاد سأستمع للقصة وأطبق العدالة وقال "فان سيستين" وهو ينحني ويفتح الطريق للأمير.

لقد وجدنا فيك الملك "سليمان" وكاد الأخير أن يسبق مقدمه لكنه توقف فجأة وقال:

ادخل قبلي ثم نادني.. ودخلا إلى الغرفة.

كانت "روزا" لا تزال في مكانها متكئة على النافذة تتطلع إلى الحديقة، فقال الأمير وهو يتطلع إلى قبعتها المذهبة وتنورتها الحمراء.

آه.. ها هي فتاة جميلة هنا!

والتفت لدى سماعها الصوت ولم تكد تشاهد الأمير حتى راح يقبع في أعتم زاوية من الغرفة، كان اهتمامها كله ينصب على تلك الشخصية الهامة التي تدعى "فان سيستين" وليس على هذا الغريب الذي تبع صاحب البيت وقد لا يحمل اسماً تناول الرجل القريب كتاباً من المكتبة وأشار "لفان سيستين" أن يقوم بالاستجواب. فكل شيء تحت أمر هذا الشاب ذو الثياب البنفسجية اللون.

جلس "فان سيستين" بدوره بكل خجل وبكل فخر واعتزاز بتلك الأهمية التي منحها له فقال:

عديني يا طفلتي أن تذكري الحقيقة، كل الحقيقة بشأن الزنبقة.

أعدك بذلك.

حسناً تكلمي أمام هذا السيد فهو من أعضاء الجمعية الزراعية. وقالت "روزا":

ماذا أقول لك يا سيدي؟ إن ما سأقوله لم أذكره لأحد من قبل.

إذن.. وماذا بعد؟

سأعود إلى الرجاء الذي توسلت به إليك!

وما هو هذا الرجاء؟

أن يحضر السيد "بوكسل" وزنبقته إلى هنا. فإذا لم أعرف فيها زنبقتي أقول ذلك بصراحة. أما إذا عرفته فسأطالب بها. وهل علي أن أذهب إلى القاضي وحجتي في يدي؟

- إذن لديك برهانك يا طفلتي الجميلة!

إن الله الذي يعرف حقي هو الذي وهبها لي.

وتبادل "فان سيستين" نظرة مع الأمير الذي منذ أن انطلقت "روزا" بكلماتها الأولى راح يحاول أن يستعيد ذكرياته كما تر أن هذا الصوت لم يلامس أذنيه للمرة الأولى. وذهب أحد الموظفين يستدعي "بوكسل" فتابع "فان سيستين" الاستجواب قائلاً:

- على أي شيء تعتمدين للتأكيد على كونك مالكة الزنبقة السوداء؟

- على شيء بسيط جداً هو أنني زرعتها ورعيتها في غرفتي الخاصة!

- في غرفتك؟ وأين غرفتك هذه؟

- في "لوفستان"!

ـ هل أنت في "لوفستان"!

إنني ابنة السجان في القلعة. وقام الأمير بحركة صغيرة تدل على أنه بدأ يتذكر. وتظاهر بأنه يقرأ وراح يراقب "روزا" بكثير من الانتباه أكثر مما سبق. وتابع "فان سيستين"

ـ هل تحبين الأزهار؟

ـ نعم يا سيدي.

ـ أنت إذن عالمة أزهار!

وترددت "روزا" قليلاً وقالت بصوت سحبته من أعمق أعماق قلبها وقالت: إنني أتحدث مع أناس شرفاء ـ كانت تتحدث بلهجة صدق جعلت "فان سيستين" والأمير نفسه يردون عليها بهزة رأس إيجابية.

حسناً.. لا لست عالمة أزهار ما أنا إلا فتاة مسكينة من أبناء هذا الشعب "الغريز" منذ ثلاثة أشهر كنت أمية لا أعرف القراءة ولا الكتابة، ولست أنا من اكتشف الزنبقة

ـ من اكتشفها إذن؟

ـ سجين مسكين في "لوفستان" قالت ذلك وهي ترتعش!

ـ سجين دولة في "لوفستان" فهناك لا يوجد سوى سجناء الدولة!

وعاد الأمير يتابع قراءته أو بالأحرى يتابع التظاهر في القراءة. وغمغمت "روزا":

إنه سجين دولة! وشحب وجه "فان سيستين" وهو يستمع إلى هذا الاعتراف أمام مثل هذا الشاهد. فقال "غليوم دورانج"

ـ تابع

ووجهت "روزا" كلامها إلى من كانت تظنه الرئيس الحقيقي:

إني سأتهم نفسي بشكل خطير..! فقال "فان سيستين"

يجب أن يكون سجناء الدولة في "لوفستان" سريين. وردت "روزا" وهي تائهة

ـ للأسف يا سيدي!

ـ حسب ما تقولين يبدو أنك استفدت منه لتعليمك زراعة الأزهار بعد أن تواصلت معه كونك ابنة سجانه!
وقالت "روزا":

ـ نعم يا سيدي.. لقد اضطررت أن أعترف وكنت أره كل يوم.

ـ وصاح "فان سيستين": ـ يا للشقية.

ورفع الأمير رأسه فرأى الرعب في وجه "روزا" والشحوب في وجه الرئيس فقال بصوت واضح النبرة

ـ هذا لا يهم أعضاء الجمعية وعليكم أن تحكموا فقط في قضية الزنبقة السوداء فلا تعرفون الجنح السياسية، تابعي يا صغيرتي ــ تابعي. وشكر "فان سيستين" بنظرة فصيحة العضو الجديد في جمعية البستنة باسم كل الزنابق. واطمأنت "روزا" بهذا النوع من التشجيع الذي منحه لها هذا الغريب فراح تتروي كل ما حدث معها منذ ثلاثة أشهر وكل ما قامت به وما عانته من قسوة أبيها وهرسه الفص الأول وآلام السجين وخوفه وقلقه عندما تفارقه، وكيف أراد أن يموت من الجوع، وعن اليأس والأسى الذي أصابه عندما سرقت الزنبقة بعد

ساعة من تفتحها. قالت كل ذلك بنبرة صدق جعلت الأمير يبدو هادئ الأعصاب، ظاهرياً كي لا ينتقل الأثر إلى "فان سيستين"

وقال: لقد تعرفتِ على السجين منذ وقت ليس ببعيد! وفتحت "روزا" عينيها جيداً وراحت تتأمل الرجل الغريب المتعمق في الظل كأنه ليهرب من تلك النظرة وسألت:

- لم ذلك يا سيدي؟

لأنه، ومنذ أربعة أشهر فقط تم نقل السجان "غريغوس" وابنته إلى "لوفستان" واحمر وجه "روزا" وقالت:

ـ سيدي، أعترف أنني تعرفت على السجين في "لاهاي..

- تابعي.. وقال وهو يبتسم!

- يا للسجين السعيد!!

وفي هذا الوقت دخل الموظف الذي أرسلاه لاستدعاء "بوكسل" وهو يعلن للأمير:

- إن الرجل الذي استدعيته، يتبعني ومعه زنبقته.

الفصل السابع والعشرون

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الفص الثالث

لم يكد يعلن خبر وصول "بوكسل" حتى دخل إلى مكتب السيد "فان سيستين" يتبعه رجلان يحملان الكنز الثمين موضوعاً في علبة وضعت فوق المنضدة واعلم الأمير بذلك.

فترك الفرقة وذهب إلى المكتب حيث تأمل الوضع هناك وسكت ثم عاد صامتاً إلى مكانه في أعتم زاوية في الغرفة حيث وضع بنفسه مقعداً وثيراً هناك.

كانت "روزا" ترتجف وقد امتلأت رعباً تنتظر أن يدعونها لترى بدورها. وسمعت صوت "بوكسل" وعرفت أنه هو ـ وقال الأمير أن تذهب وتنظر إلى الصالون من فتحة الباب الموارب وقالت "روزا" : ـ إنها زنبقتي ـ إنها هي ـ

لقد عرفتها ـ "يالكورنيليوس" المسكين وانخرطت في البكاء.

نهض الأمير، وسار نحو الباب وبقي فترة قصيرة في مساحة الضوء، حيث توقفت أنظار "روزا" عليه. كانت متأكدة أنها ليست المرة الأولى التي ترى فيها هذا الرجل الغريب وقال الأمير: ـ ادخل يا سيد "بوكسل" إلى هنا.

ودخل "بوكسل" مسرعاً ليجد نفسه وجهاً لوجه مع "غليوم دورانج" فقال وهو يتراجع إلى الخلف ـ فخامتكم هنا؟ وصاحت "روزا":

فخامتكم؟! وأثر هذه الصيحة التي صدرت من خلفه أبصر "بوكسل" "روزا" وارتجف عندما شاهدها كما لو مسه تيار كهربائي وتمتم الأمير كما لو يكلم نفسه

لقد اضطرب كثيراً!! وبذل "بوكسل" جهداً كبيراً ليسيطر على نفسه. ثم تمالك نفسه فقال الأمير:

سيد "بوكسل" يبدو أنك عثرت على سر الزنبقة السوداء. فرد بصوته يشوبه الاضطراب

ـ نعم يا سيدي! يبد أنه اضطرب لأنه يعرف فخامة الأمير.

تابع الأمير: لكن هناك فتاة تدعي أنها وجدته أيضاً!

وابتسم "بوكسل" بسخرية وهز كتفيه.

كان الأمير يتابع حركاته باهتمام وفضول واضحين فقال الأمير:

ـ أنت إذن لا تعرف هذه الفتاة!

ـ كلا يا سيدي ـ وقال الأمير: ـ وأنت يا آنسة هل تعرفين السيد "بوكسل"؟

أنا لا أعرف السيد "بوكسل" أنا أعرفه السيد "جاكوب"!!

ـ ماذا تريدين أن تقولي؟

أريد أن أقول أن من يدعي هنا السيد "بوكسل" كان يعرف في "لوفستان" باسم "جاكوب"

ماذا تقول في هذا يا سيد "بوكسل"؟

ـ أقول أن هذه الفتاة تكذب

ـ هل تنفي أنك لم تكن أبداً في "لوفستان"؟ وتردد "بوكسل"

إذ أن نظرات الأمير المنقبة والثاقبة منعته من أن يكذب. فقال:

أنا لا أنكر أنني كنت في "لوفستان" ولكن أنكر أنني سرقت الزنبقة. فقالت "روزا" باحتقار:

ـ لقد سرقتها من غرفتي الخاصة

ـ أنا أنكر هذا؟

أتتكر أنك تبعتني للحديقة يوم كنت أرتب المسكبة لكي أزرعها فيها، أتتكر أنك تبعتني يوم تظاهرت بأنني زرعتها؟ أتتكر أنك أسرعت للحديقة وبحثت ونبشت المكان الذي ظننتني زرعتها فيه، وحفرت بيديك بدون جدوى؟ وحمداً لله كانت فكرة لكي تعرف فيها نواياك.. قل هل تتكر كل هذا؟

ولم يفكر "بوكسل" أن يرد على هذه الأسئلة، بل تخلى عن هذه الحرب الكلامية مع "روزا" والتفت إلى الأمير:

إنني أزرع الزنبق في "دوردريخت" منذ أكثر من عشرين عاماً، وقد حصلت على الشهرة في هذا المجال. هذه الحقيقة وهذه الفتاة تعرف أنني اكتشفت الزنبقة

السـوداء فاتفقـت مـع عشـيق لهـا في "لوفسـتان" واخترعـت مشروعاً فيه خرابي بادعائها ملكيـة الزنبقـة حتـى تحصـل على مئة ألف فلوران التي آمل أن أربحهـا بفضـل عـدالتكم وصاحت "روزا" وقد استولى عليها الغضب.. آه. فقال الأمير:

اسكتي أنت.. اصمتي والتفت إلى "بوكسل" وقال:

مـن هـو ذلـك السـجين الـذي تقـول أنـه حبيـب "روزا"؟ وكادت "روزا" أن يغمى عليها فالسـجين هنـا يعتبر بالنسـبة للأمير مجرمـاً خطـيراً ، ولا أمتـع مـن هـذا السـؤال بالنسـبة "لبوكسل" فقال:

مـن هـو هـذا السـجين؟ هـذا السـجين رجـل يكفـي أن تعرف اسمـه لتعـرف مـدى اسـتقامته إنـه سـجين دولـة ، وقـد حكم عليه سابقاً بالموت. ويدعى..

وسـترت "روزا" وجههـا بيـديها الاثـنـتين بحركـة يائسـة وقال "بوكسل"

إنه يدعى "كورنيليوس فان بيرل" الابـن التربـوي لـذلك الموظف "كورنيل دوويت"

واضطرب الأمير وبرقت عيناه بنظرة ملتهبـة وارتسـمت على وجهه الهادي صورة الموت أمامه من جديد وانطلق نحـو

"روزا" وأشار لها أن تكشف عن وجهها، وأطاعت "روزا" كأي امرأة تخضع لقوة مغناطيسية:

إذن.. من أجل هذا الرجل جئت تطلبين تغيير مكان عمل أبيك؟ وخفضت "روزا" رأسها وغمغمت وهي تكاد تنهار تماماً:

ـ نعم يا مولاي! وقال الأمير "لبوكسل"

تابع ـ وتابع هذا قائلاً: إن فخامتكم تعرف كل شيء وإليك الآن ما لم أرد قوله كي لا أخجل هذه الفتاة لنكرانها الجميل. لقد حضرت إلى "لوفستان" استعرض فيها بعض أعمالي، تعرفت على العجوز "غريغوس" أحببت ابنته، طلبتها للزواج.. وبما أنني لست غنياً ـ آه كم كنت متسرعاً ـ فقد حكيت لها عن أملي بالحصول على مئة ألف فلوران ـ ولكي أؤكد هذا الأمل عرضت عليها الزنبقة السوداء. كان حبيبها في "دوردريخت" يريد أن يأخذ الجائزة بالحيلة، فدبر مؤامرة زرع الزنبقة، وتآمر الاثنان على تدميري. وفي ليلة تفتحها سرقتها هذه الفتاة وأخذتها إلى غرفتها حيث كان لي الحظ أن أستردها وبلغت جرأتها حد إرسال إلى السيد عضو الجمعية

الزراعية بأنها اكتشفت سر الزنبقة السوداء، العظيمة، ولم ترتبك لذلك بل عرضت الزنبقة على بعض الناس قد تدعوهم ليشهدوا لها، مستقبلاً ـ لكنك يا سيدي عرفت بهذه المؤامرة وشاهدتها.

وتأوهت "روزا" وهي تبكي، وارتمت على قدمي الأمير قائلة:

يا رب ـ يا إلهي. وأشفق الأمير على آلامها الشديدة رغم اعتقاده بأنها مزيفة وقال لها: ـ إن لم تحسني التصرف يا فتاة فسوف يعاقب فتاك لأنه قدم لك النصائح وأنت لا تزالين صغيرة جداً ويبدو عليك النبل والشرف. فالشر جاء منه وليس منك. ووقفت "روزا" وقالت:

مولاي ـ مولاي ـ إن "كورنيليوس" ليس مذنباً! وقام "غليوم" بحركة خاصة:

ـ ليس مذنباً لأنه قدم لك النصائح؟ هذا ما تريدين قوله، أليس كذلك؟

ـ مولاي ـ إنه ليس مذنباً بالجريمة الثانية التي ألصقت به ولا الجريمة الأولى!

الأولى؟ وتعرفين جريمته الأولى؟ هل تعرفين بم كان متهماً ومتآمراً؟ لقد كان شريكاً "لكورنيل دوويت" فقد خبأ المراسلات التي جرت بين الموظف الكبير والسيد "لوفوا"

سيدي ـ إنه يجهل أن هذه المراسلات هي عنده، يجهل ذلك تماماً.. آه يا رب، لقد قال ذلك لي! وهل يعقل أن يكون لقلبه النقي كالماس أسرار يخفيها عني؟! لا لا يا سيدي أكرر ذلك.. هل علي أن أثير غضبك من جديد؟ إن "كورنيليوس" ليس مذنباً في الأولى ولا في الثانية، آه لو تعرف "كورنيليوس" يا مولاي! وقال "بوكسل":

إنه واحد من "آل دوويت" وسيدي يعرفه جيداً، وله عليه فضل كبير إذ منحه الحياة وصاح به الأمير:

اسكت أنت! لقد قلت لك سابقاً أن الأشياء التي تتعلق بالدولة لا علاقة لها بالجمعية الزراعية في "هارلم" أما بالنسبة للزنبقة السوداء فكن مطمئناً فالعدالة ستأخذ مجراها. فحياة "بوكسل" وقلبه مفعم بالفرح ونقبل تهاني رئيس الجمعية. وتابع "غليوم"

وأنت أيتها الفتاة لقد أوشكت على ارتكاب جريمة، لكن لن أعاقبك. والمجرم سيعاقب بدلاً منكما أنتما الاثنان. فالرجل الذي له اسم مثله يستطيع أن يتآمر ويخون ولكن ليس عليه أن يسرق وصاحت "روزا"

إنه يسرق.. "كورنيليوس" يسرق!! آه يا مولاي، احذر يا مولاي ـ سيموت لو يسمع كلامك سيقتله كلامك أكثر مما يفعل سيف الجلاد على المشنقة لو كان هناك سرقة، فهي من هذا الرجل الذي عرفته. وقال "بوكسل" ببرود:

برهني على ذلك! فسألته:

ـ هل الزنبقة لك؟

ـ نعم

كم فص لها؟ وتردد "بوكسل" برهة وأدرك أن الفتاة لم تلق عليه هذا السؤال إذا كان الفصان الآخران موجودين فقط. فقال:

ـ إنهما ثلاثة. وسألته:

ماذا حدث لهؤلاء الفصوص الثلاثة؟

ـ ماذا حدث لها؟ الأول هرس، والثاني أنتج الزنبقة السوداء.

والثالث!

الثالث؟!

أين هو الفص الثالث؟ فقال "بوكسل" وقد بدا عليه الاضطراب:

إنه عندي!

عندك أين؟ في "لوفستان" أو في "دوردريخت" وقال "بوكسل"

في "دوردريخت! وصاحت "روزا" وهي تلتفت نحو الأمير وأضافت:

إنه يكذب يا مولاي ـ سأروي لك قصة هؤلاء الفصوص الثلاثة: لقد هرس والدي الفص الأول في غرفة السجين، وهذا الرجل يعرف ذلك جيداً. كان يأمل أن يستولي عليه لكن عندما شاهد أمله يتحطم أوشك أن يتقاتل مع أبي. أما الثاني، فقد اعتنيت به وأنتج الزنبقة السوداء. أما الثالث والأخير، فأخرجته الفتاة من صدرها وقالت: - ها هو الفص الثالث لا يزال ملفوفاً بالورقة

نفسها مع الفصين الآخرين أعطانيها وهو يصعد إلى سلم المشنقة، خذه يا سيدي، خذه وأخرجت الفص من الورقة التي كانت تلفه وقدمتها للأمير فأخذها بيده وتفحصها جيداً.

ولكن يا سيدي ـ قد تكون هذه الفتاة سرقته كما سرقت الزنبقة. وشعر "بوكسل" بالرعب عندما شاهد الأمير يتفقد الفص بكل هذا الاهتمام سيما عندما بدأت "روزا" تقرأ تلك الأسطر القليلة المكتوبة على الورقة التي بقيت في يدها. وبرقت عيناها فجأة وقرأت وهي تلهث ما كتب على الورقة الغريبة وصرخت وهي تمد يدها بالورقة إلى الأمير وقالت: سيدي! اقرأ بحق السماء اقرأ عندها دفع الفص الثالث إلى رئيس الجمعية وأمسك بالورقة وقرأ.. ولم يكد "غليوم" يلقي بأول نظرة على الورقة حتى ترنح وارتجفت يداه كما لو كان سيرمي الورقة إلى الأرض، واتخذت عيناه تعبيراً مخيفاً من الألم والندم والشفقة ــ فكانت الورقة صفحة من توراة "كورنيل دوويت" أرسلها إلى "دوردريخت" مع "غريك" رسالة من أخيه "جان دوويت" يرجو بها من "كورنيليوس" أن يحرق الوديعة وهي عن العلاقات بين الموظف الكبير والسيد "لوفوا"

ونحن نتذكر هنا الرجاء الذي كان على الشكل الآتي:
"ابني العزيز! احرق الورقة التي أرسلتها إليك، احرقها دون أن تنظر إليها ودون أن تفتحها حتى تبقى مجهولة حتى منك نفسك. إن الأسرار الموجودة فيها قد تقتل من أودعت عنده. احرقها حتى تنقذ "جان دوويت" و "كورنيل دوويت" أحبني!

كورنيل دوويت ـ آب ١٨٧٢

هذه الورقة دليل على براءة "فان بيرل" وعلى ملكيته للفصوص الثلاثة. وتبادلت "روزا" مع رئيس الجمعية نظرة واحدة. كانت نظرة "روزا" تقول: هل رأيت؟! أما نظرة الرئيس فكانت تقول:

اصمتي وانتظري.

ومسح الأمير قطرة عرق سالت من جبينه لتحط على خده وترك أنظاره وأفكاره تغوص في وهدة لا قرار لها ولا منبع، تلك التي تدعونها الندم، والخجل من الماضي، وأخيراً رفع رأسه بصعوبة وقال:

هيا اذهب، سيد "بوكسل" ستأخذ العدالة مجراها، لقد وعدت بذلك، ثم وجه كلامه للرئيس:

وأنت يا عزيزي "سيستين" احتفظ بالفتاة والزنبقة .. وداعاً..

وانحنى الجميع وخرج الأمير وهو ينحني أمام أصوات الهتافات الشعبية الواسعة.

وعاد "بوكسل" إلى فندق "اللقلق الأبيض" يتعذب بما فيه الكفاية.. تلك الورقة التي أخذها الأمير من "روزا" وقرأها ثم قام بطيها ووضعها في جيبه بكثير من الاهتمام.. فقد أقلقته تلك الورقة. ودنت "روزا" من الزنبقة وقبّلت تويجها بكثير من الخشوع، والتجأت إلى الله. وهي تردد:

يا إلهي - أنت تعرف تماماً كم علمني "كورنيليوس" القراءة، نعم إن الله يعرف ذلك. فهو الذي يعاقب وهو الذي يثيب كل إنسان حسب ما يستحق.

الفصل الثامن والعشرون

✽✽✽✽✽✽✽✽✽✽✽✽✽✽✽✽✽✽✽✽✽✽

أغنية الأزهار

عندما كانت هذه الأحداث تجري في "هارلم" كان "فان بيرل" التعس وحيداً في غرفته في قلعة "لوفستان" يعذبه "غريغوس" بكل ما يمكن أن يُعذب به سجين قرر سجانه أن يتحول إلى جلاد. وبما أن "غريغوس" لم تصله أية أخبار عن "روزا" أو "جاكوب" اقتنع بأن ما يحدث له هو من صنع الشيطان وأن الطبيب "كورنيليوس" هو رسول هذا الشيطان إلى الأرض. مما نتج عنه أنه وفي اليوم الثالث لغياب "روزا" و"جاكوب" صعد إلى غرفة "كورنيليوس" غاضباً أكثر من المعتاد. كان "كورنيليوس" يتكئ بمرفقيه إلى النافذة ورأسه بين كتفيه ونظراته تائهة في أفق ضبابي تلطمه أجنحة طواحين الهواء في "دوردريخت" كان ينتسم الهواء النقي ليمنع دموعه من أن تسيل

وفلسفته من أن تتبخر ـ الحمامات عنده لكن الأمل مفقود وقد فقد المستقبل أيضاً.

"روزا" مراقبة بشدة لا تستطيع أن تحضر إليه! ألا تستطيع أن تكتب؟ وإذا كتبت فمن يوصل رسائلها؟ - لقد رأى أمس شدة الغضب الذي كان يتطاير من عيني "غريغوس" العجوز وحتى لا يقل حذره ولو لبعض الوقت، ولكن إلى جانب السجن والغياب ألا تتحمل هي الأخرى ألماً وقسوة أشد؟ هذا القاسي! هذا الوغد! هذا السكير يريد أن ينتقم منه على طريقة أدباء ومؤسسي المسرح اليوناني. فعندما يصعد مشروبه المسكر إلى رأسه ألا يمنح تلك اليد التي جبرها لها قوة يدين اثنتين وعصاً؟!

إن فكرة أنه قد يسيء إلى "روزا" تزيد من غضبه فيشعر عندها بعدم جدواه وضعفه وعدم وجوده، ويتساءل عما إذا كان اللّه عادلاً إذ أرسل كل هذا العذاب لمخلوقين بريئين. وفي مثل هذا الظرف صار يشك بأن الألم يجعل الإنسان ساذجاً. وفكر بأن يكتب إلى "روزا" ولكن! أين هي حتى يكتب لها؟ فكر أن يكتب إلى "لاهاي" يخبرهم بما ينوي "غريغوس" أن يقوم به إذ أنه يجمع الأدلة ليشي من جديد، وتهب العاصفة من فوق

رأسه. ولكن بم يكتب ولم يترك له "غريغوس" ورقة أو قلماً سواء كان هذا أو ذاك ـ أو ليس "غريغوس" هو من سينقل الرسالة؟ وراح "كورنيليوس" يستعرض في ذهنه كل الأفكار التي يستعملها السجناء للهرب.

فكر مرة بالهرب.. لكنه لم يحلم به.. طالما انه يرى "روزا" كل يوم.. وكلما فكر فيه رأى أن ذلك مستحيلاً.. كان من ذلك النوع من الناس التي يحوطها الغموض، وهي النخبة التي تخشى الناس فيفوتها الكثير من الفرص الطيبة في الحياة. إذ أنهم أخطئوا في اختيارهم هذه الدرب البسيطة المألوفة المتواضعة التي قد تؤدي بهم إلى كل شيء.

وتساءل "كورنيليوس" ترى هل أستطيع أن أهرب كما هرب "غرونيوس" ألم يأخذوا احتياطات أكثر دقة منذ ذلك الهروب؟ ألم يضعوا حراساً على النوافذ؟ ألم يقفلوا الأبواب دورتين؟ ألم تغدو مراكز متيقظة ومستعدة عشرة أضعاف ما كانت عليه؟ بالإضافة إلى أن النوافذ محروسة جيداً والأبواب مقفلة والمراكز مراقبة بتيقظ أقوى! أليس لدي حيلة تكون مضمونة؟ حيلة أقوى من

نظـرات الحقـد في عـيني "غريغـوس"!! ألسـت في وضـع بالشلل؟ وهو غياب "روزا"؟

لو قضيت عشر سنوات وأنا اصنع شفرة حادة أقطع بها حواجزي، أو أضفر حبالاً أهبط بها من النافذة، أو ألصق بأكتافي جناحين لأطير كما فعل "ديدال"؟ لكني الآن في زمن الحظ السيئ، فشفرتي ستتثلم وحبالي ستتقطع وأجنحتي ستذوب في الشمس وأكون قد قتلت نفسي بشكل سيء. وسيحملونني أعرجاً وأكتعاً ومقعداً ليضعوني في معرض "لاهاي" مع صدارة "غليوم الصامت" الملطخة بالدماء والمرأة البحرية التي التقطوها في"ستافيسين" وتكون نتيجة مبادرتي أني غدوت جزءاً من نوادر الهولنديين ولي الشرف بذلك.

ولكن.. لا.. هكذا أفضل.. قد يؤذيني "غريغوس" ببعض الأعمال الشريرة فقد فقدت العيد منذ أن فقدت الفرح ولقاء "روزا" وبشكل خاص عندما فقدت زنابقي. مما لا شك فيه أن "غريغوس" سيهاجمني بين يوم وآخر.. وقد أتحسس منه فيثور حبي وثقتي بنفسي فأقفز إلى عنق سجاني العجوز وأخنقه!! إذ أنني، ومنذ أن سجنت شعرت بقوة غريبة وشرسة لا يمكن احتمالها واشعر بالحكة

والرغبة في القتال وشهية للمعركة، وعطش غير مفهوم للصفع. وعندما وصل إلى آخر كلمة فكر بها، وقف برهة وقد تقلص فمه، وهدأت عينيه، وخطرت له فكرة عجيبة فتابع: وبعد أن أخنق "غريغوس" لماذا لا آخذ منه المفاتيح واهبط الدرج كأنني قد قمت بأفضل عمل يمكن أن يُقام به. أو لماذا لا أشرح لها ما حدث وأقفز معها من نافذتها إلى نهر "الراين أو الموز" فأنا استطيع أن أسبح عن شخصين عني وعن "روزا" ولكن.. يا إلهي.. إن "غريغوس" أبوها، ورغم احترامها لي فلن تغفر لي أبداً ولن تسامحني لأني خنقت لها هذا الأب مهما كان قاسياً وشريراً، فنحتاج هنا إلى جدال ونقاش قد يحضر أثناءه بعض المسؤولين أو السجانين ليجدوا "غريغوس" يموت فيضع أحدهم يده على كتفي وأعود إلى "بيتانهوف" ويلمع السيف المشؤوم فوق رأسي فلا يقف هذه المرة في الطريق بل يتعرف على رقبتي.

- لا.. لا ليس هكذا يا "كورنيليوس" هذا رأي سيء! ولكن.. ماذا أفعل وكيف أجد "روزا" هكذا كان "كورنيليوس" يفكر بعد مرور ثلاثة أيام على غياب "روزا" وفي الوقت الذي عرضنا فيه للقارئ أنه كان متكئاً على

النافذة دخل عليه "غريغوس" يحمل في يده عصا غليظة وتتقد عيناه ببريق نوايا سيئة، وتتقلص شفتاه بابتسامة شريرة، يهتز جسمه بتمايل شرير وكل شيء في جسمه الصاخب يعبر عن أسوأ الأوضاع.

سمعه يدخل، وعرف أنه هو، لكنه لم يلتفت نحوه فهو يعرف أن "روزا" لا تتبعه وليس أسوأ على الغاضب من اللامبالاة التي يقابله بها من يوجه له هذا الغضب!! لقد انتصر أخيراً ولا يريد أن يخسر هذا الانتصار، فلقد ركب رأسه، وغلى الدم في عروقه، فلا فائدة من هذا الغليان إذا لم يفرغه بضوء صغير! فكل إنسان شريف شحذ عبقريته السيئة، يتمنى على الأقل لو يحدث جرحاً صغيراً لأحد الناس لذلك عندما رأى "غريغوس" أن "كورنيليوس" لا يحرك ساكناً بدأ يحادثه بصوت قوي: .. ها.. ها..

كان "كورنيليوس" يردد بين أسنانه أغنية "الأزهار" أغنية حزينة لكنها رائعة:

وتقول الأغنية: نحن بنات النار المقدسة

بنات النار التي تتجول في شرايين الأرض

نحن بنات النسيم، نحن بنات الماء

أغنية ذات لحن هادئ ضاعف من حزن "كورنيليوس" ومن نفاذ صبر "غريغوس" فضرب الأرض بعصاه وصاح:

آه السيد المغني! ألا تسمعني؟

والتفت إليه "كورنيليوس" وقال: ـ عم صباحاً سيد "غريغوس"!

وتابع الأغنية" يخربنا الإنسان وهو يحبنا

نحن نرتبط بخيوط مع الأرض،

خيوط هي جذورنا.. أو حياتنا

نرفع للعلا أقصى ما نستطيع

أيادينا نحو السماء!

وتابع "كورنيليوس": فالسماء هي وطننا

وطننا الحقيق، فمنها تأتي أرواحنا

وإليها تعود أرواحنا، أي عبيرنا!

واقترب "غريغوس" من السجين وقال له:

ألم تر؟ لقد هيأت كل الوسائل كي أربيك وأجبرك على الاعتراف بكل جرائمك فالتفت تحوه وسأله:

هل أنت مجنون يا عزيزي "غريغوس" ونظر إلى وجهه المغضن وعينيه البراقتين وفمه المزبد. وصاح:

يا للشيطان! نحن على ما يبدو أكثر من مجانين، نحن غاضبون ـــ وأدار "غريغوس" العصا في يده كالطاحون. وقال "كورنيليوس" عاقداً يديه على صدره ولم ينفعل.

ـ يبدو أنك تهددني! ورد السجان:

ـ نعم ـ أنا أهددك!

ـ ولماذا؟

أنظر إلى ما أحمله في يدي! وقال "كورنيليوس" بهدوء:

ـ أظن أنها عصا، وعصا كبيرة ـ ولكن لا أعتقد أنك تهددني بها.

ـ أنت لا تصدق؟ ولماذا؟

لأن كل سجان يضرب سجيناً يتعرض لعقوبتين. الأولى هي المادة: ٩- من نظام "لوفستان" وهي: يطرد كل سجان أو مفتش أو حامل مفاتيح أو كل من يرفع يده على أي سجين دولة! وقال "غريغوس" وقد أعماه الغضب:

اليد! نعم لكن العصا! لم يتكلم عنها القانون! وتابع "كورنيليوس"

أما الثانية.. فلم تكتب في النظام بل تجدها في الإنجيل وهي التي تقول: من قتل بالسيف لا يموت إلا بالسيف! ومن ضرب بالعصا، سوف يضرب بالعصا ويزداد نفاذ صبر "غريغوس" من صوت "كورنيليوس" الهادي والوقور. فلوح له بعصاه ورفعها فانتزعها منه "كورنيليوس" ووضعها تحت إبطه. وجأر "غريغوس" من الغضب. فقال "كورنيليوس"

لا تعرض نفسك لفقد وظيفتك وعملك. وصاح "غريغوس":

- أيها المخادع.. سوف أنالك من مكان آخر

- سوف نلتقي!

- أنت ترى أن يدي فارغة!

- نعم أرى ذلك بسرور!

- أنت تعرف أنها لا تكون فارغة عندما أصعد الدرج في الصباح

هذا صحيح! وأنت تحضر لي أسوأ حساء ممكن ـ وأسوأ وجبة يمكن تخيلها وليس هذا بالعقاب فأنا لا أتناول إلا الخبر، ذلك الخبز السيئ يا "غريغوس" لكنه الأفضل بالنسبة لي!

ـ هو الأفضل بالنسبة لك؟

ـ نعم

ـ والسبب؟

ـ سبب بسيط جداّ

ـ قل ما هو هذا السبب؟

بكل سرور ـ أنت تتصور أنك لو أعطيتني خبزاً سيئاً سأتألم

ـ حتماً فأنا لا أعطيكه لكي تكون سعيداً يا قاطع الطريق! فقال "كورنيليوس":

أنت تعرف أنني ساحر.. فأنا أبدل الخبز السيئ بخبز رائع أستمتع به كأنه الحلوى. وأسر أكثر لأنني آكل ما أشتهي وأثير غضبك وزأر "غريغوس" غاضباً:

ـ أنت تعترف إذن أنك ساحر!

حتماً أنا ساحر، لكن لا أقول ذلك أمام الناس لأن ذلك يقودني إلى المحرقة مثل "غوفريوي، و"اوربان غرانديه": ولكن طالما نحن الاثنين فقط لا أرى مانعاً من ذلك وتابع "غريغوس":

حسناً حسناً.. إذا كان الساحر يضع خبزاً أبيض بدل الأسود، فهو لا يموت من الجوع إذا لم يكن لديه خبز على الإطلاق. وقال "غريغوس" متابعاً:

حسناً حسناً لن أحضر لك خبزاً على الإطلاق وسنرى ما يحدث لك بعد ثمانية أيام. وشحب لون "كورنيليوس" وتابع "غريغوس":

ويبدأ هذا منذ اليوم ـ وطالما أنك ساحر بإمكانك أن تحول أثاث غرفتك إلى خبز. واكسب في كل يوم ثمانية عشر قرشاً يدفعونها من أجل إطعامك. وصاح "كورنيليوس":

ـ لكن هذا يعتبر قتلاً!

فقد أثارته هذه المرحلة من الإرهاب، وقد فهمها جيداً إذ أوحى له بها هذا النوع من الموت فقال "غريغوس":

ـ طالما أنك ساحر فسوف تعيش رغم كل شيء.

واستعاد "كورنيليوس" هدوءه وعاد لطبعه الساحر فرفع كتفيه وقال:

ـ ألم ترني استحضرت الحمائم من "دوردريخت" إلى هنا؟ وقال "غريغوس"

ـ حسناً.. وماذا؟

حسناً إنه شواء لذيذ. ويبدو لي أن رجلاً يأكل حمائماً مشوياً كل يوم لا يموت من الجوع وقال "غريغوس:

ـ والنار؟

النار؟ أنت تعرف أنني شريك الشيطان فهو لا يدعني أحتاج إلى شيء، فالنار هي مادته الأساسية، فهو مخلوق من النار! وقال "غريغوس":

ـ إن الرجل مهما كان قوياً لا يستطيع أن يأكل حمائماً كل يوم رغم أن هناك أناس تتبارى بأكل أنواع الحمام ومن ثم فهم يترددون ويغيرون أفكارهم:

حسناً عندما أتعب من أكل الحمائم أستخرج سمكاً من نهر الوال والموز ـ واتسعت حدقتا "غريغوس" رعباً ـ أنا أحب السمك وأنت لن تقدم لي شيئاً فأستفيد من رغبتك في أن أموت من الجوع فآكل سمكاً.

كاد أن يغمى على "غريغوس" غضباً ورعباً لكنه عاد إليه وعيه وقال:

- إنك تجبرني على هذا!

وأخرج من جيبه موساً قام بفتحه:

فصرخ "كورنيليوس" وحمل العصا يدافع عن نفسه وقال:

- آه .. السكين

الفصل التاسع والعشرون

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

"كورنيليوس" يصفي حسابه مع "غريغوس"

وبقـــي الاثنـــان برهـــة متـــوقفين في وضـــع الهجـــوم و"كورنيليوس" في موقع الدفاع، وطالما أن هـذا الوضـع قـد يستمر طويلاً، أخذ "كورنيليوس" يبحـث عـن سـبب ليزيـد من غضب خصمه فسأله:

ـ ماذا تريد أيضاً؟ ورد "غريغوس"

ـ ماذا أريد؟ سأقول لك ـ أريد أن تـرد لـي ابـنتي "روزا". وصاح "كورنيليوس":

ـ ابنتك؟

ـ نعـم ابـنتي، لقـد سـلبتها مـني بأسـاليبك الشـيطانية ـ هيا، هل تريد أن تقول لي أين هـي؟

وأخـذت ملامـح التهديـد تـزداد وضـوحاً علـى وجـه "غريغوس" وصاح "كورنيليوس":

ـ أليست "روزا" في "لوفستان"؟

أنت تعرف جيداً.. هل تريد أن تعيدها لي مرة أخرى! وقال "كورنيليوس":

ـ هذا شرك تريد أن توقعني به!

ـ مرة أخيرة.. هل ستقول لي أين ابنتي؟!

ـ حسناً.. احزر أين هي إن كنت لا تعرف!

وزمجر "غريغوس" وقد شحب وجهه. وارتجفت شفتاه بذلك الجنون الذي استولى على دماغه.

ـ انتظر ـ انتظر ـ أنت لا تريد أن تقول شيئاً ـ حسناً ـ سأفتح لك أسنانك.. ومشى خطوة باتجاه "كورنيليوس" وأراه السلاح الذي يحمله ويلمع بين يديه وقال:

ـ هل ترى هذه السكين! لقد ذبحت بها ما يزيد عن خمسين ديكاً أسوداً. وسأذبح الآن رئيسهم كما ذبحتهم.. انتظر.. قال "كورنيليوس":

ـ أيها الوغد! لقد قررت أن تذبحني إذن؟

ـ أريد أن أفتح قلبك لأرى في أي مكان خبأت ابنتي!

وسار نحو "كورنيليوس" مندفعاً بحمى الغضب.. فلم يجد هذا من الوقت إلا أن يلقي بنفسه خلف المنضدة متلافياً الطعنة الأولى ـ ولوّح له "غريغوس" بسكينة وهو يقذفه بألذع الشتائم والسباب والتهديدات.. وفكر "كورنيليوس" بأنه إن كان خارج متناول يده فليس خارج متناول سكينه ـ فإذا ألقى عليه السلاح من بعيد فسوف يجتاز الفراغ لينغرز في صدره ـ ذلك ـ لم يضع وقتاً، والعصا لا تزال في يده فسدد له ضربة بالعصا على يده التي تحمل السكين ـ فسقطت على الأرض ووضع "كورنيليوس" قدمه فوقها.

وغدا "غريغوس" بلا دفاع بعد أن أوجعته ضربة العصا وجرّد من سلاحه فأراد أن ينطلق في المعركة.. فهاجمه "كورنيليوس" وسدد إليه ضربات بالعصا بكل هدوء وبال طويل وهو يختار المكان الذي ستقع فيه الضربة ولم يطل الأمر بهذا الوغد حتى طلب الرحمة.. وقبل ذلك كان صراخ "غريغوس" قد سمع في كل البيت مما جعل الموظفين فيه يضطربون. وحضر منهم اثنان من حملة المفاتيح ومفتش واحد وأربعة حراس، ففاجئوا "كورنيليوس" يحمل العصا والسكين تحت قدمه. وعندما

رأى هـؤلاء الشـهود لهـذا العمـل السـيئ الـذي ارتكبـه ــ والظـروف المخففـة لا تـزال مجهولـة ـ كمـا يقولـون.. شـعر "كورنيليوس" بالضياع ولا من معين فكل المظاهر كانت ضده.

وبثنيـة ذراع واحـدة غـدا "كورنيليـوس" أعـزلاً، وغـدا "غريغوس" محاطاً بالحضور فرفعوه وأمسكوا به، وأشار وهو يزمجر إلى الجروح التي نتجت في أعلى كتفه وظهره كأنها هضاب تبرقش رأس الجبل.

وكتب المحضر في جلسة آنية عن العنف الممارس من قبـل سـجين ضـد سـجانه والتقريـر الـذي أعلنـه "غريغـوس" كـان سـاخناً فهـو يتعلـق بمحاولـة قتـل أعـد لهـا منـذ زمـن طويـل ونفـذها السـجين بالإصـرار والترصـد. أي بتصـميم مسبق وعصيان مفتوح. وبينما كانوا يتشاورون بالمعلومات التي قدمها لهم "غريغوس" بعد أن غادر غرفة السجين إذ أن وجـودهم لم يعـد ضـرورياً، إذ أنزلـه حمـال المفـاتيح إلى غرفتـه يـئن ومثخنـاً بالكـدمات. وفي هـذا الوقـت اهـتم الحـرس الـذين أخـذوا "كورنيليـوس" بـأن يعلمـوه أنظمـة "لوفسـتان" وعاداتهـا كنـوع مـن عمـل الخـيرـ لكـن "كورنيليـوس" كـان يعرفهـا جميعهـا بشـكل أفضـل مـن

معرفتهم إذ أنه قرأ النظام عندما دخل إلى السجن حتى أن بعضاً من مواده لا تزال ماثلة في ذاكرته تماماً.. وكما رووا له كيف طبق هذا النظام على السجين "ماتياس" الذي قام بعصيان غير مؤذٍ، يختلف تماماً عما قام به "كورنيليوس" وذلك في عام ١٩٦٨ أي قبل حوالي خمسة أعوام.. إذ أنه وجد أن حساءه ساخن جداً فصبه على رأس رئيس الحرس، فقام هذا بغسله، وتضرر عندما أخذ يجفف وجهه إذ انكشف جلد وجهه أثناء ذلك.

واخرج "ماتياس" من غرفته خلال اثنتي عشر ساعة واقتيد إلى السجن وسجل فيه تخارج عن القانون في "لوفستان" ثم نقل إلى ساحة جميلة المنظر تمتد حوالي إحدى عشر ميلاً. وهناك قاموا بتعصيب عينيه وربط يديه ثم ردد ثلاث صلوات، وهناك دعوه لثني ركبتيه وقام حراس "لوفستان" وعددهم اثني عشر بإشارة من ضابطهم برمي رصاصة من بنادقهم في جسده بمهارة كبيرة. وهكذا قضى.. "ماتياس" على الفور.

وأصغى "كورنيليوس" بكثير من الاهتمام إلى هذه القصة المؤلمة ثم سأل:

هل قلت خلال اثني عشر ساعة؟ فقال الراوي:

نعم ـ حتى قبل أن تدق الساعة الثانية عشر على ما أظن. فقال "كورنيليوس":

شكراً ـ ولم يكد الحارس يلم ابتسامته التي يستعملها كفواصل في كل قصة حتى رنت خطوات على الدرج وصوت مهماز يدق على حوافي الدرج المهترئة وابتعد الحرس مفسحين طريقاً لموظف قادم، ودخل هذا غرفة "كورنيليوس" بينما كان كاتب السجن يدبج تقريراً.. وسأله:

هل هذه الغرفة رقم -١١-؟ ورد عليه أحد الموظفين:

نعم سيدي الكولونيل؟

ـ أهي غرفة السجين "كورنيليوس فان بيرل"

ـ تماماً سيدي!

أين هو السجين؟ ورد "كورنيليوس" وقد شحب وجهه رغم شجاعته.

فقال موجهاً كلامه للسجين!

ـ هل أنت "كورنيليوس فان بيرل"

ـ نعم سيدي!

اتبعني إذن! وشعر بخفقان قلبه تحت الخوف من الموت للوهلة الأولى.

كيف يستعجلون القيام بأعمالهم في "لوفستان" وذلك الراوي المضحك الذي حكى عن اثنتي عشرة ساعة.. وهمس الحارس التاريخي في أذن السجين!

هيا.. ماذا قلت لك؟

أي كذبة هذه؟

كيف ذلك، لقد وعدتني باثني عشرة ساعة.

نعم.. لكن.. ستأتيك مساعدة من فخامته بإرساله واحداً من أعز أصدقائه وهو السيد "فان ديكن" يا للطاعون، إن المسكين "ماتياس" لم يحصل على هذا الشرف. فقال "كورنيليوس":

ـ هيا.. وهيا، وغب من الهواء أكبر كمية يمكن أن يستوعبها صدره، وقال: هيا لنظهر لهؤلاء الناس أن بورجوازياً ابن "كورنيل دوويت" تمكن من غير أن يقطب وجهه أن يحتوي جسده من الرصاص بقدر ما أصاب

"ماتياس" ثم مشى بكل إباء أمام كاتب المحكمة الذي توقف واجترأ أن يقول:

ـ لكن ـ يا كورنيل.. إن التقرير لم ينته بعد!

ـ ليس ذلك ضرورياً.. فرد الكاتب:

ـ حسناً.. فقام بترتيب أوراقه بشكل فلسفي في محفظة عتيقة وقذرة. وفكر "كورنيليوس"

ـ لقد كتب على أن لا أعطي اسمي لأحد في هذا العالم. لا إلى طفل، ولا إلى زهرة ولا إلى كتاب، هذه الضرورات الثلاث التي قضى الله بواحدة منها على الأقل.

كما يؤكد البعض.. ليترك الناس على الأرض يتمتعون بملكية الروح والاستمتاع بالجسد وأحصى "كورنيليوس" الدرجات التي تبعده عن الساحة وندم على أنه لم يسأل الحارس عن عددها، فهو كرحيم بحكم عمله لن يتأخر عن إجابته.

كان كل ما يخشاه هذا الصابر في هذه الرحلة وهو ينتظر ما سيقوده إلى نهايتها هو أن يرى "غريغوس" ولا يرى "روزا" وبالفعل فما أروع ملامح تلك السعادة التي سيراها على وجه الأب وسمات الألم الذي سيعكر صفو وجه

البنت. وبالفعل كان "غريغوس" يصفق فرحاً بهذا التعذيب الوحشي، انتقاماً من عمل عادل حقاً كان "كورنيليوس" يقوم به كواجب من ضميره ـ أما "روزا" تلك الفتاة المسكينة ـ لقد قدر له أن لا يراها ـ أو أن يموت دون أن يقبلها آخر قبلة أو على الأقل ـ الوداع الأخير ـ لقد قدر له أن يموت دون أن يعرف ماذا حل بالزنبقة السوداء العظيمة، فيصحو في السماء لا يدري إلى جهة يتجه ببصره لكي يراها.

وفي الحقيقة، ولكي لا يغرق بدموعه في مثل هذه الحالة كان على قلب هذا السجين طبقة من الزرنيخ المثلث أكثر مما كان لـ "هدراس" عندما نسبه إلى ذلك البحار الذي بدأ زيارته الأولى لصخور البحر القذرة الدنيئة.

وعندما وصل "كورنيليوس" إلى الساحة راح يجول ببصره باحثاً عن الحرس الذين سيقومون بالتنفيذ ورأى بالفعل اثني عشر جندياً يتحادثون مجتمعين ليسوا مصفوفين ولا يحملون بنادقهم ويتحدثون همساً.

وبدا "لكورنيليوس" أن هذا السلوك لا يتناسب مع خطورة الأشراف على حدث كبير كهذا. وفجأة خرج "غريغوس" من السجن متمهلاً يترنح وهو يتكئ على عكاز وقد أشعل كل نيران الحقد في عينيه الهرمتين ليلقي آخر نظرة على "كورنيليوس" وهو يلفظ عليه شلالاً من الشتائم واللعنات الشنيعة مما اضطر "بكورنيليوس" أن يتوجه إلى الضابط ويقول له:

لا أتصور أن في مثل هذه الحال أن يسمح لهذا الرجل بأن يشتمني وخاصة في مثل هذا الوقت.

وقال الضابط وهو يضحك:

أصغ إلي ـ من الطبيعي أن يكون هذا الرجل يريد أن ينال منك وقد أوسعته ضرباً ورد "كورنيليوس":

ـ كان ذلك دفاعاً عن نفسي، وقال الضابط وهو يهز كتفيه بحركة فلسفية تماماً.

دعه يقول ما شاء له، ماذا يهمك من ذلك الآن؟

وغمر العرق البارد جبين "كورنيليوس" لدى سماعه هذا الجواب واعتبره نوعاً من التهكم الفظ يصدر عن ضابط مرتبط بالأمير شخصياً. وأدرك أن ليس له من

مخلص وامتنع وخضع وتمتم وهو يحني رأسه: لقد عومل السيد المسيح بهذه الطريقة ومهما كنت بريئاً فلا يمكن أن أقارن به لقد ضرب السجان المسيح وهو لم يضربه. ثم التفت إلى الضابط وسأله:

سيدي. أين أذهب؟ وأشار الضابط إلى عربة ربطت بأربع خيول ذكرته بعربة رآها في ظروف مشابهة في "بيتانهوف" وقال له: اصعد إليها. فقال "كورنيليوس" في نفسه: يبدو أنهم حرموني من متعة الساحة الجميلة. قال ذلك بصوت مرتفع لكي يتيح لهذا العالم التاريخي أن يسمعها. ومن دون شك كان واجبه أن يعطي "لكورنيليوس" بعض التعليمات عندما دنا من بوابة العربة. كانت قدمه لا تزال فوق الدرجة عندما أعطى بعض الأوامر وقال له بصوت منخفض:

ـ لقد حدث أن قيد بعض المتهمين إلى بيوتهم ولكي يكون المثال الواضح لقد نفذ الحكم فيهم أمام بيوتهم الخاصة ـ وهذا مختلف.. وقام "كورنيليوس" بإشارة شكر وقال لنفسه

لـو حـدث ذلـك في الأحـوال الحسـنة. يجـد المـرء دائمـاً مكاناً له عندما تحين الظروف

الواقـع يـا صـديقي أنـني مـدين لـك بـالكثير.. الـوداع.. وانطلقت العربة.

وجأر "غريغوس" الوغد ـ القاتـل وهـو يجمـع قبضـته في وجه ضحيته الذي نجا منه وقـال: إنـه رحـل قبـل أن يـرد لـي ابنتي! وقال "كورنيليوس":

إذا أخذوني إلى "دوردريخت" ومررت أمام بيتي، سأرى مساكبي إن كانت قد تخربت بالكامل!!

الفصل الثلاثون

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

عندما كان يشك، أي نوع من التعذيب يدخر "لفان بيرل"

وسارت العربة طيلة اليوم، فتركت "دوردريخت" على اليسار، واجتازت "روتردام" ووصلت إلى "دلف" في الخامسة مساءً وقد قطعت ما لا يقل عن عشرين ميلاً. وألقى "كورنيليوس" عدة أسئلة على الضابط فكان الضابط حارساً له ورفيق درب. ورغم أن أسئلته كانت متحفظة، فقد حزن لأنها بقيت بدون أجوبة وأسف إذ لم يكن إلى جانبه ذلك الحارس اللطيف الذي كان يتكلم وحده دون أن يطلب أحد منه ذلك فقد شرح له ذلك الأمر الغريب الذي ظهر في رحلته الثالثة، مع كل التفاصيل الدقيقة والشروح المستفيضة في كل من رحلتيه السابقتين.

وقضيا ليلهما في العربة، وفي صباح اليوم التالي وجد "كورنيليوس" أنهما قد تجاوزا "لييد" بحر الشمال على يساره وبحر "هارلم" على يمينه.. ومن ثم دخلا "هارلم" بعد ثلاث ساعات تقريباً ولم يكن "كورنيليوس" يدري ماذا حدث في "هارلم" وسندعه في جهله حتى تشده الأحداث.. لكن لا يمكن أن ندع قارئنا فعلينا أن نضعه في تيار الحدث حتى قبل بطلنا هنا.. وقد رأينا أن "روزا" والزنبقة كانتا مثل أختين يتيمتين تركهما الأمير عند الرئيس "فان سيستين" ولم تكن "روزا" تعرف شيئاً عن أخبار الرئيس إلا يوم أن قابلته وجهاً لوجه.

وفي المساء أقبل ضابط إلى "فان سيستين" قادماً من لدن فخامته يدعو "روزا" الذهاب إلى دار البلدية، وهناك أدخلت إلى غرفة التداول وهي غرفة كبيرة فوجدت الأمير يكتب بين قدميه كلب من "فريز" ينظر إليه بحيرة كما لو كان هذا الحيوان الوفي يحاول أن يقوم بما لم يستطيع إنسان أن يقوم به - أن يقرأ ما يجول في فكر الأخير! وتابع الأمير كتابته فترة أخرى، ثم رفع رأسه ورأى "روزا" تقف قرب الباب. فقال لها دون أن يتخلى عما يقوم به:

ـ تعالي يا آنسة! وتقدمت "روزا" عدة خطوات نحو المنضة ثم قالت له:

ـ سيدي! فقال لها:

ـ حسناً.. هيا اجلسي! وأطاعت "روزا" فالأمير كان يتطلع إليها..

ولم يكد الأمير يعود لينظر في ورقته حتى انسحبت بخجل .. وأتم الأمير رسالته: في ذلك الوقت، كان الكلب قد اقترب من "روزا" وتأملها ثم داعبها وقال "غليوم" لكلبه:

ـ آه واضح جداً أنها بنت بلدك وأنك تعرفها جيداً، ثم التفت إلى "روزا" وألقى عليها نظرة متفحصة وخفية في نفس الوقت وقال لها:

ـ هيا يا ابنتي..

يبلغ الأمير من العمر ثلاث وعشرون عاماً وعمر "روزا" ثمانية عشر أو عشرون عاماً فكان من الأفضل أن يقول لها يا أختي!

يا ابنتي.. قالها الأمير بتلك اللهجة الآمرة التي تجعل كل من يقترب منها يتجمد! نحن هنا وحدنا فلنتحدث!

وبـدأت "روزا" ترتجـف بكـل أعضـائها رغـم أنـه لم يكن في لهجة الأمير إلا الترحيب وتمتمت:

سيدي!

- هل لك أب هناك في "لوفستان"؟

- نعم يا مولاي!

- أنت لا تحبينه؟

ـ أنـا لا أحبـه علـى الأقـل كمـا علـى البنـت ان تحـب أباها!

سـيء أن لا تحـب البنـت أباهـا ، لكـن ـ حسـناً أن لا تكذب على أميرها. وغضت "روزا" بصرها.

- لأي سبب لا تحبين أباك؟

- إن والدي شرير!

- وكيف يتوضح هذا الشر؟

- إن أبي يسيء معاملة المساجين.

- كل المساجين؟

- كلهم!

ـ ولكـن ـ ألا تلومينـه مـن الإسـاءة لسـجين بشـكل خاص.

ـ إن والـدي يسـيء بشـكل خـاص إلى السـجين "فـان بيرل" الذي..

ـ الـذي تحبينـه! وتراجعـت "روزا" خطـوة إلى الـوراء ثـم قالت بكل فخر..

ـ الذي أحبه يا مولاي! فسألها الأمير:

ـ هل تحبينه منذ زمن طويل؟

منـذ أن وقعـت عينـاي عليـه، صـباح ذلـك اليـوم الـذي حكـم عليـه بالإعـدام، ونفـذ بكـل قسـوة علـى "كـورنيـل دوويت" وأخيه "جان دوويت"

وتقلصت شفتا الأمير، وتجعـد جبينـه وتهدلت أجفانـه وكأنها لتخفي عينيه للحظة ما. وتابع بعد فترة صمت:

ولكـن ـ مـاذا ستكسـبين مـن حـب رجـل سـيعيش أو يموت في السجن؟

مـا يفيـدني يـا سـيدي! أن أسـاعده علـى الحيـاة أو أساعده على الموت.

ـ وتوافقين على أن تكوني زوجة سجين؟

ـ سأكون أكثر من أية امرأة سعادة واعتزازاً إذا كنت زوجة "فان بيرل".. ولكن..

ـ ولكن ماذا؟

ـ لا أجرؤ على القول يا سيدي!

هناك إحساس بالأمل في صوتك ـ فبماذا تأملين؟

ورفعت "روزا" نحو "غليوم" عينيها الصافيتين الجميلتين تطلبان الرحمة بنوع من ذكاء متوقد ومؤثر، تطلبان الرحمة من هذا القلب المظلم بنوع يشبه الموت.

ـ آه.. لقد فهمت! وابتسمت "روزا" وتشابكت يداها.

ـ أنت تأملين بي؟

ـ نعم يا مولاي!

ـ ها..

وأغلق الأمير الرسالة التي جاء على كتابتها، ونادى أحد ضباطه وقال له:

سيد "فان ديكن" خذ هذه الرسالة إلى "لوفستان" واقرؤوا الأوامر التي أعطيتها للحاكم هناك، ونفذ كل

ما يتعلق بك. وانحنى الضابط محيياً، وسمع صوت انطلاق خطوات الحصان. تحت قبة البيت الرنان. وتابع الأمير:

ـ يا ابنتي! إن الأحد القادم هو عيد الزنبقة والأحد هو بعد غد.. خذي خمس مئة فلوران تجملي بها وإليكها فأنا أريد أن يكون هذا اليوم عيداً كبيراً لك وتمتمت "روزا"

ـ وماذا تريدني أن أرتدي يا سيدي؟ فقال "غليوم"

ـ البس ثياب عروس يا جميلتي، فهي تليق بك كثيراً.

الفصل الواحد والثلاثون

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

"هارلم"

"هارلم" التي دخلناها مع "روزا" منذ ثلاثة أيام ودخلناها منذ قليل مع السجين، مدينة جميلة تفخر بحق بأنها أوسع مدن هولندا ظلالاً، بينما كانت المدن الأخرى تشتهر بدور الصناعة والمعامل والحوانيت والأسواق، فإن "هارلم" تضع كل افتخارها واعتزازها بأنها تتفوق على كل مدن الدولة بأشجار الدردار الكثيفة وأشجار الحور الماسقة وأشهر ما تمتاز به هو تلك المتنزهات الظليلة التي تنحني فوقها قبة من أشجار الصنوبر والسنديان والزيزفون وأشجار الكستناء.

وعندما رأت "هارلم" جارتها "لييد" وملكتها "روتردام" وقد سارت الأولى في الدرب لتكون مدينة العلم، ولتكون

الثانيــة مدينــة التجــارة أرادت "هــارلم" أن تكــون مدينــة الزراعة أو بالأحرى مدينة البستنة.

وبالفعل فإن "هارلم" مدينة مغلقة ـ مهواة جيداً ومدفأة بالشـمس فهـي تقـدم للبسـاتنة أمانـاً أكثـر مـن أي مدينـة أخرى، فهواء البحر وشمس السهل لا يقدمه لهم غيرها.

وكمـا رأينـا فقـد رتبـوا في "هـارلم" كـل تلـك النفـوس الهادئـة الـتي تتعشـق الأرض وخيراتهـا ورتبـوا في "روتـردام" و"أمستردام" كل تلك النفوس المضطربة القلقة التي تعشق السـفر والتجـارة، ورتبـوا في "لاهـاي" كـل الساسـة والاجتمـاعيين. وكمـا ذكرنـا كانـت "لييـد" مـن حصـة العلماء.

أمـا "هـارلم" فقـد اختـارت ذوي الأذواق الرفيعـة كالموسـيقى والرسـم والحـدائق والمتنزهـات والغابـات والرياض.

وجنت "هارلم" بالأزهار ـ ومن بين كل الأزهار أحبت الزنـابق ورصـدت الجـوائز علـى شـرفها. وهكـذا وصـلنا بشكل طبيعي إلى أن المدينة قد عرضت في ١٥ أيار ١٦٧٣ وعلى شرف الزنبقة السوداء العظيمة بدون أي لطخة فيها

أو عيب مئة ألف فلوران لمن يستطيع أن يكتشفها أو يصنعها فأوضحت "هارلم" بذلك خصوصيتها وأعلنت عن ذوقها بالزهور بشكل عام وفي الزنابق بشكل خاص: بينما في المدن الأخرى كان يتم بالعنف أو التمرد ، فكانت رؤية زهرة متلألئة علامة الفرح في "هارلم" تلك المدينة الجميلة الملأى بالغابات وبالشمس والظلال والنور فأرادت أن تجعل من هذا المناسبة وهي تدشين الجائزة عيداً كبيراً يبقى طويلاً في ذاكرة الناس ـ ولها الحق في ذلك "فهولندا" هي بلد الأعياد.. ومن ثم ليس هناك طبيعة كسلى تظهر حماساً كبيراً عندما نفرح فنغني ونرقص أكثر من الجمهوريين في الولايات السبعة عندما يريدون أن يتسلوا!!

لذا كان فرحهم في هذا الوقت مضاعف ثلاثاً فعليها أن تحتفل بثلاث مناسبات

اكتشاف الزنبقة السوداء!

حضور "غليوم دورانج" الاحتفال كمواطن هولندي.

أن يظهروا للفرنسيين عزة دولتهم أثر حرب جرت عام ١٦٧٢ وأن أرضيتهم من خشب "باتافيا" المتين وأنهم قادرون

أن يرقصوا مع ضرب المدافع والأساطيل. إن جمعية البستنة بدت جديرة وواثقة عندما قدمت مئة ألف فلوران في بصلة زنبق، فهي لا تريد أن تبقى في المؤخرة وقد رصدت أيضاً مئة ألف أخرى أعطيت لمسؤولي البلدة تمويلاً وطنياً بهذه الجائزة.

وفي يوم الأحد وهو اليوم المحدد للاحتفال كان ضغط الجماهير كبيراً وحماس المدنيين كبيراً أيضاً حتى أنك لا تمنع نفسك من أن تبتسم ابتسامة الفرنسيين الكاذبة التي يبتسمونها أمام كل شيء وفي كل مكان. وإلا أن تعجب بهؤلاء الهولنديين الطيبين الذين قد ينفقون أموالهم لبناء أسطول بحري لمحاربة الأعداء وحماية شرف الوطن كما ينفقونها لمكافأة شخص استطاع أن يكتشف زهرة جديدة قدر لها أن تتألق ذات يوم لتسرّي عن النساء والعلماء والفضوليين.

وعلى رأس هؤلاء الوجهاء من جمعية البستنة برز "فان سيستين" وقد ارتدى أجمل ثيابه وأثمنها وبذل كل جهده ليبدو شبيهاً بالزهرة المختارة بأناقة ثيابه وبساطتها وحداثتها ليصنع نفسه مجداً شخصياً ـ لتعترف بذلك .. وقد نجح في ذلك تماماً.

مخمل مدقق أسود كالأنبوس، حرير بنفسجي، قماش أبيض لامع، كان ذلك اللباس الاحتفالي لرئيس الجمعية.. كان يمشي في مقدمة موكبه وهو يحمل طاقة ضخمة كتلك التي حملها "روسبير" عندما احتفل بالخالق، وذلك بعد أكثر من مئة وواحد وعشرين عاماً.

ولكن .. هذا الرئيس الشجاع بدلاً من أن يمتلئ قلبه حقداً وطموحاً كالخطباء الفرنسيين، كان في صدره زهرة لا تقل براءة عن تلك التي يحملها في يده.. ويُرى خلف هذا المجلس المبرقش كالموجة الخضراء والمعطر كالربيع.. طاقم علماء البلدة وخلفهم الحكام، وخلفهم العسكريون، ومن ثم النبلاء وحتى الفظون ومن بعدهم الشعب العادي. فالجمهوريون في الولايات السبعة لم يكن لهم دور في ترتيب السير هذا كانوا يشكلون سياجاً حول الساحة وهو في الواقع مكان أفضل للفرجة والكسب.. فهو المكان الذي تنتظر فيه الجماهير أولئك الفلاسفة الذين تقدم موكبهم ليتعلموا منهم ماذا عليهم أن يقولوا وأحياناً ماذا عليهم أن يفعلوا. ولكن الأمر لا يتعلق بانتصار "بومبي" ولا قيصر ولا يحتفلون بهزيمة "ميتردات" ولا انتصار الغالبين. فالطواف اليوم كان لطيفاً وهادئاً

كمسيرة قطيع من الغنم على الأرض، مسالم كما لو كان انطلاق سرب من العصافير في الفضاء فليس هناك مظفرين سوى البساتنة الذين يحبون الأزهار ـ "فهارلم" مدينة تقدس الأزهار.

وسط هذا التيار كانت الزنبقة السوداء محمولة على محفة مغطاة بالمخمل الأبيض المهدب بالذهب يحملها أربعة رجال يتصلون بغيرهم من الرجال كما حدث في "روما" عندما وصلت الأم "سيبيل" إلى المدينة الخالدة محمولة! قادمة من "ايتروري" على نغمات الأبواق وسط عبادة شعب كامل لها.

إن مهرجان الزنبقة اليوم هو تكريم من شعب كامل لا ثقافة له ولا ذوق مثل أذواق الرؤساء المشهورين والأتقياء الذين يعرفون كيف يسفحون الدماء على بلاط "بيتانهوف" القبيح ـ وفيما بعد يسجلون أسماء الضحايا على أجمل الأحجار في "بانتيون" هولندا.

ومن المقرر أن الأمير الحاكم نفسه هو الذي سيقدم جائزة المئة ألف فلوران مما يهم الناس بشكل عام، وسيلقي كلمة تهم أصدقاءه وأعداءه أيضاً. وبالفعل فإن

الخطاب السياسي الحيادي بالنسبة للأصدقاء والأعداء منهم يريدون أن يروا كيف يستطيع هؤلاء أن يعبروا عن شعاع من أفكارهم ويعتقدون أنهم يستطيعون ذلك، كما لو كانت قبعة السياسي ليست إلا وعاءً يبعد عنه ويصد كل الأعداء.

وأخيراً، جاء هذا اليوم الذي طال انتظاره في ١٥ أيار ١٦٧٣ وها هي "هارلم" كلها مدعومة بضواحيها اصطفت على طول أشجار الغابة الجميلة مستعدة للهتافات ليس إلى المنتصرين بالحرب ولا إلى المنتصرين بالعلم ولكن بكل بساطة لأبطال الطبيعة. جاؤوا ليجبروا أماً لا تمل من انتظار ولادة ما، ظلت حتى الآن مستحيلة ـ وهي ولادة الزنبقة السوداء.

وقرار عدم الهتاف لا يستمر طويلاً عند الشعوب، سواء كان الهتاف لهذا أو لذاك فالبلد عندما تهتف تكون كأنها تصفر ـ وعندما تصفر فلا تعرف متى ينتهي هذا الصفير. وهتفت الجماهير أولاً ـ "لفان سيستين" ثم هتفت لمساعديه ـ وهتفت لنفسها، وأخيراً.. وهي محقة هذه المرة — للموسيقى الرائعة التي عزفها موسيقيو البلدة بعد كل توقف بسخاء وكرم.

كانت كل العيون ترقب بطلة العيد، الزنبقة السوداء ـ وبطل العيد، وهو بشكل طبيعي مكتشف الزنبقة. وقد ظهر هذا البطل أثناء محاضرة "فان سيستين" وقد أعلن عنها بكثير من الثقة حتى أحدث هذا البطل أثراً جماهيرياً أكبر حتى من الحاكم نفسه وبالنسبة لنا فخلاصة اليوم ليست في تلك المحاضرة المؤثرة التي ألقاها "فان سيستين" مهما كان فصيحاً ولا في الأرستقراطيين الشباب الذين ارتدوا ثياب العيد يقرمطون حلوياتهم الثقيلة، ولا في أولئك العامة المساكين شبه العراة الذين يمضغون محارات الفانيليا التي تشبه العيدان، ولا حتى في أولئك الهولنديات الجميلات ذوات البشرة المزهرة والصدور البيضاء، وليس في السادة المتدينين الذين لم يغادروا بيوتهم ولا في أولئك السياح ذوو الأجسام النحيلة والوجوه الصفراء، الذين قدموا من "سيلان" و "حاوا" ولا في هذه الجماهير المشوهة التي تلتهم خياراً منقوعاً بالمصل تترطب به.

فالأهمية القصوى، والأهمية الدرامية ليست في هذا كله بل هي في وجه يضطرب ويتلألأ وسط أعضاء جمعية البستنة، الأهمية في هذه الشخصية المتألقة حتى خصرها،

وقد صففت شعرها وأسبلته، ترتدي أثواباً فاقعة الألوان بشكل أوضح زغب جسمه الأسود ولونه الأصفر.

هنا المظفر، المنتشي فرحاً بطل هذا اليوم الذي قدر له أن يكون شرف نسيان محاضرة "فان سيستين" وحضور الأمير "غليوم" نفسه.

هذا الشخص كان "إيزاك بوكسل" الذي كان يرى من يسير أمامه ويرى إلى اليمين محمولاً على أريكة من المخمل الزنبقة السوداء وقد ادعى أنها ابنته وعلى يساره صرة كبيرة فيها مئة ألف فلوران عملة ذهبية براقة متلألئة جعلته يدير بصره نحوها إلى الخارج كي لا تفارقها عيناه ولو لدقيقة واحدة.

كان يسرع في خطوة ويغذ السير أحياناً لكي تلامس ذراعه ذراع "فان سيستين" لينال بعضاً من قيمته يزيد بها قيمة شخصيته، كما فعل عندما سرق زنبقة "روزا" ليضاعف بها ثروته ومجده. وبعد أن بقي لبدء الاحتفال حوالي ربع ساعة واقترب موكب الأمير.. فأسرع موكب الزنبقة بعد المستراح الأخير وقد وضعت الزنبقة على عرشها فترك المكان لمنافسة في حب الشعب وسيقدم له

ورقة رائعة وبراقة كتب عليها اسم مكتشف الزنبقة تقرأ بصوت عال وواضح تقول:

إن معجـزة قـد حـدثت وأن هولنـدا بواسـطة هـذا المكتشف أنتجت زنبقة سوداء سيطلق عليها اسم: الزنبقة السوداء "البوكسلينا" فيما بعد.

وكـان "بوكسـل" في بعض الأحيـان يبعد نظـره عـن الزنبقـة والجـائزة ليلقـي بـه نحـو الجمـاهير يخشـى أن يـرى وسطها الوجه الشاحب "لروزا" الجميلة التي ستكون أشبه بذلك الشبح "بانكو" الذي أدخل الاضطراب على احتفال "ماكبث".

ولنسـرع بـالقول أن هـذا الشـقي "إيـزاك" اجتـاز جـداراً غـير جـداره وتسـلق نافـذة ليـدخل إلى بيـت جـاره، ومـن ثـم بمفتـاح مزيـف اغتصـب غرفـة "روزا"! هـذا الرجـل، سـلب المجـد مـن أحـد الرجـال ومـن إحـدى النسـاء، لا ينظـر إلى نفسـه كلـص وسـارق، فقـد سـهر طـويلاً مـن أجـل هـذه الزنبقـة وتبعهـا وكلـه حمـاس مـن درج غرفـة التجفيـف في بيت "كورنيليوس" إلى المشنقة في "بيتـانهوف" ومـن مشـنقة "بيتانهوف" حتى سجن قلعة "لوفستان".

راقبها عندما ولدت وعندما نمت وعندما تفتحت على نافذة "روزا" وكم أدفأ الهواء بأنفاسه الحارة فلا أحد يحق له أن يوجدها إلا هو. حتى يأخذوها منه أو يسرقوها له..

لكنه.. لم يرَ "روزا" أبداً.

ووقف الموكب في ساحة دائرية تزينت فيها الأشجار الرائعة بأكاليل الزهر واللافتات وتوقف الموكب على صوت موسيقى صاخبة، وظهرت صبايا "هارلم" يرافق الزنبقة في مكانها المرتفع الذي ستوضع فيه إلى جانب المقعد الذهبي لفخامة الحاكم.

أشرفت الزنبقة الفخورة التي انتصبت فوق تمثالها على كل الجماهير التي صفقت لها تصفيقاً حاراً رن صداه في "هارلم"

مع هتافات عالية جداً.

الفصل الثاني والثلاثون

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الرجاء الأخير

في هـذا الوقـت المهيـب والهتافـات تنطلـق، بـدت عربـة كانـت تجانـب الطريـق متابعـة سـيرها بـبطء شـديد بسـبب أولاد يلهون خارج الشارع بسبب ازدحامه بالنسـاء والرجـال. كانـت تلـك العربـة المغبرة والتعبـة تئن حـول محورهـا وهـي تنقـل "فـان بـيرل" المسـكين وقـد بـدا لـه ومـن بـاب العربـة المفتوح ذلك المنظر الذي حاولنـا ـ وبـدون إتقـان ـ أن نصـفه تحت أنظار القارئ.

هذه الجماهير ـ هذا الصخب، هذا الانعكـاس بكـل بريق بشري وطبيعي كادت تبهر أنظار السجين مثل البرق إذا دخل زنزانته.

ورغم ذلك الاهتمام الضئيل الذي يوليه رفيق دربه في الإجابة عن أسئلته التي تتعلق بمصيره الشخصي فقد تجرأ أخيراً وتسأله عن هذا التغيير الذي بدا له غريباً ـ للوهلة الأولى ـ كل الغرابة. وسأل الضابط:

أرجوك يا سيدي الكولونيل! ما هذا؟ ورد الكولونيل:

إنه عيد!

آه.. العيد.. وبدا حزيناً ولا مبالٍ، كرجل لم ينتم إليه أي فرح في هذا العالم منذ زمن بعيد.

وبعد فترة صمت وقد سارت العربة بضعة خطوات، سأل:

هل هو العيد الوطني "لهارلم" لأنني أرى أزهاراً كثيرة.

فعلاً ـ إنه عيد تلعب فيه الأزهار دوراً هاماً هو الدور الأول. وصاح "كورنيليوس":

آه — ما هذا العيد؟ وما أروع هذه الألوان!

وقال الضابط ـ بلهجة تنم عن شفقة لطيفة لا نراها إلا عند العسكريين ـ إلى الجندي المكلف بدور الحوذي:

سيدي ـ توقف ليرى هذا السيد! ورد "كورنيليوس" بحزن:

آه يا سيدي! شكراً لمساعدتك. ولا أشد إيلاماً على الحزين من رؤية فرح الآخرين أرجو أن تعفيني منه.

ـ كما تريد ـ هيا نتابع السير ـ لقد أمرته بالتوقف لأنك طلبت ذلك. فأنت تعتبر محباً للأزهار سيما التي يحتفلون بعيدها اليوم.

ـ بعيد أي زهرة يحتفلون؟

ـ إنها زهرة الزنبق، وصاح "فان بيرل":

ـ هل اليوم هو عيد زهر الزنابق؟

ـ نعم سيدي ـ لكن لنتابع السير طالما أن المشهد لا يسرك.

وتهيأ الضابط لإعطاء أمره بالمسير لكن "فان بيرل" أوقفه بعد أن لعب بفكره شك مؤلم وسأله بصوت يرتجف:

إذن .. إنهم يقدمون اليوم الجائزة؟ جائزة الزنبقة السوداء؟!

نعم

وعلا الاحمرار وجه "كورنيليوس" واضطرب جسده كله وارتجف، وتدحرج العرق على جبينه وفكر:

إنه وزنبقته غير موجودين.. فالعيد سيفشل بسبب خطيئة رجل وزهرة ستوجونها.. ثم فال:

للأسف.. هؤلاء الناس الطيبون سيغدون تعساء مثلي إذ لن يشاهدوا الاحتفال الذي دعوا إليه ـ على الأقل سيكون ناقصاً..

ـ ماذا تريد أن تقول؟ فقال "كورنيليوس" وهو يرتد إلى داخل العربة..

إن الزنبقة السوداء لن تكون موجودة إلا مع شخص أعرفه؟ وقال الضابط

وهذا الشخص الذي تعرفه هو الذي اكتشفها؟ إن كل شعب "هارلم" يأمل فيها ـ فهي الزنبقة التي يتصور أنها لن تكتشف!

وصاح "كورنيليوس":

الزنبقة السوداء؟ وأخرج قسماً من جسمه خارج العربة وقال:

ـ أين هي ـ أين هي؟

ـ هناك فوق عرشها ألا تراها؟

ـ أنا أرى..

هيا يا سيدي علينا أن نسير الآن.. وقال "فان بيرل"

ـ سيدي ـ من عطفك ولطفك، من باب الشفقة ـ لا تأخذوني ـ دعوني أرى ـ كيف؟ ـ ما أراه هناك ـ هل هو الزنبقة السوداء؟ سوداء جداً ـ هل يمكن هذا؟ آه يا سيدي! هل رأيتها؟

سيدي، لا بد أن عليها بقع ملونة أو فيها عيب ما أو طليت بالأسود دعني أنزل يا سيدي! دعني أراها عن كثب، أرجوك؟

هل أنت مجنون يا سيدي؟ وهل أستطيع ذلك؟

أتوسل إليك!

هل نسيت أنك سجين!

إنني سجين حقاً لكني رجل شريف، لن أهرب أو أحاول الفرار ـ دعني فقط أنظر إلى الزهرة.

ولكن لدي أوامر مشددة. وقام الضابط بحركة كأنه يقول للجندي: تابع طريقك!

وطلب منه "كورنيليوس" مرة أخرى أن يتوقف قائلاً:

كن صبوراً يا سيدي، كن رحيماً ـ حياتي تتعلق بكلمة من عطفك ـ كم أتألم! إنك لا تعرف يا سيدي تلك المعركة القائمة في قلبي وفي رأسي! وتابع "كورنيليوس" أخيراً بلهجة اليائس

آه لو كانت هذه زنبقتي وقد سرقوها "لروزا" ـ آه يا سيدي! هل تعرف معنى أن تكتشف الزنبقة السوداء؟ ومعنى رؤيتي لها برهة فقط؟ وأن تعرف أنها كاملة تماماً ومثلاُ أعلى لعمل الطبيعة والفن معاً.. ومن ثم تفقدها! تفقدها إلى الأبد؟! آه يا سيدي، عليّ أن أخرج من العربة، علي أن اذهب لأراها، ثم اقتلني بعد ذلك يا سيدي إن شئت، لكن يجب أن أراها.. أن أراها.

اسكت أيها التعس وعد إلى العربة – ها هو موكب فخامة الحاكم يقاطع عربتنا لو عرف أو لاحظ أية مشكلة لكانت مسؤوليتي ومسؤوليتك!

وخشي "كورنيليوس" على رفيق دربه أكثر من خشيته على نفسه فارتد إلى داخل العربة، لكنه لم يستطع البقاء فيها لأكثر من نصف دقيقة ـ وبعد أن

مضت فرقة الخيالة عاد إلى باب العربة يقوم بحركات ميئوس منها عندما مر الحاكم أمامه: وغليوم الهادئ دائماً يذهب اليوم إلى الساحة ليقوم بواجبه كرئيس دولة حاملاً بيده لفافة من الرق وقد أصبحت في هذا اليوم العصا الآمرة. وعندما شاهد الرجل يقوم بحركات ويتوسل ـ أعطى أمره بالتوقف فهو يعرف الضابط المرافق له. واهتزت الخيول فوق حدواتها الفولاذية وتوقفت العربة على بعد ست خطوات عن "فان بيرل" المسجون داخل العربة. وسأل الأمير الضابط:

ـ من هذا؟

وكانت تلك المرة الأولى التي يُسأل فيها من قبل الأمير! فقفز من العربة وتقدم منه باحترام كبير وقال:

إنه سجين الدولة الذي أحضرته من "لوفستان" بناءً على أوامركم وسآخذه إلى "هارلم" كما طلبت فخامتكم!

ـ ماذا يريد؟

ـ يطلب بإلحاح أن نسمح له بالتوقف هنا لفترة ما؟

ـ فقال "فان بيرل" وهو يشبك يديه:

ـ لكي أرى الزنبقة السوداء. وبعد أن أراها وأعرف ما أريد معرفته يمكن أن أموت إذا لزم الأمر.

ولو قدر لي أن أموت فأنا أقدس فخامتكم الرحيمة بيني وبين الله!: أن تسمح لي بأن يصل عملي إلى نهايته.

كان ذلك مشهداً بين رجلين، كل واحد منهما على باب عربته محاطاً بحراسه، الأولى بمنتهى القوة والسلطة والثانية بمنتهى البؤس، الأول يوشك أن يصل إلى العرش والثاني يوشك أن يصعد إلى المشنقة.

نظر "غليوم" إلى "كورنيليوس" واستمع إلى توسلاته الملتهبة وسأل الضابط:

ــ هل هو ذلك الرجل العاصي الذي أوشك أن يقتل سجانه في "لوفستان"؟

وتنهد "كورنيليوس" وأحنى رأسه. واحمر وجهه اللطيف النبيل وشحب بآن واحد.

كلمات الأمير، كلمات كلية القدرة، كلية المعرفة، تلك العصمة الإلهية التي تصل إليها تعليمات ورسائل سرية لا يعرفها البشر الآخرون منذ عرف جريمته وتنبأ له بالعقاب المؤكد.

لم يحاول "كورنيليوس" أن يقاوم أو أن يدافع عن نفسه، بل عرض أمام الأمير ذلك المشهد المؤثر لإنسان بائس وساذج واضح جداً أمام القلب الكبير والنفس العظيمة لدى الرجل الذي كان يتأمله. فقال الحاكم:

دع السجين ينزل ويذهب لمشاهدة الزنبقة السوداء فهو يستحق أن يراها ولو لمرة واحدة.

كاد "كورنيليوس" أن يغيب عن الوعي لشدة فرحه وترنح وهو يهبط من درج العربة وقال وهو يكاد يختنق، متكئاً على ذراع الضابط:

آه يا سيدي ـ وشكر فخامته راكعاً على ركبتيه وجبينه يلامس التراب بعد أن أعطاه هذه الموافقة.

وتابع الأمير رحلته وسط الغابة ووسط هتاف الجماهير الذي يزداد حماساً وبعد قليل.. وصل إلى المنصة وراح صوت المدافع يرن في الأفق البعيد.

الخاتمة



وقاد أربعة حراس "فان بيرل" وأخذوا يشقون طريقهم بين الجماهير.. وألقى بنظره على الزنبقة السوداء ليلتهمها بعينيه كلما اقترب منها أكثر.

وأخيراً لقد رآها تلك الزهرة الوحيدة التي نتجت من تراكيب عديدة: من الحر والبرد من النور والظلال.. ومن ثم لتختفي إلى الأبد!

رآها على بعد ست خطوات منه وتذوق جمالها وكمالها، رآها من خلف الصبايا وقد شكلن حرس شرف لهذه الملكة. ملكة النبل والنقاء، فكان قلبه يكاد يتمزق لما رآها كاملة غير منقوصة.. كان يبحث فيمن حوله عن شخص يستطيع أن يسأله سؤالاً واحداً.

ولكن.. وجوه لا يعرفها تحيط به، فكل الجماهير مشدودة البصر والانتباه إلى ذلك العرش الذي جلس عليه الحاكم.. وغليوم الذي كان يستقطب انتباه الجميع، نهض وأدار بصره فيما حوله بعيون هادئة ونشوى سددها نحو الجمهور، تتوقف أنظاره بين حين وآخر على ذلك المثلث الذي تشكل أمامه لاهتمامات ثلاث ومآسي ثلاث، تختلف كل واحدة عن الأخرى.

في زاوية المثلث الأولى، كان بوكسل يضطرب لشدة نفاذ صبره ويلتهم الأمير بعينيه، والدراهم، والزنبقة السوداء والجماهير..

أما في الثانية فكان "كورنيليوس"، يلتقط أنفاسه، لا ينطق ليس فيه حياة ولا نظر ولا قلب ولا حب حتى لابنته الزنبقة السوداء.

أما في الزاوية الثالثة وسط صبايا "هارلم" وعلى إحدى الدرجات، صبية رائعة ترتدي ثوباً ناعماً من الصوف الأحمر مطرزاً بالفضة، مغطاة بالزلازل تتهدل كالأمواج على قبعتها الذهبية.

كانت "روزا" خائرة القوى غائرة العينين تتكئ على ذراع أحد ضباط غليوم.

وعندما رأى الأمير مستمعيه هؤلاء جاهزين فرد ببطء رقاً بين يديه وتلا بصوت هادئ وناعم وواضح رغم ضعفه، لم يفقد منه أي حرف وقد ساد صمت ديني، ران فجأة على خمسين ألف متفرج تعلقت أنفاسهم بشفتيه وقال:

"أنتم تعرفون لأي هدف نحن مجتمعين هنا. هناك جائزة تقدر بمئة ألف فلوران لمن يكتشف زنبقة سوداء تماماً، الزنبقة السوداء تلك المعجزة الهولندية معروضة أمامكم الآن، وقد أوجدت وفق تلك الشروط التي طلبتها جمعية البستنة في "هارلم"

إن قصة اكتشافها واسم مكتشفها ستكون مسجلة على لوحة الشرف في بلدية "هارلم"

والآن.. نطلب من مكتشفها أن يقترب منها فهو مالك الزنبقة السوداء.. ولكي يرى أثر هذا الكلام دار غليوم ببصره على زوايا المثلث الثلاث رأى "بوكسل" ينطلق من مكانه، وقام "كورنيليوس" بحركة لا شعورية وشاهد الضابط المكلف بحراسة "روزا" يقودها أو بالأحرى

يدفعها نحو العرش. وسمع الأمير في نفس اللحظة صيحتان صدرتا عن يمينه وعن يساره تقول: روزا... روزا..

كان "بوكسل" قد استولى عليه رعب شديد.. و"كورنيليوس" وقد صرخا معاً.

وسأل الأمير:

هل هذه الزنبقة لك حتماً ـ وغمغمت "روزا"

نعم سيدي!

وحدثت همسات عامة انطلقت تحيي "روزا" وجمالها المؤثر. وتمتم "كورنيليوس" آه.. إنها تكذب عندما ادعت أنهم سرقوها لها! لذلك غادرت "لوفستان" آه لقد نسيتني وخانتني تلك التي ظننتها أعز أصدقائي!

وغمغم "بوكسل" من جهته:

ـ آه.. لقد ضعت! وتابع الأمير:

هذه الزنبقة، سيطلق عليها اسم مكتشفها وسيبقى مسجلاً في فهرست الأزهار تحت عنوان الزنبقة السوداء "روزا بارلنسيا" وذلك اسم "فان بيرل" الذي سيكون مستقبلاً اسم هذه الفتاة الشابة.

وفي نفس الوقت، أمسك الأمير بيد "روزا" ووضعها في يد ذلك الشاب النبيل الذي انطلق مضطرباً وشاحباً ـ وقد هاله الفرح ـ إلى أسفل العرش ليحيي الأمير بين حين وآخر ومباركاً لخطيبته شاكراً الله الذي يتأمل المشهد من أعماق السماء وهو يبتسم لرؤية هذين القلبين السعيدين.

وبدا في أسفل العرش أيضاً الرئيس "فان سيستين" مصاباً بنوع آخر من الانفعال.

أما "بوكسل" فقد تحطمت آماله وخر مغشياً عليه، فأنهضوه وجسوا النبض في قلبه فوجدوه قد مات.

ولم يزعج هذا الحدث، عيد الزهرة ولم يبد على الرئيس أو على الأمير ما يشير إلى أنهما اهتما كثيراً للأمر. وتراجع "كورنيليوس" جزعاً أما السارق "جاكوب" المزيف الذي عرف فيه جاره "إيزاك بوكسل" الحقيقي الذي لم يشك فيه لحظة واحدة لنقاء سريرته.. في أعماله الشريرة هذه.

وكان شرفاً كبيراً له أن أرسل الله إليه هذه السكتة القلبية التي منعته من رؤية أشياء أخرى أشد إيلاماً له، لغروره وبخله.

وعلى أصوات الأبواق تابع الاحتفال مسيرته لا يعكره شيء إلا أن "بوكسل" قد مات.

وأن "روزا وكورنيليوس" الظافران يسيران جنباً إلى جنب يد الواحد بيد الآخر. وعندما وصلوا إلى دار البلدية أشار الأمير إلى "كورنيليوس" على المبلغ المئة ألأف فلوران الذهبية وقال:

أنت تعرف تماماً من اكتشف الزنبقة السوداء! فهل هو أنت أم "روزا"؟ فإذا كنت مكتشفها فإن "روزا" زرعتها وربتها وجعلتها تزهر. وليس من العدل أن لا تعطيها كمهر لك ـ وعلى كلٍ فالمبلغ هو هدية بلدية "هارلم" إلى الزنبقة السوداء.

وانتظر "كورنيليوس" ليعرف ماذا يريد الأمير. وتابع هذا الأخير:

أقدم "لروزا" مئة ألف فلوران.. التي ربحتها، وتستطيع هي أن تقدمها لك مكافأة لحبها وشجاعتها وشرفها.

أما أنت فقد ظهر وبفضل "روزا" وقد قدمت دليل براءتك أنك سجنت لجريمة لم ترتكبها. وعلي أن أقول لك، أنك لست حراً فقط بل ستعود أملاكك إليك. ولا

يجوز مصادرة رجل بريء. سيد "كورنيليوس" إنك ربيب "كورنيل دوويت" وصديق أخيه "جان" فابق وفياً للاسم الذي أعطاه لك أجران المعمودية، ولتلك الصداقة التي أودعها الآخر فيك. أنت أمين ويجب أن تبقى وفياً وتحفظ العرف الذي يستحقانه. فقد حوكموا بشكل خاطئ وعوقبوا بشكل أسوأ. وفي زمن أخطاء الشعوب أنتما مواطنان كبيران تفخر هولندا بكما. وبهاتين الكلمتين اللتين قالهما الأمير بصوت مضطرب على غير عادته، أعطى يديه الاثنتين للعروسين يقبلانها.. فركعا إلى جانبه.. ومن ثم تنهد وقال: أنتما الآن سعيدان، وقد تحلمون بمجد هولندا وسعادتها ـ لا تفكروا إلا بأن تبحثوا لها عن أنواع أخرى من الزنابق. وألقى نظرة باتجاه فرنسا كما لو رأى سحابة تتكدس من هذه الناحية ـ فركب في عربته وانطلق.

ففي نفس هذا اليوم انطلق "كورنيليوس" و"روزا" إلى "دوردريخت" وقد أخبرت والدها بكل ما جرى بواسطة الورقة التي أرسلت إليه كسفيرة!

وبناءً على ما تقدم، ومن يعرف طباع العجوز "غريغوس" يرى من الصعب أن يتصالح مع صهره فلا تزال

في قلبه ضربات العصا التي تلقاها منه وعددها واحد وأربعون، والجروح التي أحدثتها هذه الضربات.

لكنه وكما قال: أنه ذهب إلى هناك لكي لا يكون أقل سخاءً من فخامة الحاكم. فغدا الآن حرس الزنابق بعد أن كان حارس المساجين. وقد غدا أقسى حارس للأزهار في بلاد "الفلاندر" وعليك أن تراه وهو يراقب الفراشات الخطرة ويقتل فأرات الحراج ويطارد النحلات الجائعات.

وعندما عرف قصة "بوكسل" غضب لأنه كان مخدوعاً "بجاكوب" المزيف وقد هدم المنظار الذي أقامه ذلك الحسود خلف شجرة الجميز. إذ أن حديقة "بوكسل" بيعت بالمزاد العلني وضمت إلى مساكب "كورنيليوس" واستدارت بشكل لا يمكن معه أن تقتحم بأي منظار في "دوردريخت".

أما "روزا" فكانت تزداد جمالاً كل يوم، وتزداد علماً، وبعد سنتين من زواجها أتقنت الكتابة والقراءة حتى تكلفت بتربية طفلين جميلين أنجبتهما بين عامي

١٦٧٤-١٦٧٥ لم يسببا له أي ألم كما سببته لها الزنبقة التي كان لها الفضل في إنجابها.

كان الأول صبياً أطلق عليه اسم "كورنيليوس" والثاني بنتاً أطلق عليها اسم "روزا" وبقي "كورنيليوس" وفياً "لروزا" وزنابقه طيلة حياته مهتماً بتأمين السعادة لأسرته والرعاية لأزهاره مما ساعده على اكتشاف أنواع جديدة من الأزهار سجلت في فهارس هولندا. وقد زين صالة بيته بإطارين ذهبيين كبيرين فيهما ورقتان من نوراة "كورنيل دوويت" كتب له على الأولى ـ ونحن نذكر ذلك ـ أن يحرق كل الرسائل مع المركيز "لوفوا"!

وفي الثانية التي أعطاها "لروزا" حيث خبأت فص الزنبقة وصية اشترط فيها أن تعطي جائزة المئة ألف فلوران مهراً لشاب تتزوجه عمره بين ٢٦-٢٨ سنة يحبها وتحبه. وهو شرط تحقق لأن كورنيليوس نجا ولم يمت. فإذا حدث وجاءهم حساد جدد ولم تتمكن العناية الإلهية أن تخلصهم كما فعلت مع "إيزاك بوكسل" فقد كتب على باب بيته ذلك البيت الذي حضره "غرانيوس" على جدار السجن يوم هروبه:

"يتألم المرء كثيراً لكي يحق له أن يقول: أنا سعيد جداً"

انتهى

الفهرس